الالتزام الإسلامي في الأدب

وبحوث أدبية أخرى

الدكتور/ محمد بن سعد بن حسين

أستاذ الأدب ورئيس قسمه بكلية اللغة العربية بالرياض

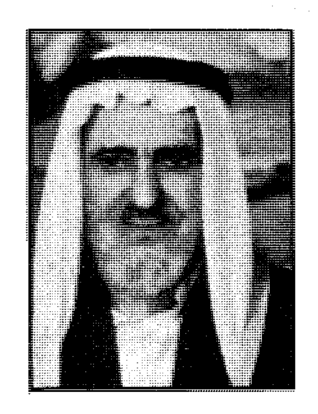
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الطبعة الأولى

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــــداء



إلــى أبـــي ...
الـذى علمنـى ...
أول درس في الالتزام
أهـدى هـذا الكتـاب

راجياً من الله تبـارك
وتعالى أن يمد فى عمره
وأن يمتعه بالصحة والعافية

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين له بإحسان إلى يوم الدين، وبعد :

فإن الإنسان يعجب بعمله، ويراه فيه أقدر الناس على سلك سبل الإحسان وهو صادق مع نفسه، لكن هل يصدق مع الواقع؟ ذلك مايحتاج إلى بصر وبعد نظر، وقدرة على التجرد من أهواء النفس ووسوساتها. وحينئذٍ يشاركه الناس الإعجاب بعمله، أو يشاركه بعضهم على الأقل، وقد يعترفون له بذلك، وقد تغلب بعضهم أهواؤهم فيغمطونه حقه بالصمت عن الثناء على عمله، أو التصدى لذمه، وأسوؤهم من إذا قابل صاحب العمل أثنى على عمله فإذا انصرف عنه استعمل كل خبراته للطعن فيه.

لست أعلم لما بدأت حديث هذه المقدمة بهذا القول، فلعلها رواسب في النفس هاجتها المناسبة. غير أني أود القول، أني لا أنشر شيئاً إلا إذا كنت راضياً عنه على أقل تقدير. ثم إنى أعلم أن مايعجبني قد لايرضى عنه الآخرون، وما أرضى عنه لايعجب غيرى، ولكنى على يقين من أنه يسرنى كثيراً أن أسمع رأى الآخرين قبولاً كان أو رفضاً على أن يكون ذلك علناً ومواجهة لا أن يكون كعمل المنافقين، أجارنا الله جميعاً من ذلك.

ثم أن هذه جملة من البحوث الأدبية التي آلّف الأدب شتاتها وأحسن نظامها وقوى وشائج مابينها من أسباب، فجاءت متآخية في هذا الكتاب الذي أقدمه إلى القارىء، وأنا أحس بأنى أقدم له شيئاً هو من أعز مالدى لا لشيء إلا أنى أرى في كل بحث صورة من صور كفاحى، وأسلوب تفكيرى وتأليفى، ولذا فإنى أقدم له قطعة منى.

ثم أن في هذه البحوث مايعد جديداً في ميدانه، وبخاصة (التزام الإسلامي في الأدب) وهو الذي صدّرت به الكتاب عنواناً وموضوعاً.

ولا أريد أن أمر بكل بحث فأثبت له من الحسنات ما أراه جديراً بها، فذلك ليس من

حقى، وإنما هو من حق القارىء والناقد ولكنى أستطيع القول أنها جميعا تتحلى بسمة الابتكار، وهذا رأى كاتبها على الأقل.

ولعل أهم حافز لي على نظم هذه البحوث واخراجها في كتاب مالقيته من اهتمام وتشجيع من معالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وصدور هذا من مثله يعين على الأمر و يقوي الظهر ويجعل المرء اكثر تفاؤلاً.

وقد لايكون من حقى الثناء على هذه البحوث والاشارة إلى أهميتها في ميدان الفكر بعامة والأدب بخاصة، إلا أنه من حقى أن أقول أنها تستحق الوقت الذي أنفقته فيها والجهد الذي وقفته عليها، وإن لم يكن من حيث الزمن طو يلاً، ولكنه كاف على أية حال.

وإذا كنت أقدم هذه البحوث وأنا في غاية الرضا عنها كما أسلفت، فإنى أقدمها وأنا أشهد بصحة قول الكاتب العماد الأصفهانى :

[إني رأيت أنه لايكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده : لو غيرّ هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدم لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر].

فحسبى إذاً أنى راضٍ عنها حين نشرها، وما ادعى الكمال المطلق لعمله إلا ناقص أو مغترّ، وأعوذ بالله أن أكون كذلك.

دكتور

محمد بن سعد بن حسين
أستاذ الأدب ورئيس قسمه بكلية اللغة العربية
بالرياض ــ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
١٥/ ١١/ ١٤٠٤هـ ــ ٨/١٢ /١٩٨٤م
بحي الملز في مدينة الرياض العامرة

المبحث الأول
الالتزام الإسلامي في الأدب

الالتزام الإسلامي في الأدب

أيها الأخوة إن الأدب في مفهومه السليم دعوة إلى الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة التي عليها تبنى العلاقات المتينة بين أفراد المجتمعات، ثم بين المجتمعات، وإن شئت فقل إنه السبيل الأمثل ليرسم سبل النجاح في مستقبل كل أمة تنشد المستوى الأمثل لمجتمعها، ثم هو وسيلة لتصحيح واستقامة ماعوج من السلوك البشري، ومن هذا تكونت فكرة التطهير لدي اليونانيين.

ثم هو بعد هذا متعة الأرواح، ومجتلى الأفراح، ومستنبت صور الجلال، ومسرح عرائس الجمال، تتفيأ الأرواح أفنان أدواحه باحثة عن الطمأنينة والراحة من عناء الركض في نجاح الحياة العامة.

والأديب هو منشيء العمل الأدبي، لذا فإن مرتبته في الأمة مرتبة الرائد والمصلح. ومن هنا قالوا: الأديب مرآة المجتمع، وقد أساء من فهم هذا على أنه يعني انعكاس واقع المجتمع في العمل الأدبي كما هو لأنه يضع الأديب بمنزلة الحاكي أو الصورة (الفوتو غرافية) وهذا يسلبه صفة الريادة والقيادة والتوجيه والإصلاح.

إن شرف الأديب وشرف عمله إنما يأتي من طريق كونه أقدر أفراد المجتمع على تبين فضائل المجتمع ونقائصه، ومعالجة هذا الواقع بتنمية الفضائل والدعوة إلى التمسك بها ومحاربة النقائض والدعوة إلى التخلص منها وذلك من طريق رسم السبل القويمة لنجاح المجتمع في تمكين الفضيلة وكل ميادين الحياة وغلبتها على تصرفاته، وتوجيهها له في كل شيء في المكتب والمتجر والمصنع والمدرسة وفي كل ميدان من ميادين القول والعمل.

وكل الأعمال الأدبية صالحة لأن تكون وسيلة للأديب في طريق الإصلاح لافرق في ذلك بين الخطبة والمقالة، وبين القصيدة والقصة، وبين المسرحية والرسالة، ولافرق في ذلك أيضاً بين مايكتب للصغار ومايكتب للكبار، كل هذه الأنواع وسواها وسيلة للأديب يتحتم عليه استغلالها في صالح المجتمع حسب ماتمليه كفاءته وقدراته، واستعداده.

وخروج الأديب من هذا الإطار خروج عن طبيعته، وتخل عن مهمته الأساسيه. وقد يعد هذا الخروج من باب الشذوذ الفكري الذي تصاب به أقلام الكاتبين فيصرفها عن ميادين جهادها إلى منعطفات مظلمة، أو مفازات موحشة، يضل فيها الأديب فيُضِل. أعاذنا الله من الوقوع في مهايع الضلال.

فالأديب إذا ضل ــ عياذا بالله ــ **كان ضرره مركباً، منشأه:**

أ ــ أنه فرد من الجماعة تتأثر بما يصيبه من خير أو شر.

ب ــ ثم هو مثل يحتذى في مجتمعه، وشر الناس من كان أسوة باطل وضلال ومن هنا نستطيع أن نقول **إن الأديب ملتزم بطبعه فإذا تجاوز الالتزام، تجاوز حدود طبعه**، وإن شئت فقل، طبيعة عمله، وطبيعة الميدان الذي اختاره للاستفادة من قدراته العقلية والفكرية، والاستفادة ليست وقفاً على المنافع المادية وإنما هي هدف للاستفادة الروحية والذهنية، ومن الخطأ أن يحرم الأديب من ممارسته حقه في هذه الميادين، أو أن يحرم المجتمع من الاستفادة بما اختصه الله به من قدرة امتيازعلى سائر أفراد مجتمعه حتى صار منه في مرتبة القيادة وفي تمثل الهدف الذي من **أجله يكتب الأديب المسلم الملتزم أدباً متسماً بالالتزام** الإسلامي، لابد له من تمثل القول إنما هو أدب هادف ملتزم يكتبه كاتبه وهو يطرح على نفسه الأسئلة الثلاثة التالية:[1] **لمن أكتب...؟ ولماذا أكتب...؟ وماذا أكتب؟** وهذا يعني أنه لابد من تمثل الهدف قبل البدء في العمل ليكون ذلك أتم وأكمل، وهذا يحقق معنى الالتزام الإسلامي في الأدب، ذلك الذي حدده الباشا في المرجع نفسه بقوله «الأدب الإسلامي الذي عرّفناه بأنه التعبير الفني الهادف عن واقع الحياة والكون والإنسان على وجدان الأديب تعبيراً ينبع من التصور الإسلامي للخالق عز وجل ومخلوقاته، ولايجافي القيم الإسلامية»[2] . ولذا فإن الأديب المسلم الملتزم أقدر الناس على معالجة «مشكلة القلق التي أصبحت في طليعة مشكلات إنسان هذا العصر في أوربا وأمريكا، والتي بدأت تهب ريحها علينا معشر المسلمين».

---

(١) وهذه التسأولات وردت في مقدمة كتاب جان بول سارتر لمن نكتب.

(٢) في العدد الثاني عشر، ١٤٠٢ من مجلة كلية اللغة الربية بالرياض د. عبد الرحمن الباشا.

ولا تتم هذه المعالجة الا ببث الطمأنينة في النفوس إلى وجود الله عز وجل، والإيمان المطلق بقضائه وقدره، والثقة التي لا حدود لها بحكمته، وتعميق النظرة إلى الأحداث الجارية، وعدم الوقوف عند حلقة من حلقاتها أو مظهر من مظاهرها. فكثير من الأحداث لا تنتهي في حياة فرد من الأفراد وإنما تتفرق حيوات أفراد كثيرين» .

ولعل أهم أسباب القلق والاضطراب النفسي الذي يجتاح مجتمع هذا العصر قد أصيب به العالم من ضعف صلاتهم بخالقهم ــ تبارك وتعالى ــ وتزلزل إيمانهم بسبب هذا الضعف، حتى تحكمت فيهم المادة، وصارت تكيف أعمالهم وسلوكهم وتشكلها حسب متطلباتها الأمر الذي جعل الفرد يعيش واقعه في حياته وكأنه لاينتظر سواه بعد الممات «إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا»(٢) وهذا يعني أن الأديب المسلم بمثابة الطبيب النفسي، أو هو كذلك فعلاً، لأنه أقدر على اقتلاع الشرور من النفس البشرية وتحويلها إلى نفس خيرة تعمل لصالحها وصالح المجتمع ممثلة في ذلك أمر الباري ــ تبارك وتعالى ــ الذي استخلف الإنسان في هذه الأرض لعمارتها بما يرضيه تبارك وتعالى، ويحقق السعادة للمجتمع البشري الذي خلقه الله لعبادته، «وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين»(٣) .

والالتزام الأدبي «أن يتقيد الأدباء وأرباب الفنون في أعمالهم الفنية بمبادىء خاصة وأفكار معينة، يلتزمون بالتعبير عنها والدعوة إليها، ويقربونها إلى عقول جماهير الناس، ويحببونها إلى قلوبهم»(٤) . ولقد فرق الباحثون بين الإلزام والالتزام وبسط بعضهم القول في هذا حتى لم يدعوا في الأمر شبهة

أما الإلزام فإنه أمر يُفْرضُ على الأديب فرضاً ويوجَّهُ فيه إلى ماقد لاينسجم مع تفكيره ولايتجاوب معه حسه وشعوره فيكون فيه كمن فُرض عليه عمل عليه أن يؤديه على الوجه الذي يريده من فرضه لا على الوجه الذي يريده هو، ومن هنا يفقد سمة التأثير

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) الاية ٤٤ من سورة الفرقان.

(٣) الآية ٥٦ : من سورة الذاريات

(٤) قضايا النقد الأدبي للدكتور بدوي طبانه ص : ٥٠.

والإقناع، وإذا حصل شيء من ذلك فوقتيّ لا يلبث أن يزول وقد يعطى في العقول الواعية تأثيراً عكسياً ينتج المقت أو الاستخفاف، وأظهر مايكون هذا في أدب الكتلة الشرقية إلا ماندر، وسبب ذلك أن الحياة في مناهجهم الفكرية تقوم على أساس من النظرة المادية إلى الكون بأسره، وليس هذا ميدان الكشف عن ضلال هذه النظريات وماتفضي إليه من فساد أقر به سلك الإنسان في مصيره الأبدي مسلك الحيوان.

ولبعض **فلاسفة الغرب في قضية الالتزام مذهب آخر مفاده أن الإلزام والالتزام قيود تفرض على الأديب فتضني فكره وتعطل طاقته** لأنها تعوقه عن الانطلاق وبخاصة إذا كان الميدان للفنون الجميلة ومنها الشعر، يقول جان بول سارتر[1] «لانريد للرسم ولا للنحت ولا للموسيقى أن تكون ملتزمة، أو بالأخرى لانفرض على هذه الفنون أن تكون على قدم المساواة مع الأدب في الالتزام.

والشعر يعد من باب الرسم والنحت والموسيقا يقول لي بعض الناقدين في زهو المنتصر «لن تستطيع بحال أن تحلم بجعل الشعر التزامياً وهذا حق ولم أبغ ذلك، ألأنه يستخدم الكلمات كالنثر؟ ولكنه لايستخدمها بالطريقة نفسها. بل لنا أن نقول إنه لا يستخدم الكلمات بحال، بل يخدمها. فالشعراء يترفعون باللغة عن أن تكون نفعية» ولانريد أن نثقل بحثنا هذا بالحديث عن المذاهب الغربية والشرقية والنقل عنها إذ لافائدة نرتجيها من ذلك.

وليس من طبيعة بحثنا الحديث عن الإلزام والالتزام في الآداب الشرقية والغربية بل ولا الالتزام في الأدب العربي بعامة وإنما الذي يعنينا هو الحديث **عن الالتزام الإسلامي في الأدب وفي هذا دعوة للأديب إلى ماهو ميدانه الطبيعي** ومنزعه الأصيل، وماكانت الرومانسية إلا هروباً من الواقع الاجتماعي الذي أعي المفكرين والأدباء إصلاحه، أو قصوراً أو عجزاً لدى الرومانسيين أفقدهم القدرة على مواكبة الحياة بخيرها وشرها، كما أفقدهم القدرة على الإسهام في حل المشكلات المعقدة في مجتمعهم فراحوا يدفنون همومهم في متاهات الخيال ومسارب الهروب وقد أوجد ذلك عندهم رد فعل

---

(١) الإلتزام في الشعر العربي ص ٥٠ د. أحمد أبو حاقة عن.

انظر 1. P. sartre, qu, ertca quela littieratur. p. 11/17.

جعلهم يهجمون على المجتمع و يشنعون به دون أن يقدموا الحلول لمشكلاته، فكان ذلك سبباً في امتلاء نفوسهم بالحقد والتشاؤم والقلق ولو أنهم التمسوا الراحة والطمأنينة والاستقرار في الإيمان والعمل على ضوء ماورد في الدين الحنيف لوجدوا ذلك فيه متلازماً على أتم مايكون التلازم وأمتنه، لقد فصلت العلمانية بين العقل والعاطفة وإن شئت فقل بين المادية والروحية، فأنتج ذلك الفصل ضياعاً يعيشه العالم الغربي والشرقي على حد سواء.

لقد نمت الحضارة وازدهرت و أعطت أكلها يانعاً و بخاصة في العالم الغربي غير أن بُناة الحضارة المعاصرة في الغرب والشرق اتجهوا إلى المادية اتجاهاً كلياً وانصرفوا عن الجانب الروحي انصرافاً كاملاً أيضاً.

وفي هذا المقام لاتعنينا الأسباب التي انتهت بالعالم الغربي إلى هذه الهاوية السحيقة سواء أكانت الحروب التي أنهكت المجتمعات هناك فأوجدت فيها تخلخلا اجتماعياً واضطراباً اقتصاديا أنبت في الصدور رعباً من الفقر. أم أن أهم الأسباب انفصال الكنيسة عن المجتمع واشتغالها بأمور ليست مما يخدمه من قريب أو بعيد، وإنما هى استجابة لنزوات فردية وأطماع شخصية جعلت رجال الكنيسة يتورطون فيما لا طاقة لهم على حمله من مخلفات التصرفات غير المسئوله وكان من مصلحة أعداء العرب والمسلمين أن يجروهم إلى تلك الهاوية التي ترددوا فيها، فخدع من خدع وسلم من سلم، ولله في خلقه شؤون.

والضياع الذي يعيشه العالم اليوم ــ إلا من رحم الله ــ لم يكن جديداً في تاريخ البشرية وماكانت المعتقدات والحركات الفكرية التي نبتت في فجر التاريخ الإ محاولات يائسة للنجاة من ذلك الضياع الذي بقيت البشرية تتخبط فيه إلى أن بعث الله نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام بالدين الذي ارتضاه للبشريه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا)[1].

وهذا يعني أنه «كلما ساد الظلام الفكري يلتمع الإسلام دائما بإعجاز ليحدد للإنسان معالم الطريق ذلك أن الإسلام أنزل وتكامل ليكون العقيدة الأخيرة للبشرية دونما تناقض مع طبيعتها الأصلية من جهة ودونما تجاهل لمقوماتها من جهة أخرى... إن جل المصطلحات

---

(١) الآية ٣ من سورة المائدة.

التي استقطبت الفلسفات الوجودية يمكن أن تتبلور في كلمتين [الموت] و [التناقض الداخلي] أو التمزق، وإن هاتين المشكلتين عذبتا الإنسان منذ فجر التاريخ وحتى القرن العشرين ولم يكن ثمة من أمل طوال التاريخ سوى الأديان. ثم جاء الإسلام كنصر ساحق للإنسان على آلامه، وكثورة نفسية عظمى حققت له توحده الذاتي، شيدت أمامه أروع أمل في الخلود المطلق في النعيم إن موقف الإسلام من قضايا الإنسان يتسم دائماً بالمعالجة المتوازنة فكرية ونفسية دونما طغيان لقيمة على قيمة أو تراجع لقيمة أمام أخرى، ذلك أنه جاء بالأنسان والإنسان بفطرته الأصيله، [متوازن] ولكن الظروف التاريخية والمبادىء المنحرفه هى التي مزقته داخلياً وأشقته بالخوف». [1]

وهذا يعنى أن الالتزام الإسلامي في الأدب ضرورة لمن أراد أن يدعو إلى حياة أفضل ينعم هو والمجتمع بما تحققه الدعوة الملتزمة من نتائج محموده مأمونة العاقبة لأن الحلول التي قدمها الإسلام لمشكلات الإنسان والمجتمع تسير في خطوط فكرية ونفسية وأخلاقية متوازنه متوازية تجعل كل حلول قدمت خارج إطار الإسلام ــ من قبل ومن بعد ــ معاول هدم ومهايع للضياع[2] .

إذن فالالتزام الإسلامي في الأدب ضرورة ملحة ولكن هل يمكننا أن نتلمس حدود هذا الالتزام أو أن نضع له ضابطاً يكون بمثابة علامات الطريق في مترامي المفازات. **لقد أخطأ أولئك الذين حسبوا الالتزام الإسلامي في الأدب** قائماً على أساس من تقديم مسائل الدين وقضاياه إلى الجماهير في قوالب أدبية يكون لها نصيب من الجمال النابع من الفصاحة والبيان والمهارة في تأليف الكلام فقط.

لايشك مسلم في أن هذا من الميادين الجليلة التي تتطلب التوفر على إبرازها، وإيصالها إلى الجماهير عندما تدعو الحاجة إليها أو عندما يظن أن الحاجة تدعو إليها، وقد يكون ذلك مطلوباً وإن لم يغلب على الظن ذلك.

ولكن ليس هذا هو كل شيء، وقد لايجد فيه الأديب المنفذ الذي يستطيع أن يرسل

---

(١) في النقد الإسلامي المعاصر د. عماد الدين خليل ص ١٦٩.

(٢) المصدر السابق ص ١٦٤.

من خلاله أشعة حسه ووجدانه إلى الآخرين، أو لينفّس عما يضطرم في حسه وشعوره أو ليلتذ بقدرته الإبداعية وملكته الجمالية أولاً ثم يسعد بارتياح الآخرين إليها وتلذذهم بها.

لقد اعتنى الإسلام بالإنسان عناية تجاوزت كل التصورات (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) .

وفي الحديث القدسي عنه صلى الله عليه وسلم (يا ابن آدم خلقتك من أجلي فلا تلعب، وخلقت كل شيء من أجلك فلا تتعب).

فالإسلام إذن نظر إلى حاجات الإنسان الحسيّة والنفسية، لأن الله سبحانه وتعالى كونه وأوجده من عناصر حسية ومعنوية يكمل بعضها بعضاً على نحو من التلازم والتكامل فكيف نأتي ونضيّق على الإنسان ما وسعه الله عليه؟ وفي الجانب الآخر كيف نسمح بانزلاقه في مهاوي الضلال التي حذّره الله منها في كتابه المنزل وسنة رسوله المطهرة صلى الله عليه وسلم.

إن الإنسان في حاجة إلى أن يعرف حدوده وواجباته، ولكنه أيضاً في حاجة إلى أن يعلن عن حزنه وألمه وفرحه وسروره وتشوقه وآلامه وآماله وحين يوفق إلى إبراز ذلك في صورة كلامية بليغة لم يخرج في شكلها ومضمونها على مفاهيم الإسلام فإن هذا هو الأدب الملتزم شعراً كان أو نثراً، خطابة أو كتابة أو قصة أو مسرحية أو رسالة.

وكاتب هذا شأنه هو الأديب الذي انقاد للالتزام الإسلامي، وفي هذا المعنى يقول الدكتور عماد الدين خليل مشيرا إلى الالتزام الإسلامي في الفنون بعامه (أن يمتلك الفنان ــ أولا ــ تصوراً شاملاً متكاملاً صحيحاً للكون والحياة والإنسان، يوازية انفتاح وجداني دائم، وتوتر نفسي لاينضب له معين إزاء الكون والحياة والإنسان ومن بعد هذا يجيء الالتزام عفوياً متساوقاً منساباً، علاقته بالعطاء الفني لاتقوم مطلقاً على القسر والتكلف والإكراه ولا تعترف أبدا بالمدرسة الوعظية المباشرة)[1].

تلازم اللفظ والمعنى

ومن المهم جداً الربط في قضية الالتزام بين الشكل والمضمون لأن المعنى الشريف

(١) المصدر السابق.

لايناسبه سوى اللفظ الشريف وهذه قضية تحدث فيها نُقاد العرب بإفاضة ومن قولهم في ذلك ماورد في صحيفة [١] بشر بن المعتمر في وصف الكلام البليغ حيث قال: (ومن أراد معنى كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما وعما تعود من أجله أسوأ حالاً منك من قبل أن تلتمس إظهارهما وترهن نفسك في ملابستهما وقضاء حقهما).

وهذه مسألة يحتاج إيضاحها إلى شيء من البسط وإن لم تكن خفيّة إلا على أولئك الذين يمموا ضعيف القول وعاميّته فيما يكتبون.

ومن البدهي أن نقول إن العامي ليس من شريف اللفظ، لأن وجوده منتفى أصلاً عما يتلمس فيه شريف اللفظ ويدعى إليه.

وتلازم اللفظ والمعنى مسألة فرغ منها الناقدون العرب وخلاصة القول فيها أن اللفظ قالب المعنى ووعاؤه، ولهم في ذلك تمثيل حسن حيث شبهوا المعاني بالجواري والألفاظ بالمعارض اي الحلى والحلل.

وهذا يعنى تلازم الأمرين تلازماً لا انفكاك فيه، ولايمكن أن يتصور وجود لفظ بلا معنى في كلام العقلاء، كما لايمكن إيصال المعانى بصورة متكاملة إلا من طريق اللفظ، ولاحجة بما تُفهمه الرسوم والرموز والإشارات ونحوهما ثم إن الألفاظ لا تتساوى في أداء المعاني، ومن هنا جاء قولهم أن المعنى الشريف لايناسبه سوى اللفظ الشريف وهذا المذهب لم يكن جديداً في أقوال نقاد العرب الأقدمين، بل سبقهم على ذلك فصحاء العرب وخير من يستشهد بقوله في هذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فلقد روى محمد بن سلام الجمحي في طبقاته[٢] عن عيسى بن يزيد [بن دأب] بإسناد له، عن ابن عباس قال، قال لي عمر: أنشدني لأشعر شعرائكم. قلت: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: زهير.

---

(١) البيان والتبين للجاحظ ١٣٥/١ والعقد الفريد لابن عبد ربه ١٣٩/٤ والصناعتين لأبي هلال العسكري ص ١٣٤ والعمدة لابن رشيق ٢١٢/١.

(٢) طبقات فحول الشعراء. تحقيق محمود شاكر جـ ١ ص ٦٢.

قلت: وكان كذلك؟ قال كان لايُعاظل بين الكلام ولايتبع وحشيه، ولايمدح الرجل إلا بمافيه.

أرايت كيف يجمع ــ رضى الله عنه ــ أطراف الحديث في هذا الموضوع في كلمات موجزة معدودة؟ ومن المعلوم أن أمير المؤمنين، الفاروق، كان من أهل البصر بأقوال العرب وبخاصة الشعر.

ولذا كان رضى الله عنه يحظ على حسن رواية الشعر و يأمر بتأديب الأبناء به لكونه يعلم مكارم الأخلاق، وكان من المعدودين في رواية الخبر والشعر، كما كان من نقدة الشعر الذين حذقوا لفظه وأسلوبه وفقهوا معانيه، ولجلال مرتبته في ذلك كان أدبه موضوع اطروحة علمية حضرت مناقشتها في كلية اللغة العربية بالقاهرة منذ سبع سنين ولوكان المجال للحديث عن أدبه رضى الله عنه متسعا لوجدنا فيه خير غذاء لعقولنا وأفكارنا، فلعل فرصة تتحاح لذلك إن شاء الله.

لقد قلنا أن الاديب المسلم مطالب بالالتزام الإسلامي في أدبه وإن هذا الالتزام لايحول بينه وبين رغباته وميوله ونزعات حسه وشعوره.

ولكن نزيد الأمر إيضاحاً أكثر فنقول إن جميع الأجناس الأدبية يمكن أن تكون داخلة في إطار الالتزام الإسلامي مالم يخالف فيها الاديب أمراً من أوامر الإسلام أو نهيا من نواهيه. أما إذا فعل شيئاً من ذلك فإنه يكون حينئذ مخالفاً، عليه إثم مخالفته، لأن ما أتى به من عمل قد خرج فيه عن الالتزام الإسلامي.

ودليل ذلك أن من يأتي مثل هذا لا يظهر أمام كل الناس بل يحاول إخفاءه وستره، وربما أتلفه بأي وسيلة، ثم إن القادحين فيه كثيراً ما اتخذوا مثل هذا القول وسيلة للقدح في صاحبه، وهذا دليل آخر على أن المجتمع الإسلامي يرفض مثل هذا لأن الإسلام دين الخلق الفاضل والسلوك المستقيم.

إذن فالأديب المسلم يمكن أن يتخذ من جميع الأجناس الأدبية وسائل للتعبير عن إحساساته ومشاعره ويمكنه من خلالها أن يعالج جميع قضاياه وقضايا مجتمعه دون أن يحد بأي حد سوى عدم الخروج على ماتفرضه تعليمات الدين الحنيف الذي رسم أمثل السبل للنجاة في الحياة الأولى والآخرة.

إن للأديب أن يرثي، وأن يتشوق، وأن يمدح، وأن يهجووأن يصف مشاهد الطبيعة، والكون، وأن يتحدث عن قضايا أمته ومجتمعه، لكن أفضل ذلك كله ماكان في سبيل الإسلام دعوة وإرشاداً أو دفاعاً وانتصاراً، وإن من يقف قوله على مثل هذا معدود بمشيئة الله من المجاهدين إذا نوى العمل في سبيل الله ألم تر **إلى الصحابة رضوان الله عنهم كيف ابتدروا هذا** السبيل حين ندبهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك بقوله **(ما منع الذين نصروا رسول الله بسيوفهم أن ينصروه بألسنتهم)** فكان أن تسابق على ذلك ثلاثة من خيرة شعراء الأنصار رضوان الله عنهم أجمعين.

ولم يخل عصر من العصور من نماذج حيه في هذا السبيل **حتى جاء العصر الحديث** فوجدنا فحول شعرائه يسخّرون ملكاتهم وأقلامهم في سبيل الذب عن الإسلام والذود عن حياضه، ونذكر من هؤلاء السادة الفضلاء الشيخ **محمد عبد المطلب وأمير الشعراء أحمد شوقي وشاعر العروبة والإسلام أحمد محرم** وشاعر النيل **حافظ إبراهيم ومحمد العيد الخليفة ووليد الأعظمي وحسين بستانه وعمر أبو ريشه** وغيرهم كثيرون من شعراء العصر الحديث مثل **حسين عرب، ومحمد حسن فقي، وعبد الله بن خميس، وأحمد ابراهيم الغزاوي** وآخرون كُثر.

صحيح أن لبعض هؤلاء شيئاً مما هو خارج إطار الالتزام الإسلامي، تسأل الله لهم فيه العفو والمغفرة ممن (خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم) [1].

وشعراء الأمة الإسلامية كغيرهم من أبناء المسلمين يقع الخطأ في أعمالهم كما يقع في أعمال غيرهم غير أنه عند أكثرهم يكون نتيجة غفلة أو غفوة ضمير فالخطأ يقع منهم كما يقع من غيرهم، ولكنه في قولهم أشير ولذا فإن خطره أكبر لكونه أجرى على اللسان وأعلق بالأذهان، ومن هنا يكون أبلغ في التأثير.

حُجتنا في قضية الالتزام الإسلامي

لقد نظر كثيرون من العلماء إلى الشعر نظرة فيها شيء من تهوين أمر الشعر من هنا

(١) سورة التوبة الآية ١٠٢.

رأوه أمراً يـذري بـالـعـالم و ينقص من قدره، وحجتهم في ذلك موقف القرآن الكريم والسنة المطهرة من الشعر ثم موقف الصحابة رضوان الله عنهم .

نجـد أنـفـسـنـا فـي قضية الالتزام هذه نعتمد على ما اعتمدوا عليه، لكن لانعمهم، بل نـفـضـل الأمـر حـسـب مـاتـقـضى به الأدلة، دون أن يكون في قولنا مايخالف اتجاه العلماء و يقضى بنقد ما أبرموا، أو معارضته، وإنما نذهب في ذلك مذهباً آخر في التوجيه يسير في السبيل الذي ساروا فيه رحمهم الله.

أ ــ في سورة الشعراء[1] جاء قول الله تبارك وتعالى «والشعراء يتبعهم الغاوون ألم ترأنهم فـي كـل وادٍ يـهـيمون، وأنهم يقولون مالا يفعلون، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ماظلموا».

ب ــ ونـفـى الباري تبارك وتعالى صفة الشعر عن رسوله صلوات الله وسلامه عليه، ومنه قـولـه «وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين»[2] وذلك حين وصفته قريش بأنه شاعر وأن مايأتي به شعر.

جـ ــ وفـي الـحـديـث الـشـريـف قال صلىٰ الله عليه وسلم حين أعجبته مقالات وفد بني تميم «إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة».

د ــ وقـال صلى الله عليه وسلم «لئن يمتلأ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خيرا له من أن يمتلأ شعراً هجيت به»[3] .

هـ ــ وحين اشـتـد عـلى النبي صلىٰ الله عليه وسلم أمر مقالات شعراء قريش في هجائه وأصـحـابـه اسـتـنـهـض شعراء الأنصار للذب عن رسول الله ونصرته بهجاء الذين هجوه وذلك فـي أحـاديـث كـثـيـرة منها ماروى عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسـلـم قـال: «اهـجـوا قريشاً فإنه أشد عليهم من رشق النبل فأرسل إلى ابن رواحه فقال اهـجـهـم فهجاهم فلم يرض، فأرسل إلى كعب بن مالك ثم أرسل إلى حسان بن ثابت فلما

---

(١) الآية ٢٢٤ إلى آخر سورة الشعراء.

(٢) سورة يس : الآية ٦٩.

(٣) الاجابة فيما استدركته عائشه على الصحابة ص٦٧.

دخل حسان قال آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه.ثم دلع لسانه فجعل يحركه وقال: والذي بعثك بالحق لأفرينهم فرى الأديم.

فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وتعجل فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها وإن لي فيهم نسباً حتى يخلص لك نسبي، فأتاه حسان ثم رجع فقال: يارسول الله قد خلص لي نسبك والذي بعثك بالحق لأسلنك منهم كما تُسل الشعرة من العجينه. قالت: عائشة فسمعت رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يقول: «هجاهم حسان فشفى وأشفى»[1].

ولشرف هذا الموضوع وكونه سبيلا من سبل الجهاد أقيم له منبر في ناحية مسجد رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يعلوه حسان وإخوانه من شعراء الأنصار رضى الله عنهم جميعاً، والنبي صلىٰ الله عليه وسلم ومن حوله أصحابه رضوان الله عنهم يسمعون مايقال من فوق ذلك المنبر.

و ــ وكان النبي صلىٰ الله عليه وسلم يرتاح لسماع حسن الشعر إذ كان يسمع من الخنساء رضى الله عنها و يستزيدها بقوله «هيه ياخُناس»

وروى عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: أصدق كلمة قالها شاعر قول لبيد:

(ألا كل شيء ماخلا الله باطل)

أخرجه الشيخان.

ز ــ وورد أن عبد الله بن عباس كان يستمع الشعر في الحرم المكي وحين نهى عمر حساناً عن إنشاد الشعر في المسجد قال له حسان «كنت أنشده هنا وفيه من هو خير منك فسكت عمر رضى الله عنه».

والأحاديث والأخبار في ذلك كثيرة يكفينا ما أوردنا منها إذ القصد للتمثل لا التقصي ولقد نظر العلماء إلى ماورد في ذم الشعر، ثم نظروا إلى الذين امتهنوا سبيله فوجدوا فيهم كثيرين من المتساهلين، وبعض المتطرفين فأخذوا ــ رحمهم الله ــ برأي سد الذريعة وهو كُره المباح إذا خيف إفضائه إلى الوقوع في المحرم، ومن هنا قال الإمام محمد ابن إدريس الشافعي:

---

(١) : المصدر السابق نفسه.

ولولا الشعر بالعلماء يزري لكنت اليوم أشعر من لبيد

ولو أنهم رحمهم الله وازنوا بين حسن الشعر وقبيحه لأحسنوا أكثر، وإن كان الإمام الشافعي نفسه قد فعل هذا بنظمة كثيراً من المواعظ والحكم والنصح والإرشاد حتى كون ذلك ديواناً من الشعر مطبوعاً.

والقرآن الكريم في ذمه الشعراء وشعرهم استثنى «الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ماظلموا»

والحديث الشريف في إحدى الروايات عن عائشة رضى الله عنها قصر الذم على ما هجى به المصطفى صلى الله عليه وسلم، ومفهوم المنطوق هنا أن كل شعر خالف مفاهيم الإسلام هو من ذلك المذموم.

إن شأن الشعر بخاصة والفنون الأدبية بعامة كشأن التأليف في العلوم الأخرى يحدد لفظها ومضمونها موقعها في فكرنا الإسلامي. والإنحراف عن الطريق السوى لم يكن من خصوصيات الشعراء والأدباء وحدهم، وإنما يقع لهم في ذلك مايقع لغيرهم.

وإذا كان الشعر قد استخدم وسيلة شر عند بعضهم فإنه قد استخدم أيضاً وسيلة خير عند البعض الآخر، وأكثر ماكان ذلك في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم في العصر الحديث هذا العصر الذي شهد طفرة عجيبة في هذا الميدان، لولا ما يعتري بعض شعرهم من غلو ومبالغات.

الالتزام الإسلامي هل هو قديم أم جديد؟

ومن واجب الأديب المسلم أن يعرف كيف يلتزم إسلامياً بأدبه، وكذلك عليه أن يستدل على عمله في المسيرة الإسلامية الطويلة، و يعتقد جازماً أنه ملتزم في هذا الطريق الإسلامي ، التزام الأدباء الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والالتزام ــ بحد ذاته ــ ليس وليد فكرة جديدة بشكل عام وليس وليد فكر مادي بشكل خاص كما زعم بعض أدباء الكتلة الشرقية إنما «هو قديم قدم الإنسان على هذه الأرض، وقدم الرسالات السماوية التي أنزلت لترسم للإنسان طريقه في الحياة. وهو لا ينفصل عن الإنسان، ولا يبتعد عن فكره، وسلوكه ومجتمعه»(١) .

وعندما يقف الباحث المسلم أمام قضية الالتزام في الأدب الإسلامي عليه أن يتناول صفة الأديب المسلم، وهويته التي لا تتحدد إلا من خلال صفته مسلماً وهو منفرد في صفة الإسلام مشترك مع غيره في صفة الأدب ولاشيء في أن تفاوت الأدباء في رأينا يقوم على أساس معتقد كل منهم وإذا كانوا مشتركين جميعاً في صفة الأدب فإنهم مختلفون في صفة العقيدة ومن هنا يأتي الدور المميز للأديب المسلم، و يزداد دورة تميزاً وأهمية إذا حمل الإسلام فكرة وعقيدة يجاهد في سبيله بالكلمة الملتزمة، وهو لايستطيع أن يجاهد إلا إذا كان مؤمناً حقاً ومسلماً ملتزماً بشرع الله فكراً وسلوكاً واعتقاداً.

«وإذا كانت المسؤولية عند الله على قدر الطاقة والمعرفة، فإن مسؤولية الأديب جد كبيرة، وحسابه عند الله عظيم وشديد، لأنه موضع الريادة والتوجيه، ومناط القدرة والمثل، لما أعطاه الله من موهبة وفكر.. والالتزام في الأدب الإسلامي، لايقاس بالمقاييس التي وضعتها المذاهب المادية الأخرى.

بل لابد وأن ينبع الالتزام من العقيدة أولاً، ومن شرع الله عموماً، بل لابد أن ينسجم

---

(١) انظر محمد حسن بر يغش في الأدب الإسلامي المعاصر ص ٣٥ نشر مكتبة الحرية.

الأديب المسلم مع نفسه وحقيقته، وكل أديب مطالب بالصدق مع ذاته، فكيف يكون أدب الأديب إن لم يكن واقعه وحقيقته الشعورية والعملية نابعة من الإسلام؟

إن المذاهب المادية ــ ترفض في كثير من الأحيان ــ الأدباء الذين يسلكون سلوكاً يتناقض مع ما يؤمنون به، هذا في واقع هذه المذاهب المادية، على ما فيها من تناقض وجهل وتصور. فكيف نقبل من المسلم أن يتناقض مع نفسه، يتكلم عن الإسلام وهو بعيد عنه؟» (١).

وهناك نقطة مهمة أيضاً يجب الانتباه إليها.

فالذين يحصرون الالتزام الإسلامي في الأدب في التعبير عن قضايا المسلمين والتحدث عنها ضمن المفاهيم الإسلاميه في حين أنهم بعيدون عن الالتزام الإسلامي سلوكاً وعقيدة وفكراً إنهم مخطئون ومنافقون وليسوا ملتزمين «والأدب الإسلامي التزام بالإسلام، والتزام بالكلمة، والتزام بالعقيدة والتزام بالسلوك. إنه أدب يقوم على تصور متكامل، له من المدى مالا يحلم به بشر غير المؤمنين وله من الرحابة مايجعله يأتلف مع الأرض والسماء وماحوتهما في تناسق لا يدركه إلا المؤمنون، ومحبة لايذوقها إلا الصادقون» (٢).

ويذهب بعض الباحثين إلى أن الأدب الإسلامي واسع مع الالتزام ومقيد مع الشمول، يتصل بجميع مجالات الحياة الدينيه والدنيويه، والواقع أنه لايخلو أديب من التزام، لكن الإسلام الذي بدل كثيراً من قيم الجاهلية ومفاهيمها جاء للأدب بروح جديدة.

ومنذ البداية كان شعر الصحابة الشعراء ملتزماً، ولكنه مع تقيده بالطبيعة الإسلامية يتسع مع اتساع حياة عهده، ففيه سرور وحزن، ورضى وسخط، وعتاب واستعتاب، ووصف وحكمه (٣).

وإذا قلنا بأنه لايخلو أديب من التزام، فهل يوجد أدب غير ملتزم، في واقع الحال إن

---

(١) انظر المصدر السابق ص ٣٩.

(٢) محمد الرابع الحسني الندوي،الأدب الإسلامي وصلته بالحياة ص ٤٧ ومابعد.

(٣) انظر المصدر السابق نفسه.

الباحث المحلل والناقد الفاحص لايجد أدباً غير ملتزم. وأمامي ثلاثة أمور أحب أن أطبق عليها أمر الالتزام في الشعر مثلاً.

١ـ فالشعر إما أن يكون حاملاً لكل خير، باعثاً عليه مهذبا للنفس مرققاً للأخلاق، وباعثاً على الشجاعة، حاملاً لكل ما دعىٰ الله إليه، منبهاً على كل ماحرمه الله، وعندها يكون من الشعر المباح بل الإيجابي الذي يريد الإسلام من أتباعه الشعراء أن يكثروا منه.

٢ ـ وإما أن يكون مباحاً لاشر فيه ولا أذية وهو ليس مما نهىٰ عنه الإسلام بل إن سماحته لتتسع له، وهذا مباح أيضاً ولا مانع منه.

٣ ـ وإما أن يكون شريراً هادماً للقيم والأخلاق، باعثاً على الفجور والفساد والفتن، فهذا شر لايوافق عليه الإسلام، بل لايوافق على وجوده أصلاً. وأما الشعراء فمنذ البداية جاء القرآن يصنفهم ويفرزهم «والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون»(١) .

وهذا الفريق هو صاحب الحالة الثالثة التي تحدثنا عنها، وأما الفريق الآخر فإنه فريق مع الله إيماناً وطهراً وصدقاً وتضحية ، وهو صاحب الحالة الأولى بالخصوص والأولىٰ والثانية بالعموم.

والمسلمون اليوم يفهمون المقصود بهذين الفريقين تماماً ولذا فإن الملتزمين في أدبهم الإسلامي ، يريدون لشعرهم أن يكون وقفاً لنصرة الحق الإسلامي والدعوة الإسلامية، يريدونه مشعلاً على درب الجهاد والإسلامي، ولا يحضرني شاهد أقرب من أبيات حفظتها منسوبة للدكتور يوسف القرضاوي، يقول.

وقفتك ياشعري على الحق وحده ... فإن لم أنل إلآه قلت لهم حسبي

وإن قال غِرٌّ ثروتي قلت دعوتي ... وإن قال لي حزبي أقول له ربي

فعش كوكباً ياشعر يهدي الى العلا ... وينقضّ رجماً للشياطين كالشهب

---

(١) الآيات ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦ من سورة الشعراء.

وقد تحدث سيد قطب ــ رحمه الله ــ عن معنى الالتزام فقال: «لست أعني التوجيه الإجباري على نحوما يفرضه أصحاب مذهب التفسير المادي للتاريخ إنما أعني أن تكيف النفس البشرية بالتصور الإسلامي للحياة، وهو وحده سيلهمها صوراً من الفنون غير التي يلهمها إياه التصور المادي، أو أي تصور آخر، لأن التعبير الفني لايخرج عن كونه تعبيراً عن النفس كتعبيرها بالصلاة أو السلوك في واقع الحياة»[1].

وإذا كان هذا هو الشعر الإسلامي الملتزم فمن هو الشاعر الملتزم إسلامياً؟ هل هو الشاعر الذي يحيا الإسلام بكل معانية في جميع مجالات الحياة و يلتزم ذلك كله في شعره؟ إن هذا الشرط أو هذه الصفة لايمكن لنا التأكد منها عند جميع الشعراء الذين ينتشرون على مساحة واسعة من عالمنا العربي.

وعلى هذا فإن بعض الباحثين يرون أن الشاعر الإسلامي هو الذي وقف شعره لخدمة الإسلام وقضاياه دون الالتفات لحياته الخاصة أملتزم هو فيها بالإسلام إلتزاماً تاماً أم أنه يتجوز فيها أو في بعض جوانبها؟ ولما كان الإلمام بالانتاج الكامل لكل الشعراء متعذراً لأن معظمه مخطوط أو مبعثر في المجلات التي يتعذر الحصول على بعضها، ولأن بعض الأمور التي يعتبرها أناس تجوزاً غير مقبول يعتبرها آخرون تصرفاً لاغبار عليه كان علينا أن نضع تصوراً آخر للشاعر الإسلامي على أنه ذلك الشاعر الذي ينطق معظم شعره بالعاطفة الإسلامية، و يعالج في قسم من قصائده مشاكل الإسلام وقضاياه، على أن لايكون في سائر شعره مايخالف عقيدة الإسلام أو يناقض مواقفه الإسلامية الصادقة في قصائده الأخرى[2].

وهذا رأي يستهوينا، ذلك أن المتتبع لمسار الشعر الإسلامي عبر التاريخ يجد أن الصدر الأول من شعراء الإسلام لم يحدثوا تغييراً واسعاً في شكل الشعر الجاهلي وكل ما في الأمر أن الإسلام ألغى المفهومات الجاهلية السلبية ووضع بدلاً منها مفهومات إيجابية.

ولكن شعراء الفتوحات الإسلاميه طوّروا في شعرهم بل إن الإسلام أثمر شيئاً جديداً

---

(١) انظر سيد قطب النقد الأدبي أصوله ومناهجه.

(٢) انظر أحمد عبد اللطيف الجدع حسني أدهم جرار (شعراء الدعوة الإسلامية) في العصر الحديث جـ ١: ص ١٦ مؤسسة الرسالة ١٣٩٨هـ ــ ١٩٧٨م.

عند هؤلاء الشعراء. مثل الصدور عن روح الإسلام في الأحاسيس والمعاني والموضوعات ومثل الطوابع الشعبية، ومثل وحدة الموضوع والعفوية[1] .

وفي الوجدانيات ظهر الوجد العذري وامتاز بالعفة، ورقة الأداء ووحدة المحبوبة والاهتمام بالنفس والمشاعر أكثر من الاهتمام بالجسد[2] وهذا أيضاً ناجم عن الإلتزام.

وخلاصة القول في مسألة الالتزام عندنا أنه نوعان وأنه قديم.

أما أنه قديم فقد تحدثنا عن هذا، وأما أنه نوعان فقد جاء حديثنا مطولاً نلخصه فيما يلي:

١ـ التزام لايحول بين الأديب المسلم وبين رغباته وميوله ونزعات حسه وشعوره. وهذا النوع من الإلتزام يصونه من عبث أصحاب القول بالإلزام، ومن أصحاب نظريات الأدب للأدب.

٢ ـ الإلتزام الإسلامي الحركي الهادف في العصر الحديث جداً وقد ظهر بين صفوف الأدباء المسلمين الذين يعيشون في بلاد لاتحكم بالإسلام، فخرج أولئك يحملون الإسلام فكرة وعقيدة يجاهدون في سبيله بالكلمة المتزنة الملتزمة، وهؤلاء يمرّون بالدور الذي مرّ به أدباء المملكة الذين عايشوا حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فصاروا يساندونه بالكلمة الطيبة ويخلدون انتصارات الإمام محمد بن سعود وآل سعود لأنهم انطلقوا ملتزمين بالجهاد في سبيل الإسلام.

٣ ـ لايحول الشعر الملتزم بين الأدب المسلم ورغباته وميوله ونزعات حسّه وشعوره بالألم والسرور.

وبالسخط والرضا وأنه يقوم على البكاء والضحك، وعلى الكراهية والحب، وعلى الجد والمزاح، وعلى الشقاء واللذة، وعلى العقل والوجدان وعلى الحكمة واللعب، وهو يصور سلوك الصديق مع الصديق، سلوك الرجل مع المرأة، ويصور انفعال الزميل في الأحداث وشعوره للعواطف، وتأثره بكل مؤثر، واستجابته لكل ظاهرة مسترعية للانتباه، وهو يشتمل

(١) انظر شعر النعمان عبد المتعال القاضي، شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام الصفحات ٢٣٧، ٢٨٦، ٢٨٧، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٨.

(٢) انظر شكري فيصل تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام.

على التاريخ والسيرة، وعلى القصة والرسالة، وعلى الخطبة والحوار، وعلى الوصف والتصوير وعلى التعبير المؤثر الجميل، وهو نثر سليس وشعر رائع، وصور زاهية للأسلوب الأدبي، وهو تقريع وعتاب، وتطريب وإمتاع، وبيان وإفهام إنه مرآة كلامية للحياة الإنسانية في أحوالها النفسيّة وأحوالها الكونيّة. غير أنه يتجنب في كل ذلك القذارة والفساد.

وذلك لأن الإسلام ليس ديناً بالمعنى الذي راج وعمّ في الديانات الأخرى في العالم حيث لايتسع الدين في نظرها اتساع الحياة[1].

ولا نستطيع أن نفهم كل هذه الأمور من خلال الشعر الملتزم خاصة إلا إذا تجاوزنا النظرة (الفوتوغرافية) لشعر واحد من هؤلاء لنصل إلى الفصل الثاني.

ولانستطيع أن نخرج من هذا الحديث قبل أن نذكر النماذج المتعددة لنوعي الالتزام عامة والالتزام الإسلامي في الأدب خاصة.

صور من الالتزام الإسلامي في الأدب القديم.

ألف العرب في جاهليتهم طرقاً من التعبير عن مقاصدهم كان فيها ماهو من مرذول القول لفظا ومعنى، ومع كون النبلاء منهم يترفعون عن مثل هذا إلا أنه يجرى في قولهم منه مايجرى، مثال ذلك قول زهير بن أبي سلمى.

وما أدرى ولست إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء؟

وبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم داعياً إلى كل فضيلة ومحذراً من كل رذيلة، وبدأ الصحابة رضوان الله عنهم يتتابعون على طريق الحق مؤمنين برسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام، فنزعوا عن كل ماهم فيه من طرق الضلال.

ولذا نجد قولهم يأتي على جانب كبير من الالتزام لفظاً ومعنى بل إنك لا تكاد تجد ما يخرج عن الالتزام الإسلامي إلا مانز فيا ندر من أشعارهم التي نظموها في بداية إسلامهم

---

(١) انظر : محمد الرابع الحسني الندوي الأدب الإسلامي وصلته بالحياة ص ١٣.

رضى الله عنهم أجمعين، ومنه ماتجده في مقدمة قصيدة كعب بن زهير بن أبي سلمى التي نظمها في الاعتذار إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وهي [بانت سعاد] المعروفه بالبردة وباللاميه التي أقبل عليها الشعراء معارضين ومشطرين ومخمسين ومسدسين وهكذا، كما اهتم بها الشراح والدارسون ومع كونه حديث عهد بما هو فيه فإن لأحد شيوخنا في هذا الغزل رآيا، فيه توجيه حسن، فلقد قال الأستاذ الدكتور عبد السلام سرحان،: «وسعاد في هذه القصيدة فتاة خيالية اخترعها خياله وفراها تصوره ليبدأ على حبها إنشاءه ويوالى في ذكرها إنشاده ويرتبع في مرابعها بخير تقديم على عادة الشعراء في شعرهم القديم، ولكن الملاحظ أنه وصفها بعدم الولاء ورماها بعدم الوفاء وتحدث عن أنها هجرته وقطعت حبل وصله وأبلت أسباب وده، واختفت عنه في مكان جد بعيد لايمكن الوصول إليه إلا على ظهور العتاق النجيبات المسرعات في السير المغذات في الرحيل.

ثم انتقل بعد ذلك إلى وصف أمله في رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعفو عنه ويغفر زلته، ويؤمنه على سعاد التي كنى بها — فيما أرى — عن راحته وهناءته التي افتقدها زمناً طويلاً فكانت تهرب منه، وتفر أمامه وتبعد عنه فيحاول أن يركب إليها سفائن الصحراء ويتحمل في سبيلها كل عناء عله يظفر بها أو يتقرب منها ويمضى بوعد لديها أن تلقاه، ولكنها ظلت منه نافرة عنه مغضبة، وعليه غاضبة حتى وجدها أخيراً في طريق الأمل والرجاء، وعرف أنها تقيم لدى سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه.

فقدم إليه وقدم بين يديه تلك الخريدة الفريدة التي كانت الثمن الوحيد للاتصال بالحبيب البعيد».

ومنه ماتجده في النسيب العفيف الذي تجده في مقدمات بعض قصائدهم مثل ميمية حسان رضي الله عنه، التي مطلعها:

تبلت فؤادك في المنام خريدة   تسقي الضجيع ببارد بسام

وجاء عهد بني أمية وكان من اشتداد الصراع بين الأحزاب المختلفة فكان ماكان من تهاج تطرف فيه بعضهم وظهر بعض الماجنين من الشعراء مثل العرجي وابن أبي ربيعة، والأحوص وامتد سريان هذين التيارين وجاء العصر العباسي حيث انضم لهما تيار ثالث كان أخطر وأشر وهو تيار الإلحاد والزندقة الذي ظهر أول ماظهر في شعر بشار بن برد إلى

ماكان من إفراط كثيرين من شعراء ذلك العصر في شعر الخلاعة والمجون فاختل توازن الالتزام الإسلامي في الشعر اختلالاً ملحوظاً وبخاصة في شعر شعراء المدن.

غير أنك ترى صور الالتزام الإسلامي واضحة مشرقة في جل شعر الفحول مثل أبي العتاهية، وأبي تمام والبحتري والمتنبي وغيرهم كثيرون.

فأما في شعر أبي العتاهية فأمره لايحتاج إلى تمثيل.

وأما من قول أبي تمام فمنه قصيدته في فتح عمورية، وقصيدته في مدح المعتصم التي مطلعها :

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر   وغدا الثرىٰ في حليه يتكسر

وفيها أقام وصف الربيع مقام النسيب فأجاد وأبدع وأتى من صور الجمال بما هو أروع فمحىٰ شبهة الذين أرادوا سلب شعره سمة الإشراق والوضوح، كلمة قالها عنه قائل فرددها بعده الناقدون ومؤرخو الأدب، ومن العجيب أنهم يستشهدون بهذه القصيدة فيما يستشهدون به من شعره، ثم لايفطنون إلى مافيها من روعة الفن والجمال، ووصف الحقيقة بما ينحسر دونه الخيال، ألم تر إلى قوله في الأبيات الآتية كيف يشهد بما نقول شهادة لاتترك للتردد مجال :

أضحت تصوغ بطونها لظهورها   نوراً تكاد له القلوب تنور

من كل زاهرة ترقرق بالندى   فكأنها عين إليك تحدر

تبدو ويحجبها الجميم كأنها   عذراء تبدو تارة وتخفر

حتى غدت وهداتها ونجادها   فئتين في حلل الربيع تبختر

مصفرة محمرة فكأنها   عصب تيمَّنُ فى الوغى وتمضّر

من فاقع غض النبات كأنه   درر تشقق قبل ثم تزعفر

أو ساطع في حمرة فكأنما   يدنو إليه من الهواء معصفر

صبغ الذي لولا بدائع لطفه   ما عاد أصفر بعد أزهر أخضر

وأمثلة ذلك كثيرة في ديوانه، ومما أردد منه في باب الوعظ والزهد قصيدته اليائية، وهى من جميل قوله، ومما ورد في صدرها :

ألم يأن تركي لاعليّ ولا ليا　　وعزمي على مافيه إصلاح حاليا
وقد ذال مني الشيب وابيض مفرقي　　وغالت سوادى شهبة في قذاليا
وحالت بي الحالاتُ عما عهدتها　　بكرِ الليالي والليالي كما هيا
أصوّت بالدنيا وليست تجيبنى　　أحاول أن أبقىٰ وكيف بقائيا
وماتبرحُ الأيامُ تحذفُ مدتى　　بعد حسابٍ لاكعد حسابيا
لتمحو آثاري وتخلق جدتي　　وتخلوا من ربعي بكره مكانيا

وأما عند البحتري فإنك تجد هذا مبثوثاً في ثنايا شعره وإن كثر عنده النسيب. وعندى أنه لم يقصد إليه إلا كمظهر من مظاهر البناء الفني للقصيدة العربية ذلك المظهر الذي حمل عليه المولدون مثل بشار، واشتد في ذلك أبو نواس الذي آثر وصف الخمرة على وصف الطلول.

ومظاهر الالتزام الإسلامي في شعر البحتري كثيرة منها قصيدته التي وصف فيها الربيع وصفاً رائقاً مطرباً

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً　　من الحسن حتى كاد أن يتكلما

ومنه قصيدته الفائيه التي كتبها رداً على جواب أتاه من أبى صالح بن عمار وفي صدرها يقول:

هذا كتابك فيه الجهل والعنف　　قد جاءنا ففهمنا كل ماتصف
أما تخاف القوافي إنها تزيلك عن　　ذاك المقام فتمضى ثم لاتقف
وشاعراً لايكف النصف غضبته　　إن هزَّ، والليث يرضى حين ينتصف
تعيبنى بهنات لست أعرفها　　عني، وأنت بها جذلان معترف

لاتجمعن علينا ردة وبنا قول، فذلك سوء الكيل والحشف
مالي وللراح تدعوني لأشربها ولي فؤاد بشيء غيرها كلف
إن التزاور فيما بيننا خطر والأرض من وطأة البرذون تنخسف
إذا اجتمعنا على يوم الشتاء فلي هم بما أنا لاق حين أنصرف

وفي القرنين السادس والسابع الهجريين نشط الصليبيون في محاربة الإسلام والمسلمين وبدأ الغزو الصليبي زحفه على بلاد العرب والإسلام وكان ماكان من هجمات أبلى فيها المسلمون بلاء حسن توج بالهزائم التي الحقت بالصليبين على يد أبطال الإسلام بقيادة عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي وأمثالهم من أبطال الإسلام، وكان للأدب شرف الإسهام في هذا الميدان المقدس، ومن هنا **وجدنا صور الالتزام الإسلامي تتجلى** مشرقة وضاءة في كل ماكتبوا على نحو لم يكن في القرون الأربعة التي سبقتها ومنه قول العماد الأصفهاني الكاتب وهو من المكثرين في ذكر انتصار جيوش المسلمين في موقعة حطين بقيادة صلاح الدين:

يايوم حطين والأبطال عابسة وبالعجاجة وجه الشمس قد عبسا
رأيت فيها عظيم الكفر محتقراً معفرا خده والأنف قد تعسا
ياطهر سيف برى رأس البرنس فقد أصاب أعظم من بالشرك قد نجسا
عرى ظباه من الأغماد مهرقة دما من الشرك رداها به وكسا
من بسيفه في دماء القوم منغمس من كل من لم يزل في الكفر منغمسا
أفناهم قتلهم والأسر فانتكسوا وبيت كفرهم من خبثهم كنسا

ولعل شيوع المدائح النبوية والإقبال عليها في أيام المماليك ومابعدها كان نتيجة لمواقف الشعراء من الغزو الصليبي في المشرق العربي ثم بلاد الأندلس التي لم يقيد الله لها ابطالاً كنور الدين وصلاح الدين ولذا كان ماكان من ضياع بلاد ورفت فيها أفياء حضارة

العرب والمسلمين ثمانية قرون من الزمان وعرف من الأندلسيين علماء وقفوا شعرهم على هذا السبيل ــ أعني الالتزام الإسلامي ــ مثل البيري وابن خاتمة.

ومنهم أبو البركات محمد بن الحاج البلفيقي وهو معدود في المجيدين من شعراء القرن السابع بالأندلس ومن المكثرين وقد روى له ابن الخطيب في الإحاطة جملة صالحة من الشعر الجيد الرصين منه قصيدة بناها على حوار بينه وبين نفسه دعاها فيه إلى العفة والنزوح إلى رضا الله الذي لايفتح أبوابه إلا الزهد والإقبال على العبادة.

صور من الالتزام الإسلامي في الأدب الحديث

ظهر شعراء في العصر الحديث كانوا إسلاميين وملتزمين، كما ظهرت كتابات[(١)] نقدية حول الأدب والفن الإسلاميين[(٢)] .

وقد اختلفت مسيرة هؤلاء الشعراء ولكن يمكن حصرها في مسارين، المسار الأول يمثل الشعراء الملتزمين التزاماً من النوع الأول ويمكن على سبيل المثال لا الحصر أن نذكر منهم :

أحمد محرّم، محمود سامي البارودي، أحمد شوقي، علي الجارم، محسن الكاظمي، محمد حسن عواد، محمد العيد بن محمد بن علي خليفة، محمود عارف، علي أحمد باكثير، عبد الله بلخير، عبد الله بن خميس، إبراهيم أمين فودة، صالح الشرنوبي، حسن عبد الله القرشي، محمد السليمان الشبل، والإمام محمد بن إسماعيل الصنعاني المعروف بالأمير، محمد حسن فقي، حسين عرب

ولاشك أن قضايا الالتزام عند هؤلاء الشعراء تختلف من واحد إلى آخر ولكن الجامع المشترك فيما بينهم هو الالتزام على كل حال.

---

(١) انظر : نجيب الكيلاني. الإسلامية والمذاهب الأدبية.
وانظر : سيد قطب النقد الأدبي. أصوله ومناهجه.

(٢) انظر : كتابنا (من شعراء الإسلام).
وانظر : أحمد عبد اللطيف الجدع، حسني أدهم جرار جـ ١و جـ ٢: شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث.
وانظر : محمد حسن بريغش. في الأدب الإسلامي المعاصر.
وانظر : محمد الرابع الحسنى الأدب الاسلامي وصلته بالحياة.

ولنعد إليهم ونستشهد على ماقاله بعضهم في كثيرٍ من القضايا الإسلامية.

الإمام محمد بن إسماعيل الصنعاني :

لا أريد أن أتحدث عن سيرة الصنعاني، ومنزلته العلمية فقد تناولنا هذا في بعض كتبنا[1] .

لقد سبق الصنعاني عصره في كثير من القضايا ويكفيه فخراً أنه من أوائل الشعراء الذين آمنوا بالإسلام صافياً من منبعه بعيداً عن الخرافات والأباطيل التي كانت سائدة في عصره.

وقد تجلّى هذا في تأييده لمادعا إليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله من عودة إلى لب الدين ونبذ البدع والخرافات، ويظهر التزامه في الدعوة إلى التمسك بالحديث النبوي الصحيح ونبذ الأباطيل، وذمه للتنجيم، والدعوة إلى إخماد الفتن السياسية التي تضعف من قوة المسلمين.

في عام ١١٣٢هـ حج الصنعاني للمرة الثانية وفي هذه الحجة التقى بالشيخ السندي أحد شيوخ الإمام محمد بن عبد الوهاب في المدينة، فأخذ عنه ثم عاد إلى صنعاء، وفي عام ١١٣٤ حج ثالثة وفي هذا العام أخذ عن جملة من علماء المدينة المنورة ومنهم الحسن بن حسين شاجو الذي أخذ عنه التجويد ومسند الإمام أحمد بن حنبل، وبدأ في رحلته هذه التأليف لكتاب العدة في شرح العمدة ثم عاد إلى صنعاء حيث اهتم بتدريس السنه النبوية الشريفة وبخاصة أن مجتمعه إذ ذاك كان بعيداً عن منابعها الصافية وتصدر وللإفتاء وكان في هذا وذاك موضع احترام الخاصة والعامة رغم ما كان يشيع في مجتمعه من الخرافات والأباطيل والاشتغال بالسفاسف والتفاهات، فثار عليه الذين ارتبطت مصالحهم الدنيوية بشيوع الخرافات والأباطيل فاستعدوا عليه العامه لكنه كان بالحق أقوى فصمد في وجوههم صمود الأبطال واستمر في نشر السنة المطهرة التي كان يفاخر بنشرها في مثل قوله :

كان الحديث بأرضكم مستغرب والله جدا

---

(١) انظر كتابنا : من شعراء الإسلام ص : ٩٧.

حتى نشرت فنونه وجلوت منه ماتصدى
ولدرسه ولأخذه من بعدنا كل تصدى
فتنافس العلما، في كتب الحديث هوى ووجدا
هذا بتنسيخ وذا بشرائها بالمال نقدا
ماقلت فخراً ولا أرجو بنشر العلم جدا
بل قلته متحدثا بنعيم من أعطى وأجدا
بالله قلي ياعذول علام تعذلني محدّا

ولقد لقى الإمام الصنعاني رحمه الله حرباً شرساً من الجاهلين الذين أخذوا في استنهاض القبائل عليه مثل قبيلة برط التي أقبلت إلى صنعاء للنكاية به، فكاتبوا الإمام المهدى، وهددوه بالثورة عليه إن هو حاول صدهم، لكن الإمام المهدى عرف غاية القوم فزاد في عطائهم السنوي عشرين ألف ريال فرجعوا عن قصدهم وبئس ماكانوا يصنعون وحين علم الصنعاني بذلك وأنهم ينقمون عليه نشر الحديث الشريف قال:

ليت شعرى هل في الوجود إمام عالم مثل مسلم والبخاري
كنت أعملت في لقاه المطايا سائراً في مهامه وقفار
بذلت النفيس في الأخذ عنه تاركاً للأوطان والأوطار

وقد بلغ من شهرة الإمام الصنعاني وعلو قدره أن عرض عليه (المتوكل القاسم بن حسين) القضاء (بالمخا) ثم القضاء العام ثم الوزارة، فرفض الصنعاني ذلك كله وأقبل على لتدريس والفتيا والخطابه بالجامع الكبير بصنعاء، وفي إحدى الجمع اختصر الإمام الخطبة للتخفيف عن الناس ولم يذكر الأئمة ولم يدع لهم فثار عليه المتعصبون لهم وأرادوا قتل الصنعاني وكان العباس ينظر إلى هؤلاء جميعاً على أنهم خطر يهدده فاعتقلهم جميعاً لكنه وضع الصنعاني في معتقل وبنى عمه هو في معتقل آخر.

وكان العباس المهدي قد قلق من وقوف الصنعاني في وجهه وبخاصة عندما أراد الاستيلاء على الأوقاف فنصحه الصنعاني في رسالة وجهها إليه.

ولم يكن هذا هو الموقف الوحيد الذي أثار حفيظة المهدى عليه بل كانت هناك مواقف أخرى منها القصيدة التي ذم الصنعاني فيها التنجيم وكان العباس المهدى يقبل عليه فقد وصف الصنعاني المصدقين للمنجمين بالتنقيل في قول موجه إليه، ومن هذه لقصيدة قوله:

ولا تستمع من عابد لنجومه تقاويم زور ليس تغني ولا تجدى
أكاذيب يمليها لكل مغفل يصدقها من ضل عن سبل الرشد
فو الله ما عند النجوم دلالة على نحس يوم في الزمان ولا سعد
ووالله ما غير الإله بعالم بما في غد مما يسر وما يبدى

وكانت المساعي الإصلاحية التي قام بها الأمير الصنعاني تتجاوز التدريس والوعظ والارشاد والإفتاء، وتلج في ميادين تتصل حينا بتصحيح الأوضاع الفاسدة من طريق الدعوة إلى استئصال أسباب الفساد وجذورها ومن ذلك موقفه من اليهود الذين اشتد نفوذهم في اليمن وصاروا يروجون للكبائر والموبقات كشرب الخمر مثلا.

فلقد طالب الأمير بنفيهم من البلاد وهدم ما أنشؤوه من معابد وأديرة وكانوا قد أكثروا من ذلك في صنعاء فطلب الصنعاني من المتوكل القاسم أن يجلى هؤلاء ويهدم مابنوا فاكتفى المتوكل بهدم منشآتهم لكن الصنعاني استمر في الدعوة إلى طردهم.

ومن ذلك أيضاً أن الصنعاني كان عاملاً مهماً في إخماد الفتن السياسية التي كانت تثور في وطنه ومن هذا أنه عمل على عقد صلح بين (المتوكل القاسم) وابنه (المنصور حسين) الذي ثار على أبيه وزحف إلى صنعاء لاحتلالها فنهض الصنعاني للعمل في الصلح بين الأب وابنه فنجح في ذلك.

وحين توفي المتوكل القاسم رحل الصنعاني إلى مكة المكرمة مخافة السوء لأنه علم أن فتناً ستثور في اليمن وأنه سيكون من وقود نارها.

وفي مكة جلس للتدريس في الحرم المكي وبقى ثماني سنين اشتد به فيها الحنين إلى

وطنه وأهله فقفل راجعا إلى اليمن، ولكنه لم يتجه إلى صنعاء بل إلى مدينة شهار ذات الحصن المنيع وبقى فيها يدرس و يؤلف وبقي أهله في صنعاء لكن كانت أخبارهم تأتي إليه.

و بلغته وفاة أبيه فأحزنه كثيراً و بخاصة أنه ظل زمناً بعيداً عنه وهو أبوه وأستاذه وأحب الناس إليه، لكن مواقف أولي الأمر بصنعاء كانت تحول دون الصنعاني وصنعاء حتى جاء عام ١١٤٨ حيث تمكن من العودة إلى صنعاء حيث أهله وذووه وأساتذته وتلاميذه.

وحين سمع بدعوة الإمام بن عبد الوهاب وعرف ما يدعو إليه أعلن إكباره للإمام ودعوته وأن مادعا إليه يوافق ما عنده و يدعوا إليه ثم أعلن هذا في قصيدته الدالية المشهورة وهى التي يقول في صدرها:

سلامي على نجد ومن حل في نجد ... وإن كان تسليمى على البعد لايجدي

لقد صدرت من سفح صنعا سقي الحيا ... رباها وحياها بقهقهه الرعد

سرت من أسير نشيد الريح أن سرت ... ألا ياصبا نجد متى هجت من نجد

يذكرنى مسراك نجدا وأهله ... لقد زادنى مسراك وجداً على وجد

قفي واسألي عن عالم حل سوحها ... به يهتدي من ضل عن منهج الرشد

محمد الهادي لسنة أحمد ... فياحبذا الهادي و ياحبذا المهدي

قد أنكرت كل الطوائف قوله ... بلا صدر في الحق منهم ولا ورد

وكل قول بالقبول مقابل ... ولا كل قول واجب الطرد والرد

سوى ما أتى عن ربنا ورسوله ... فذلك قول جل ياذا عن الرد

وما أقاويل الرجال فإنها ... تدور على قيد الأدلة في النقد

وقد جاءت الأخبار عنه بأنه ... يعيد لنا الشرع الشريف بما يبدى

ويـنشر جـهـراً مـا طوى كـل جاهـل ومـبـتـدع مـنـه فـوافـق مـا عـنـدى
وتـعـمـر أركـان الـشـريـعـة هـادمـا مشاهـد ضـل الـنـاس فيهـا عـن الـرشـد
أعـادوا بهـا مـعنى سـواع ومـثـلـه يـغـوث وود بـئـس ذلـك مـن ودى
وقـد هـتـفـوا عـنـد الـشـدائـد بـاسـمـهـا كـما يـهـتـف الـمـضـطـر بـالـواحـد الـفـرد
وكـم عـقـروا فـي سـوحـهـا مـن عـقـيـرة أهـلـت لـغـير الله جـهـرا عـلـى عـمـد
وكـم طـائـف حـول الـقـبـور مـقـبـل ومـسـتـلـم الأركـان منهـن بـالـيـد

ومنها :

لـقـد سرنـى مـا جـاءنـى مـن طـريـقـه وكـنـت أرى هـذه الـطـريـقـة لي وحدي

وقد أثارت هذه القصيدة عامة الناس وبعضا من الخاصة والمسئولين وعادوا إلى مهاجمة الإمام الأمير الصنعاني وحاولوا قتله.

أحـمـد شـوقي.

لم يكن أحمد شوقي بعيداً عن الالتزام، بل كان ملتزماً بارزاً في كثير من القضايا الإسلامية. وعلى سبيل المثال أيضاً نذكر بمواقفه التي اتخذها ضد دعاة السفور، في قصيدته (صداح ياملك الكنار) كما خاطب في شعره الشباب، والعلماء، والعمال وعامة الناس وخاصتهم.

ومن أهم مجالي الإسلام في شعر شوقي قصائده في الخلافة، والخلفاء العثمانيين فلقد كان يمدح الأتراك ويطيل في مدحهم لأنه يبصر الخلافة الإسلامية تتمثل في دولتهم، ولذا قال في مصطفى كمال حين كان قائداً في جند الخلافة.

الله أكبر كـم فـي الـفـتـح مـن عـجـب يـاخـالـد الـتـرك جـدد خـالـد الـعـرب

فلما تنكر هذا للخلافة وأقام على انقاضها نظامه الجديد بعد أن قلب للإسلام ظهر المجن، هجاه شوقي هجاءاً مرا تجده في قصيدته (خلافة الإسلام[1]) ومطلعها.

عادت أغاني العرس رجع نواح ونعيت بين معالم الأفراح
كفنت في ليل الزفاف بثوبه ودفنت عند تبلج الإصباح

ومنها في هجاء مصطفى كمال وأعوانه :

بكت الصلاة وتلك فتنة عابث بالشرع عربيد القضاء وقاح
أفتى خزعبلة وقال ضلالة وأتى بكفر في البلاد بواح

ومنه :

نقل الشرائع والعقائد والقرى والناس نقل كتائب في الساح
تركته كالشبح المؤله أمة لم تسل بعد عبادة الأشباح
هم أطلقوا يده كقيصر فيهم حتى تناول كل غير مباح

ولشوقي في بكاء الخلافة قصيدة رائعة، لم ترد في الشوقيات، وقد أثبتها محمد صبرى في (الشوقيات المجهولة).

قال أستادنا الدكتور محمد محمد حسين في مناقشة إحدى الرسائل الجامعية (أنها قصيدة عجيبة وأنها تشذ عن جميع شعره) ثم قال (شوقي كان موقفه عجيباً فعلا، يبدو وكأنه يبرر صنيع الكماليين بإلغائها، (يعنى الخلافه).

وهو يبدو كأنه أيضا يبرر إلغاء الخلافة و يقول: تحولت في دمشق إلى ملك عضوض، وتحولت إلى ملك السلطان.. والهوى في بغداد، ثم استشهد بالبيتين الآتيين:

وبنو على الدنيا بجلّق ركنها وعلى عتوّ الملك في بغداد

(١) الشوقيات المجلد الأول، ص ١٠٥.

جعلوا الهوى سلطانها وبنوها	مالا يسد به مكان الهادي

ثم أكد بأن هذه القصيدة تستحق وقفة طويلة يتبين فيها موقف شوقي الجديد. وأنا مع أستاذنا في أنها تستحق وقفه طويلة، لكني لست معه في التشكيك في سلامة موقف شوقي، وبخاصة أنه الذي ثبت على موقفه الجميل مع خلافة الإسلام ولعل من الحسن أن نورد هنا شيئاً من هذه القصيدة، أعنى (الخلافة) لشوقي، لقد نظم شوقي هذه القصيدة والجروح مازالت تنزف اثر القضاء على الخلافة، وفي أيام اجتمع فيها زعماء العرب والمسلمين في القاهرة لبحث أمر الخلافة، وكلهم كان فيها من الطامعين، فجدد ذلك آلام شوقي، فقال:

بعثوا الخلافة سيرة في النادي	أين المبايع بالإمام ينادي

ومنها في وصف خلافة بنى أمية وخلافة بني العباس :

وبنو على الدنيا بجلّق ركنها	وعلى عتوّ الملك في بغداد

وينتقل فجأة إلى حدث يومه وهو اجتماع زعماء المسلمين بالقاهرة عام ١٣٤٤هـ لبحث أمر الخلافة، فيقول:

جعلوا الهوى سلطانها ودعوا لها	من لا يسد به مكان الهادى
وأنا الذي مرضتها في دائها	وجمعت فيه عواطف العواد
عنيتها لحنا تغلغل في البكى	يارب باك في ظواهر شادى
ونصرتها نصر المجاهد في ذرا	(عبد الحميد) وفي جناح (رشاد)
ودفنتها ودفنت خير قصائدي	معها وطال بقبرها إنشادي
حتى اتهمت فقيل تركي الهوى	صدقوا هوى الأبطال ملء فؤادى
وأخى القريب وإن شقيت بظلمه	أدنا إليّ من الغريب العادي

ومن جميل ماجاء في آخرها:

جرح الليالى فى ذمام الشرق في حبل العقيدة في ولاء الضاد

أحمد محرم :

لأحمد محرم كثير من المواقف الملتزمة، سنكتفي بذكر بعضها وفي كتابنا (من شعراء الإسلام) زيادة لمن أراد أن يقف على جهد الإلتزام الإسلامي في شعر أحمد محرم.

ويكفي هنا أن أذكر له بفخار موقفه ضد (اللورد كرومر) المندوب السامي البريطاني في مصر حين حاول النيل من الإسلام بقذارته المعهودة، يوم أن رفع صوته بين المسلمين قائلاً، أن سبب تأخرهم وتخلفهم وانحطاطهم هو اعتناقهم الإسلام، لأنه أى الإسلام، كما يزعم دين جهل وخرافة وتواكل كما يزعم لعنه الله:

فثارت عليه أقلام المسلمين كتاباً وشعراء، وطبيعي بأن يكون لمحرم السهم الأوفر في هذا، ومما كتبه في الرد على كرومر هذه الأبيات التي نقتطفها من قصيدة بينّ فيها بطلان قول هذا النصراني الخبيث، كما أوضح محرم أن سبب تأخر المسلمين وجهلهم وتخلفهم أنهم لم يخلصوا لدينهم ولم يلتزموا أوامره التزاماً كاملاً ولم يسيروا في حياتهم وأعمالهم كما أراد الإسلام، وبين أن الإسلام دين وعمل وأن العيب في المسلمين لا في الإسلام.. يقول أحمد محرم من هذه القصيدة:

زعمت بنا مزاعم كاذبات ... وما يغنى مقال الزاعمينا

زعمت الدين والقرآن جاءا ... بما يشقى حياة المسلمينا

زعمت محمدا لم يأت رشدا ... ولم يسلك سبيل الصالحينا

رويدك أيها الجبار فينا ... فبئس الحكم حكم القاسطينا

وهبنا أمة في الجهل غرقى ... وشعبا في مهانته دفينا

ادين الله يأمرنا بجهل ... ويوجب أن نذل ونستكينا؟

سل الأحياء والموتى جميعا ... أكنا أمة مستضعفينا؟

ليالي يبعث الإسلام منا ... عزائم تخضع المتغطرسينا

نـشـل عـروش جـبـاريـن غـلـبـا ... ونجـتـث الـمـمـالـك فـاتحـيـنـا

إلى أن يقول :

سـنـنـا الـرشـد للـغـاويـن طـرأ ... ولـولا الـديـن لم نـك راشـديـنـا

ولـولا مـعشر خـذلـوه مـنـا ... لـكـنـا الـسـابـقين الأولـيـنـا

اتـزعـم مـا جنى الجـهـلاء ديـنـا ... وتـأخـذنـا بـذنـب الجـاهـلـيـنـا

رويـدك أيهـا الجـبـار فـيـنـا ... فـمـا أنـصـفـتـنـا دنـيـا وديـنـا

ومن قصيدة له تحت عنوان (توبوا إلى الهدى) بذل فيه النصح للمسلمين وبين لهم ألا شيء يستنقذهم مما هم فيه سوى التمسك بالدين الحنيف الذي به عز أسلافهم يقول:

هـل الـديـن إلا مـعـقـل نحتمى به ... إذا دلـف الـعـادي إلـيـه فـأسـرعـا؟

هـل الـديـن إلا الـروح يحيى نـفـوسـنـا ... حـيـاة تـريـنـا ماحـل الـعـيـش ممرعـا؟

أنـعـرض عـنـه لا مـبـالين رزءه ... وآلامـه مـهـما اشـتـكـا وتـوجـعـا

هـو الـديـن إن يـذهـب فـلا عـز بـعـده ... وإن جـد سـاعـيـنـا عـلـى أثـر مـن سـعـى

غير أن اليأس يدب إلى نفس الشاعر فيقول، إما يائساً وإما موبخاً ومقرعاً.

بـذلـت لهـم نـصـحـي وأعلم أنني ... أنـا جـي بـه قـومـا عـن الـرشـد نـزعـا

رحمك الله يا أحمد محرم فلقد جاهدت بلسانك عن الإسلام جهاد الأبطال.

محـسـن الـكـاظمـي :

من الشعراء الذين سخروا قولهم في سبيل قضايا الأمة العربية والإسلامية، وقد التزم الإسلام في أدبه، ونستشهد على نوعية هذا الالتزام بقضية فلسطين، حيث تعتبر هذه القضية من القضايا الإسلامية التي نظم فيها الكاظمي، وشعره في ذلك جيد يأتي على نحو قوله من قصيدة بعنوان (فلسطين) مطلعها:

فلسطين إن القصد لايتحول وإن صعاب الأمر سوف تذلل

ثم يقول متعجباً من عبث اليهود في فلسطين على الرغم من وجود الكثرة الكثيرة من المسلمين لتحول بعد ذلك إلى وفد فلسطين محاولا بث روح الثقة فيقول:

ألأمة موسى جاوزت فيك حدها ومومساك عنك اليوم في الناس مرسل
إذا أدبرت عنك الليالى بوعدها فإنا على تكريم وفدك نقبل
أوفد فلسطين يحييك كلما زها محفل أوعنّ في البال محفل
أوفد فلسطين الذي لست واحداً فإن جميع العرب فيك تمثل
لأنت الذي تمشى لذكراه والذي نكبر إجلالا له ونهلل
إذا قيل وفد الحق جاء فإننا حفلنا به والحر بالحر يحفل
إذا لم يكن أهل البلاد حلى لها فجيد المعالى من فخار معطل
وكيف ترانا واقفين وقد مشت بأعراقنا الآمال تحدى وترحل

وفي هذه القصيدة نفسها يخاطب الفلسطينين مذكراً إياهم بأن الفداء هو طريق استرجاع الحقوق فيقول:

وإن لم يكن حكم اليراع بعادل فإن رجوع السيف في الناس أعدل
بنى الجدان شد الزمان عليكم فشدوا وإما يجهل الدهر فاجهلوا
اعدوا له ماستطعتم وتأهبوا وإن جلجل الخطب المريع فجلجلوا
وليس سواء والخطى تتبع الخطى غداة الوغى شاكى السلاح واعزل
فكم ليلة ألوى بأذنى سمعها صدى صاروخ فيها يجد ويهذل
فقال بشير الخير هبوا إلى العلا وقال نذير الشر لا تتعجلوا

وكانت له مواقف في شعره مع الاستعمار وأعداء الأمة العربية والإسلامية ومن ذلك قصيدته (أى عهد رعوه) وفي مطلعها يقول:

نطق (بارمود) وتزدنا بيانا | حسبنا ما أبنته وكفانا
ما شككنا وللشكوك مجال | بك حتى تزيدنا إيقانا
أنت أدرى بأننا بك أدرى | فاختبر غيرنا وجرب سوان
لم تكن أنت أول القوم ظلما | في قضايا البلاد أو عدوانا
لم تكن أنت أول القوم حبيذا | لهضم الحقوق واستحسانا
قد رأينا (جراى) قبلك يجرى | في ميادين وهمه جريانا
مطلقا للخيال منه عنانا | حيثما أطلق الخيال العنانا

علي الجارم[1] :

كان علي الجارم محافظاً في خلقه وسلوكه حريصاً على توجيه أبناء أمته إلى مافيه صلاحهم وإبعادهم عما يشين سلوكهم وأخلاقهم، وكان ملتزماً بالدعوة إلى الأخلاق الفاضله، وقد بذل لهذا الأمر جهداً سطر بعضه شعراً، خذ من هذا وصيته لابنته، إذ يقول:

يابنتي إن اردت آية حسن | وجمالا يزين جسما وعقلا
فانبذى عادة التبرج نبذا | فجمال النفوس أسمى وأعلى
يصنع الصانعون وردا ولكن | وردة الروض لا تضارع شكلا
صبغة الله صبغة تبهر النفس | تعالى الإله عز وجلا
ثم كونى كالشمس تسطع للناس | سواء من عز منهم وذلا

(١) انظر كتابنا (من شعراء الإسلام) ص ١٩٣ ومابعد.

فامنحي المثريات لينا ولطفا   وامنحي البائسات براً وفضلا
زينة الوجه أن ترى العيش فيه   مشرقا يسحر العيون ونبلا
واجعلي شيمة الحياء خمارا   فهو بالغادة الكريمة أولى
ليس للبنت في السعادة حظ   إن تناءىٰ الحياء عنها وولى
والبسي من عفاف نفسك ثوبا   كل ثوب سواه يفنى ويبلى
وإذا رأيت بؤسا فجودى   بدموع الإحسان يهطلن هطلا
فدموع الإحسان أنضر في الخد   وأبهى من اللآلى وأغلى
وانظرى في الضمير إن شئت مرآة   ففيه تبدو النفوس وتجلى
ذاك نصحى إلى فتاتى وسؤالى   وابنتى لا ترد للأب سؤالا

معروف الرصافي :

رغم أن الرصافي في سلوكه وتصرفاته كان أقرب إلى التبذل إلاّ أن مايشفع له وضعه بين شعراء المسار الأول من الالتزام الأول تمجيده الفضيلة وغناؤه بالأخلاق على نحو جارىٰ فيه شاعري مصر شوقياً وحافظاً إن لم يفقهما في تائيته (التربية والأمهات)[1] .

هى الأخلاق تنبت كالنبات   إذا سقيت بماء المكرمات
تقوم إذا تعهدها المربّي   على ساق الفضيلة مثمرات
وتسموا للمكارم باتساق   كما اتسقت أنابيب القناة
وتنعش من صميم المجد روحا   بأزهار لها متضوعات

(١) ديوان الرصافي ص : ٣٥١.

محمد العيد آل خليفة[1] :

كان الشاعر الجزائري المسلم محمد العيد ملتزماً في كثير من القضايا الإسلامية وكان أعداء الإسلام في الجزائر يحاولون النيل من ديننا الحنيف.

في الجزائر من هؤلاء الأعداء «أشيل» الذي كان ألد أعداء الإسلام، وكان يكتب وينشر مقالات فيها هجوم على الإسلام ومن مقالاته ماركز فيها الهجوم المرير على القرآن الكريم، وكان ينشر ما يكتب في جريدة الدبيش القسطنطينية، وقد جاء في هجومه ذلك اتهام القرآن الكريم بأنه عنوان الهمجية وأنه يدعو للحروب التي تجر الدمار والخراب، وتنزه كتاب الله عما يقول الظالمون.

ومما يقوله (أشيل) في زعمه، أن دعوة القرآن الكريم هذه كانت هي مصدر العداء بين المسلمين والغربيين، وأن المسلمين لو نظروا للغرب بغير عين القرآن لساد بينهم سلام ووئام وصداقة متبادلة يربح فيها المسلمون أكثر من الغربيين، على حد زعم (أشيل).

وكان شاعرنا محمد العيد آل خليفة من الشعراء الذين وقفوا في وجه (أشيل) اللعين فردوا عليه باطله وضلاله المهين ومن قول شاعرنا في ذلك من قصيدة بعنوان (ما بال أشيل يهذي).

هيهات لا يعتري القرآن تبديل ... وإن تبدل توراةٌ وإنجيلُ

قل للذين رموا هذا الكتاب بما ... لم يتفق معه شرحُ وتأويل

هل تشبهون ذوى الألباب في خلقٍ ... إلا كما تشبه الناس التماثيل

فاغزوا الأباطيل للقرآن وابتدعوا ... في القول، هيهات لا تجدي الأباطيل

وازروا عليه كما شاءت حلومكموا ... فإنه فوق هام الحق إكليل

ومع أننا في هذه الأحاديث لانجنح إلى بسط الحديث في مناقشة الشعراء في أعمالهم

(١) انظر كتابنا (من شعراء الإسلام) ص ٢٥٦ ومابعد.

الشعرية لأن هدفنا هنا التعريف والعرض لا الدراسة والتحليل رغم جنوحنا إلى ذلك كثيراً.

إلا إننا نريد أن نقول هنا أن الشاعر لم يعالج القضية بأسلوب وفكر واقعي منظم ينطلق من نصوص القرآن فكراً وهدفاً، بل إنه لم يدن من ذلك ولو دنواً جزئياً، وكل ماصنعه الشاعر هنا هجاء عادي تقليدي. إن القرآن الكريم كتاب سلام ووئام (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله)(وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه).

ولقد ضجر الشاعر محمد العيد آل خليفة من تحكم الفرنسيين وإذلالهم الجزائريين وتفضيلهم الغرباء من فرنسيين وأسبان وغيرهم على أرباب الحق في أرضهم وهم الجزائريون استوى في ذلك الميدانان المدني والعسكري وكان هذا الضجر يلح على الشاعر فيذكي فيه نار الحماسة للعمل الوطني، كان ينفس عن نفسه حينا بالشعر، ومن ذلك قصيدته (رثاء رشيد)، وهو شاب جزائري صادق وافداً غربياً والتحق هو وإياه بالجيش الفرنسي فوصل الغربي الوافد إلى أعلى الرتب العسكرية في حين ظل الجزائري جندياً صغيراً حتى انسحب من الجيش الفرنسي ولحق بالمجاهدين حيث قضى شهيداً، رحمه الله، ومن تلك القصيدة التي نظمها الشاعر في رثائه.

نعم لك في العلا عمل مجيد
ولكن ما جزاؤك يارشيد

على ما «فرنسوى» يعلوك كعبا
وأنت لمثله الكفء الوحيد

ألم تك يارشيد له شقيقا
زمان أبوكما العلم المفيد

كان كرهه للاستعمار الفرنسي، وشعوره بالواجب في محاربته، وإحساسه بواقع أمته المهمين، وكان ذلك كله يلح عليه دائماً ويملي اعماله الشعرية والنثرية.

ويصور إحساسه بثقل الاستعمار وأرهاقه شعب الجزائر، قوله من (مسرحية بلال) مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم.

آه مـــن الــــــــــرق آه قـــد ضـــقـــت بـــالـــرق ذرعـــا
لـــو إنـــنـــى كـــنـــت حـــرا صـــدعـــت بـــالـــديـــن صـــدعـــا
كـــيـــف الخـــلاص فـــإنـــي وقـــعـــت فـــي شـــق أفـــعـــى

و يومىء (بشق أفعى) إلى الاستعمار الفرنسي.

والدعوة إلى وحدة الصف واجتماع الكلمة في سبيل تخليص الوطن من أيدى اعدائه المستعمر ين تتردد كثيراً في شعر شاعرنا كمثل قوله.

حـــذار مـــن الـــشـــقـــاق فـــإن أقتم عـــلـــيـــه عـــصـــاكـــم انـفـلـقـت شـظـايـا
ولـــى وطـــن حـــبـــيـــب لـــى خـــصـــيـــب وقـــفـــت عـــلـــى محـــاســـنـــه هـــوايـــا
وكـــنـــت لـــه مـــن الأحـــرار عـــبـــداً لـــه روحـــي ومـــا مـــلـــكـــت يـــدايـــا

و ينصح محمد العيد قومه بأن يترفعوا عن المصلحة الفردية والرأي الفردي، معرضا ببعض الخائنين فيقول:

قـف حـيـث شـعـبـك مهـا كـان مـوقـفـه أو لـى فـإنـك عـضـو مـنـه مـنـحـسـم
تـقـول أضـحـى شـتـيـت الـرأى مـنـقـسـا وأنـت عـنـه شـتـيـت الـرأى مـنـقـسـم
أعداء عـدا الـقـوم مـن يـعـزو لهـم نـسـبـا و يـسـمـع الـقـدح فـيـهـم وهـو يـبـتـسـم

وقديما فخر الشاعر العربي القديم (در يد بن الصمة) بنزوله على رأى قومه رغم ثبوت خطأ رأيهم لديه.

وهـــل أنـــا إلا مـــن غـــزيـــة إن غـــوت غـــويـــت، وإن تـــرشـــد غـــزيـــة أرشـــد

وعلى أى حال فإن الشاعر محمد العيد آل خليفة يعد رائد شعراء الجزائر كما وصفه بذلك (أبو القاسم سعد الله)، وهو شاعر الثورة الجزائر ية، وشاعر جماعة العلماء المسلمين بالجزائر.

وقد تميّز العصر الحديث بنشاط الاستعمار لاستعباد العالم واسترقاقه، وتصارعت على

ذلك قوى الشر في الشرق والغرب، فوقف الأدباء بسلاحهم في وجه تلك القوى ونال كثيرين منهم الأذى والعذاب، وأيسره السجن والتشريد، فانداحت دائرة الالتزام الإسلامي في الأدب نثراً وشعراً وبرز في الميدان من الفحول كثير من الأدباء الكتاب في طليعتهم مصطفى لطفي المنفلوطي، وعلي يوسف، وعبد الرحمن الكواكبي، ومصطفي صادق الرافعي، ومحب الدين الخطيب، وآل قطب سيد ومحمد وأمينه، والأستاذ الدكتور محمد محمد حسين.

ولا نود أن يفهم من قولنا هذا قصر الإلتزام على الدفاع عن الإسلام والوقوف في وجه أعدائه رغم كون هذا أشرف ميدان وأسماه، وانما نمد رواقه ليشمل كل شعر سلم مبناه ومعناه من شائبات الخروج عن مارسمته مفاهيم الإسلام ومن هذا الأخير قول حفني ناصف من نونيته التي عادت بي إلى أيام الدراسة الاولى فلقد كانت مما قرر علينا في عام ١٣٧١هـ، وكان قد نظمها بمناسبة مضي ربع قرن على إنشاء الجمعية الخيرية الإسلامية بمصر، قال من صدرها :[١]

اليوم أوفت على خمس وعشرينا ... فاستقبلوا عيدها الفضى ميمونا
وهنئوا فقراء المسلمين به ... وصافحوا بين البشر المساكينا
وعللوهم بآمال مفرحة ... فطالما سرت الآمال محزونا
لولا الأمانى فاضت روحهم جزعاً ... من الهموم وأمسى عيشهم هونا
واليأس يحدث في أعضاء صاحبه ... ضعفا و يورث أهل العزم توهينا

ثم التفت إلى الأغنياء وأرباب رؤوس الأموال فأمرهم بالزكاة وخوفهم من المصير البشع إن هم فرطوا في حق الله ولم يخرجوا زكاة أموال استخلفهم الله عليها، فقال:

فبادروا بزكاة المال إن بها ... للنفس والمال تطهيراً وتحصينا
ألم تروا أن أهل المال في وجل ... يخشون مصرعهم إلا المزكينا

---

(١) قضايا النقد الأدبي، د. بدوي طيانه ص: ١١١

فــهــل تــظــنــون أن الله أورثــكــم — مــالاً لــتــشــقــوا بــه جــمــعــاً وتخــزيــنــا
أو تــقــصــروه عــلــى مــرضــاة أنــفــسكــم — وتحــرمــوا مــنــه فــقــيــراً ومــســكــيــنــا
مــا أنــتــمــو غير قــوام ســيــســألــكــم — إلهــكــم عــن حــســاب المــســتــحــقــيــنــا
أنتم خــلائــفــه فــي الأرض ألــزمــكــم — أن تــعــمــروهــا وتــفــتــنــوا الأ فــانــيــنــا
ولــن تــنــالــوا نــصــيــبــا مــن خــلافــتــه — إلا بــأن تــنــفــقــوا ممــا تحــبــونــا

أما أدب أبناء هذه البلاد **فإن الخروج عن حدود الالتزام الإسلامي** فيه قليل جداً، ثم هو عند نفر يسير معدود منهم، كان يجب ألا يوجد مع قلته ولا نريد أن نذكر في هذا أسماء كي لايعد ذلك علينا من باب التشهير.(١)

ولما كان الالتزام الإسلامي من اهم السمات الواضحة في أدب إناء بلادنا المملكة العربية السعودية فإنه لا يحتاج إلى التدليل عليه بالأمثلة والنماذج.

واذا كانت أفياء الالتزام الإسلامي في الأدب قد انداحت في هذا العصر على نحو لم يسبق له نظير في عصور التاريخ العربي، فانه قد شهد ألواناً من الإباحية والإلحاد في القول على نحو لم يسبق له مثيل أيضاً حتى لدى بشار وأبي نواس وابن سهل وابن هانيء وأمثالهم من ملاحدة الشعراء وفساقهم.

ومما يبعث على الضجر والتحرير معاً أن كثيرين من شباب زماننا قد اتخذوا من إباحيّي هذا الزمان وملاحدته أساتذة يأتمون بهم، ويترسمون طرقهم في الأشكال والمضامين الأدبية، بل ويعدون ذلك من باب الحرية الأدبية، فتى كانت الفوضى نظاماً، والفساد حرية؟!..

ولو أن امرأً وسعه سبيل فساد، لما وسع ذلك أبناء هذه البلاد.(٢)

لقد وقف المخلصون الأوفياء من أساتذة هذا العصر في وجة المتطرفين الملحدين خلفاء

---

(١) المصدر السابق ص : ١٢٩ — ١٣٠
(٢) المصدر السابق نفسه.

الماجنين، يصدون باطلهم، يزهقون بهرجهم، و يشنعون بهم جزاء ما فسدوا في عالم الفكر والأدب، فكتب في ذلك الرافعي، والعقاد، والمازني وغيرهم.

وأقرب من يستشهد بقوله من العلماء الدكتور بدوي طبانه حيث يقول: «فقد هان على بعض النفوس أن تكشف سوأتها، وتفصح عن مخازيها استهانة بكرامتها، وتحللاً من القيم والمبادىء الأخلاقيه، واستهتاراً بحقوق المجتمعات الإنسانية في الحفاظ والصيانة».

ونـنتقل إلى المسار الثاني لنقف فيه على أنموذج واحد من الذين عنيناهم بالمسار الثاني من الالتزام.

والمسار الثاني، ظهر فيه الشعر الحركي الهادف في البلاد الإسلامية التي تسيطر عليها الأحكام الوضيعة، فخرج أولئك الشعراء الملتزمون يحملون الإسلام فكرة وعقيدة يجاهدون بالكلمة.

ويمكن أن نذكر من هؤلاء للتمثيل أيضاً لا الحصر، فنهم : محمود غنيم، ومحمد صيّام ووليد الأعظمي، وهشام الرفاعي، ومحمود مفلح، ومحمد محمود الزبيري، وجمال فوزي، ومنلا غزيل، والدكتور نجيب الكيلاني، وأحمد محمد صديق.

وأغلب صور الالتزام الإسلامي في شعر هؤلاء موحدة الجوهر، «و يكفي التمسك بوحدة الجوهر الذي يتفق مع التصور الإسلامي القائم على الحركة داخل إطار ثابت حول محور ثابت» و بذلك يجدد الدعوة مع الداعين إلى إيجاد شعر إسلامي حديث، له سماته وأصوله و يتميز بجوهره الإسلامي المعبر عن التصور الإسلامي الواضح.

وسنكتفي هنا بعرض نموذج واحد من هذا المسار على أن نشير إلى بعض الكتب التي عرضت مجموعة من شعر هؤلاء الملتزمين (١) .

أحمد محمد صديق :

هذا الرجل المسلم شاعر فلسطيني ولد عام ١٩٤١م ــ في غزّة وعانىٰ في طفولته من

---

(١) انظر الحاشية(٢) صفحة ٣٠ .

ويلات اليهود الدخلاء، غير أنه كمعظم آل الصديق بقي في قريته التابعة لغزة حيث مرت ثماني سنين، وهو في مدرسة القرية.

ثم توجه بعد الابتدائيه إلى حيفا فدرس فيها سنتين، ثم انتقل إلى كفر ياسيف فدرس في مدرستها سنة واحدة. وفي عام ١٩٥٦م هرب إلى لبنان ثم انتقل إلى قطر حيث التحق بالمعهد الديني. وهناك انطلق شاعراً يتناول القضايا الإسلامية، ويشارك في مناسباتها. وبدأ ينشر في مجلة الوعي الإسلامي الكويتيه ومجلة المجتمع، ومجلة البعث الإسلامي في الهند.

وانتقل إلى السودان حيث درس علوم الشريعة في جامعة أم درمان وتخرج عام ١٣٩٠هـ وكان له في السودان نشاط شعري كبير، ثم عاد إلى قطر، ومنها إلى القاهرة حيث حصل على الماجستير في الشريعة في الأزهر، وعاد إلى قطر ليحصل على الدبلوم العام في التربية.

وهو شاعر ملتزم التزاماً إسلامياً ويصلح إنموذجاً للمسار الثاني من الإلتزام الإسلامي، ويكفي أن تستشهد له بقصيدتين لندلل على نوعية هذا الالتزام.

الأولىٰ هي (مجمع القرود) وهي قصيدة حوارية كشف فيها الشاعر أعداء الإسلام، ورد عليهم، ففند آراءهم، وسلط الأضواء على مواقف دعاة الإسلام منهم، وتحدث عن الإرهاب الذي أحاط بالمسلمين في البلاد التي خضعت للاستعمار اليهودي الاستيطاني، والبلاد التي حكمتها قوانين وضعيه معادية للإسلام والمسلمين وفيها يقول.

مجمع القرود (١)

(جماعة من المنافقين والجهلة والدجالين.. يلتقون في مكان ما. حيث ينتهي إليهم صوت داعية مسلم، يدعو إلى الله، فيثير غيظهم وأحقادهم، وتدور بينهم أحاديث).

صوت الداعية المسلم :

أيها الناس أجيبوا دعوة الحق المبين

(١) ديوانه «نداء الحق» ص (٩٦).

إنهـــا دعـــوة إيمـــان بـــرب الـــعـــالمين
تـمـلأ الـقـلـب فـتـذكـي فـيـه أنـوار الـيـقين
شـرعـت مـايـسـعـد الإنـسـان فـي دنـيـا وديـن
أطـلـقـت فـيـه قـوى الخير وروح الـطـامحين
ثم كـانـت خير ظـل آمـن للـمـتـعـبين
لم تـبـح للـمـرء أن يـشـبـع بين الجـائـعين
لا.. ولا أن يـغـمـط الحـق كـدأب الـظـالمين
هـي شـرع الله ـ جـل الله ـ والحـبـل المـتين
لم تـنـزل أيهـا الـنـاس لـقـوم غـافـلين
إنهـا تـشـحـذ عـزم الأقـويـاء الـعـامـلين
وتـضـيء الـعـقـل بـالحكمـة والـرأي الـرزيـن
وتـشـيـع الـعـدل والاخـلاق والـعـيـش المـكين
أيـن منهـا نحـن؟ أيـن المـؤمـن البر الأمين؟!
شـعـبـنـا مـازال فـي الأصـفـاد عـبـداً مـسـتـكين
نـبـئـونـي.. هـل خـلـعتم ربـقـة الـذل المـشين؟!
هـل تـواصـيتم بحـق الله فـي المـسـتـضـعـفين؟!
الـرضـا بـالـذل كـفـر.. فـاطـرحـوا الـنير اللـعين
ارجـعـوا لله.. للـحـق.. وكـونـوا مـسـلـمين
طـهـروهـا تـلـكـم الأنـفـس مـن عـار الـسـنين

حرروها من قيود الجهل والضعف المهين

انصروا الله جنوداً.. ودعاة مؤمنين

يمحق الله بأيديكم شرور المعتدين

ثم يعلو بالهدى منكم على النجم الجبين

وثمار المجد يحلو جنيها للصابرين

والأهازيج نشيد رائع للفاتحين

(وهنا يلتفت أحدهم إلى قرنائه قائلاً):

— قوله ينبض بالصدق.. ألاما أروعه!

هل تراه قال حقاً؟ أم تراه إمعه؟

قال ما قال سواه

(يضيف آخر) : — دعه.. لا .. لن نسمعه..

أي محروم تراه قابعاً في صومعه!

لم يعاقر مثلنا كأس الحياة المترعه

ليلة نلهو بها أفضل من عمر معه!

(يضحك الآخرون، ثم يعلق أحدهم):

— ذاك ياصاح يريد العيش في عهد الجمال

يتبع النوق ويجري حافياً فوق الرمال

(بتهكم) :

محدثات العصر؟ يأباها! فليست بالحلال..!

يــا لهــا رجـــعـيـــة حمــقــاء.. أفـيــونــا.. خـــبــال
أنـــت لاتـــعـــقـــل إن صـــدقـــت قـــولاً فـــي الخـــيـــال
(آخر) :
ــ تــارة يـــدعـــو إلـــى الـــزهـــد.. وطــوراً لــلــجــهــاد
لـــيـــس يـــدري أنـــه يـــنـــفـــخ دومـــاً فـــي رمـــاد
أغـــلـــقـــوا أســـمـــاعـــكـــم ثم اصـــرفـــوا عـــنـــه الـــفـؤاد
واجـــعـــلـــوا الـــصـــيـــحـــة مـــنـــه نـأمـة ضـاعـت بـواد
(آخر) :
ــ كـــم يـــوالـــي ذلـــك «المخـــدوع» تـــكـــريـــس الجـــهـــود
يـــســـتـــمـــيـــل الـــنـــاس كـــالـــســـاحـــر.. يـــبـــغـــي أن يـــســـود
أنـــا فـــي قـــلـــبـــي يـــغـــلـــي مـــرجـــل الـــغـــيـــظ الحـــقـــود
قم بنا نحمل عليه..
(آخـــر بـــشـــمـــاتـــة : ــ دعـــه.. قـــد جـــاء الجـــنـــود
صـــاح قـــد أســـروه.. أو تـــقـــوه بـــالـــقـــيـــود
إنـــه أهـــل لأن يـــقـــتـــل شـــنـــقـــاً يـــا جـــنـــود..
لـــيـــتهـــم يـــشـــفـــون غـــلـــي.. إنـــه خـــصـــم عـــنـــيـــد
(يقبضه شرطيان بعنف ومعهما آخرون..يقول أحدهم):
ــ أنـــت لـــن تـــســـكـــت إلا خـــلـــف قـــضـــبـــان الحـــديـــد
إن غير الـــقـــمـــع والـــتـــنـــكـــيـــل فـــيـــكـــم لا يـــفـــيـــد

(الداعية المسلم ينفجر في وجه أفراد الشرطة)

ــ اخنقوني.. كمموا صوتي.. فصوتي لن يضيع

اطفئوا الشمس.. احجبوها.. مرغوا وجه الربيع

املأوا الأرض سجوناً.. واصبغوها بالنجيع

إن ليل الظلم لن يصمد.. لا .. لن يستطيع

فشعاع الحق أقوى..

(وهنا ينهال عليه أحدهم ضرباً بالسوط قائلاً):

ذق.. ولن تلقى الشفيع !

(ثم يستأنف الشرطي قوله):

ــ قد حشوا رأسك.. مهلاً.. هذه الرأس ستحطم

سوف نستخرج منها كل علم كنت تعلم

ألهبيه يا سياطي.. أطعميه الموت علقم

كنت تدعو الناس للإسلام!.. لا شكّ ستندم

سوف تلقى الويل.. فارجع تائباً.. أجدى وأسلم

(الداعية المسلم) :

ــ إنها إحدى اثنتين : النصر أو حسنى الشهادة

ولقد باء بسخط الله من باع بلاده

باعها للكفر والإلحاد.. ما أخزى معاده!!

(يمضي به أفراد الشرطة، ويجد بعض المنافقين فرصتهم لكي يدلي كل منهم بدلوه..)

(يقول أحدهم وقد اعجب بثبات الداعية المسلم وموقفه الجريء) :

ـ يا له من مؤمن.. لا ينثني عن فكرته
ثابت كالطود.. لا يخشى الردى في دعوته

(آخر) :

ـ ماالذي يجنيه غير الموت من هذا التمادي؟!
إنه لاشك مغرور.. عريق في الفساد
يزرع الفتنة والفرقة دوماً في البلاد

(آخر) :

ـ إن هذا ـ حسبما أسمع ـ (خوّان عميل)
حذرت (أبواقنا) منه.. وفي ذلك الدليل!

(آخر) :

ـ أي إسلام ترى يبغي؟!.. فدعواه مريبه
قال بالأمس عن المرأة أقوالاً عجيبه
لايبيحون لها تلك اللقاءات الحبيبه
وسفور الصدر.. والساق.. ونجواها الرطيبه
إنها لابد أن تخرج.. في الدنيا الرحيبه

لا تراعي أي قيد.. إنها ليست معيبه
أختها في الغرب حازت ذروة المجد المهيبه
فلماذا نحن لا نطلقها في غير ريبه
أو ليست حرة؟! ما ذاك؟ دعواهم غريبه!!

(آخر) :

– إنه يزعم أن الحكم لله القدير!
كيف هذا؟ إنها أسطورة الوهم الكبير!
هل يريد الله أن يحكم في كل الأمور؟
إن شأن الدين في المسجد.. أو بين القبور
إن للإنسان عقلاً.. علمه فيض غزير
في غنى عن كل دين.. خط للناس المصير
عصرنا.. عصر فتوح العلم والفن المثير
قد غزا الناس فضاء الكون واجتازوا الأثير
يعبد الناس (إله) المال والكسب الوفير
وهو لا يلبث يدعو.. ثم يدعو.. لا يحور!..
وينادي : الحكم لله.. ضلالات.. وزور

(آخر) :

– لو أقاموا دولة الإسلام مات الناس جوعا
حرموا الخمرة.. والرشوة.. والفن الرفيعا

كيف نجني بعدها الربح؟ ألا ماتوا جميعاً!

(آخر) :

ـ لو أقاموها لبات الناس كالطير الذبيح

بين مقطوع.. ومَرْجوم.. ومجلود يصيح!..

أي حكم هو هذا؟!.. إنه الظلم الصريح

(آخر) :

ـ لو أقاموها لهب الشرق والغرب علينا

أو لعاد الظلم والإقطاع والفوضى إلينا

ثم إن العصر عصر النور.. والعيش الرغيد

شرعة الإسلام لا تصلح للجيل الجديد

(آخر) :

ـ ثم ماذا يا ترى يفعل غير المسلمين؟

هل ترى يرضون بالإسلام حكماً طائعين؟

نحن لانقبل أن نؤذي شعور الآخرين!

حكمنا من أجلهم نؤثره من غير دين!

(قومي) :

ـ أيها الصحب إليكم فكرة الحق الجليّه

فكرتي من سقسطات الدين بيضاء نقيه

فكرتي تربط ما بيني وبين الجاهليه

و(أبو جهل) زعيمي هو أستاذ الحميه

ونظامي مستمد من نظام الماركسيه

أنا قومي أصيل وشعاراتي قويه

وحدة الطين التي تجمع أوطاني القصيه

هي لاشك ستبني دولة العرب الفتيه

تصهر الاشتات في بوتقة الجنس السويه

ليس للدين عموماً بين أيدينا وصيه

إنه يسعى إلى الفرقة مابين الرعيه

كل من نادى ندائي فأخي في العصبيه

هذه قوميتي.. ديني.. وأهدافي السنيه

كلها تسري لهيباً في دمائي اليعربيه

إنها فلسفة تصنع للشعب رقيه

فانصروها.. تبلغوا الغاية من كل قضيه

(شيوعي) :

– التقينا.. غير أني عالمي المذهبِ

دولة الإلحاد معبودي.. وأمي.. وأبي

وزعيمي (ماركسُ) عقل عظيم المأرب

بطل.. أحيا عصور الغاب في ذي الحقب

أنكر الله.. ولم يؤمن بدين أو نبي

إن فـــي مـــبـــدئـــه الـــســـامـــي نجـــاة الـــعـــرب
حـــاجـــة الإنـــســـان فـــي المـــطـــعـــم أو فـــي المـــشـــرب
واشـــتـــراك الـــنـــاس فـــي الـــشـــهـــوة عـــنـــد المـــطـــلـــب
والـــصـــراع الحـــاقـــد الـــدامـــي إزاء المـــكـــســـب
كـــل مـــا يـــدعـــو إلـــيـــه ذلـــك الـــشـــهـــم الأبـــي
فـــانـــصـــروه.. تـــأمـــنـــوا فـــيـــه شـــرور الـــنـــوَب
(نفعي) :
ـ فـــكـــرتـــي يـــا أيـــهـــا الـــصـــحـــب اقـــتـــنـــاص الـــدرهـــم
لا أبـــالـــي.. إن همـــي كـــلـــه فـــي المـــغـــنم
قـــد تـــرانـــي ثـــعـــلـــبـــاً أنـــســـل بين الـــنـــوم
أو تـــرانـــي عـــنـــد أقـــدام الـــبـــغـــايـــا أرتـــمـــي
أو تـــرانـــي هـــاتـــفـــاً : (عـــاش) لـــوغـــد مجـــرم
أنـــتـــمـــي يـــومـــاً لهـــذا.. أو لـــذاك أنـــتـــمـــي
أبـــتـــغـــي مـــنـــفـــعـــتـــي مـــن كـــافـــر أو مـــســـلـــم
كـــلـــهـــا عـــنـــدي ســـواء فـــي حـــصـــاد المـــوســـم
خـــطـــتـــي هـــذي.. فـــهـــل فـــي خـــطـــتـــي مـــن مـــأثم؟!
لا أطـــيـــق الـــصبر عنهـــا..فـــهـــي صـــارت مـــن دمـــي

(يظهر الشيطان فجأة في وسط المجموعة فرحاً بوجودهم، مبتهجاً لأحاديثهم وآرائهم.. ولا تخفى أمارات ذلك الفرح والابتهاج على قبح هيئته وسوء طلعته.. ثم يقول لهم):

(الشيطان) :

- مرحباً بالأهل.. بالأخوة.. مرحى بالأحبه
أنتم حزبي.. فهيّاكلكم يفتح قلبه
إنه بيتي.. لقد أعددته للكفر جعبه
مزقوا الإسلام هيا.. واجعلوا التوحيد شُبه
ثم كونوا لفساد الناس دعوى مستتبه
انشروا الفتنة.. لاتُبقوا من الإيمان حبه
إنكم إن تتركوها فرخت في كل تربه..
استعدوا.. إنه الباطل قد أعلن حربه
احملوا الراية.. فالباطل لن يعدم حزبه

ومن ديوانه نداء الحق، نختار قصيدته «عينان» وهي الترجمة التامة لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم «عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله» يقول [1] :

عينان كلتاهما في الليل ساهره
وتحت ثوب الدجى والصمت تلتحف

في كل رعشة جفن منهما ألق
إلى السماء ونحو الخلد منعطف

إحداهما في سبيل الله قائمة
على الثغور وفي جفن الردى تقف

(١) ديوان «نداء الحق» ص (١٢١).

تـــذود فـــي حبهـــا الـــقـــدســـي عـــن وطـــن
حـــر.. ولـــيـــس بـــقـــيـــد الـــذل تـــعـــتـــرف

أصـــالـــة الحـــق للـــعـــلـــيـــاء تحـــفـــزهـــا
وحـــولهـــا مـــهـــج الأبـــرار تـــأتـــلـــف

ولـــن تـــقـــر عـــلـــى نـــوم ولا دعـــة
حتى يـــعـــود عـــزيـــزاً روضـــهـــا الأنـــف

وأختهـــا فـــي ســـكـــون اللـــيـــل خـــاشـــعـــة
مـــقـــروحـــة الجـــفـــن فـــي المحـــراب تـــعـــتـــكـــف

مـــن خـــشـــيـــة الله أو مـــن فـــيـــض رحمـــتـــه
بـــاتـــت ومـــدمـــعـــهـــا فـــي لـــوعـــة يـــكـــف

كـــأنهـــا فـــي بحـــار الـــشـــوق ســـابحـــة
أو مـــن رحـــيـــق الهـــدى والـــطـــهـــر تـــغـــتـــرف

أما شعراء بلادنا «المملكة العربية السعودية» فإن الدعوة السلفية قد تركت في ألسنتهم أثراً بالغ الرسوخ تجلى في أدبهم شعراً ونثراً.

لذا فإن الباحث كثير مايحتار فيما يختار من نماذج أدبهم لكونه ــ إلا قليله ــ يمثل الالتزام الإسلامي ابتداء بأوائلهم مثل ابن غنام وآل الحفظي وابن مشرف وابن طوق وعبد اللطيف آل الشيخ، وانتهاء بالمتأخرين منهم مثل عبد الله بن خميس، ومحمد حسن فقي، ومحمود عارف، ومحمد علي السنوسي وآخرين كثيرين من مزامينهم.

وقد تحدثت عن كثير من شعراء الدعوة السلفية في أكثر من كتاب(١) ومناسبة.

ومن هؤلاء شعراء الملوك، ابن عثيمين، وابن بليهد، والغزاوي. ولعل من المناسب هنا أن نورد لأحمد إبراهيم الغزاوي قوله من قصيدة في شهر رمضان:

(١) من ذلك: ١ ــ الأدب الحديث في نجد ٢ ــ الشيخ محمد بن عبد الله بن بليهد وآثاره الأدبية ٣ ــ من شعراء الإسلام ٤ ــ الأدب الحديث تاريخ ودراسات.

هــل الــشــهــر ــ شــهــر الــصــوم ــ الا الــتــطــوع
وهـــل هـــو إلا ــ لـلـمـنـيـبـين ــ مـطـمـعُ

فــا شــئــت مــن بــرٍ ، ومــا شــئــت مــن تــقــى
ومــا شــئــت مــن يسر بــه الجــدب يمــرحُ

تــســامــى إلــيــه الــمــؤمــنــون ــ وكــلــهُّــمُ
عــلــيــه حــريــصُ، مــقــبــلُ مــتــطــلــع

(فــريــضــة) أواب، و(جــنــة) مخــبــتٍ
و(حــجــةُ) مــســئــول، إلى الله تُــرفــعُ

بــه أنــزل (الــقــرآنُ) وائــتــلــق (الهــدى)
وزلــزل صــرح الــشــرك ــ فــهــو مــزعــزع

فــلــلــه ــ مــا أزهــى ــ لــيــالــيــه فــي الــورى
وايــامــه الــلاتي بهــا نــتــورعُ

وممن ادخرت الحديث عنه لدراسة مفصلة، الشاعر محمد حسن فقى لاكثاره في هذا الميدان واذا كان المتقدمون من العلماء قد وقفوا شعرهم على هذا السبيل مثل سليمان بن سحمان فإن ممن احسن من متأخريهم الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم، والشيخ راشد بن خنين وأن هزلت الصورة الجمالية عند اكثرهم.

كلمة أخيرة :

١ــ لقد عرفت أن الالتزام في الأدب **هو أن يلتزم الأديب في فنه اتجاهاً معيناً** يقف فنه عليه، ويوجه فكره إليه، متفانياً في تحقيق هدفه، وبلوغ غايته حتى صار لدى بعضهم **إلزاماً**، وأن مذهب الأدب للحياة إن هو إلا نتيجة حتمية **للالتزام صيرت الأديب إلى أن يكون غيرياً** وعرفت كذلك أن الالتزام الإسلامي في الأدب على درجتين أو مسارين كما مثلنا لهما.

٢ ــ وأن مايقابل الالتزام هو التخلص من ضوابطه التي عدوها قيوداً تضني فكر الأديب، ولذا طالبوا بأن يخلص الأديب لفنه الذي يجب أن ينطلق فيه ــ أولاً ــ من ذاته باحثاً عن صور الجمال التي تجلب المتعة الروحية واللذة النفسية والشعورية له، ثم لقراء أدبه، فإذا تحقق فيه شيء من المنفعة فإنه مقبول، وإن لم يكن مقصوداً لذاته.

٣ ــ أما الالتزام الإسلامي فإنه يمزج هذا بذاك ولايوجه الأديب إلى وجهة معينة يفرض عليه وقوف فنه عليها، وإنما يجعله حراً طليقاً في التعبير عن ذاته وغيره، ولا يفرض عليه سوى مايزين عمله ويجمل فنه أو يقوي أمله في مستقبل أفضل له، ولمن إئتم به واقتفى، وهو عدم الخروج على تعاليم الدين الحنيف، وماسن من ضوابط في الاعتقاد، والعبادات، والمعاملات والأخلاق والعادات والسلوك.

وهذا مذهب في الأدب يؤاخي بين الحقيقة والخيال والعاطفة والجمال على نحو يتيح للأديب تصدر مراتب القيادة والريادة.

ثم هو مذهب ليس بالجديد في عالم الأدب العربي الذي نادى كثير من رجاله بإعطاء الأديب حريته في التعبير، من ذلك ماورد في إحدى رسائل أبى بكر الخوارزمي حيث قال «وما علمت أنى أعيش حتى أصادر على اللسان، وأسلف الشكر قبل الإحسان.. وقد كنت رأيت حاكما يحجر على يتيم أو معتوه في وفره، ولم أر أميرا يحجر على كاتب في كتابته، أو على شاعر في شعره وإنما الشعر ــ أيد الله السيد فرس جامح، إن منع عن سننه قطع أرسانه، واستلب منانه، فشقى به سائسه وهلك معه فارسه.. وإنما هو ماء سارب، بل سيل راعب، إذا سد عليه طريقه خرق في الأرض خرقاً، وجعل لنفسه طريقاً بل طرقاً، وما أشبه من أكره الألسن على مدحته، إلا بمن أكره القلوب على محبته».

أما حرصهم على أن يكون الأديب صاحب خلق، ودين، وسلوك قويم سليم، فذلك ماتجلى فيما كتب ابن قتيبه، ثم ماروى عن عمرو بن عبيد في المحاورة التي جرت بينه وبين حفص بن سالم فيما رواه الجاحظ ومنها ما البلاغة؟

مابلغ بك الجنة، وعدل بك عن النار وما بصرك مواقع رشدك وعواقب غيرك قال السائل ليس هذا أريد!

قال : من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع او من لم يحسن الاستماع لم يحسن القول.

قال : ليس هذا أريد!

قال : قال النبي ـــ صلىٰ الله عليه وسلم «إنا معشر الأنبياء بكاء» أى قليلو الكلام، ومنه قيل: «رجل بكيء» وكانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله.

قال : ليس هذا أريد!

قال : كانوا يخافون من فتنة القول، ومن سقطات الكلام، مالا يخافون من فتنة السكوت، ومن سقطات الصمت.

قال السائل : ليس هذا أريد!

قال عمرو : فكأنك إنما تريد تخير اللفظ في حسن الإفهام!

قال : نعم

قال : إنك إن أوتيت تقرير حجة الله في عقول المكلفين وتخفيف المئونة على المستمعين، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدن بالألفاظ المستحسنة في الآذان، المقبولة عند الأذهان، رغب في سرعة استجابتهم ونفى الشواغل عن قلوبهم، بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة، كنت قد أوتيت فصل الخطاب، واستحققت على الله جزيل الثواب».

وكما دعوا إلى الالتزام الديني والأخلاقي والسلوكي، دعوا إلى نبذ كل ما يخالف ذلك، ومن هنا حمل العارفون منهم على أبي نواس، وابن سهل الأندلسي وأمثالهما من الذين شاع في أدبهم التبذل والتهتك والمجون، بل والإلحاد ومن أمثلة قولهم في ذلك ماورد عن أبى بكر محمد بن القاسم الأنبارى حيث قال مخاطبا أبى العباس بن المعتز:

«جرى في مجلس الأمير ذكر الحسن بن هانىء والشعر الذي قاله في المجون وأنشده وهو يؤم قوماً في صلاة

أن لكل ساقطة لاقطة، ولكل كلام رواة، وكل مقول محمول.

فكان حق شعر هذا الخليع ألا يتلقاه الناس بألسنتهم ولايدونونه في كتبهم ولايحمله متقدمهم إلى متأخرهم، لأن ذوى الأقدار والأسنان يجلون عن روايته، والأحداث يغشّون بحفظه، ولاينشد في المساجد ولايتحمل بذكره في المشاهد»[1] .

وأقوالهم رحمهم الله ــ في هذا غير معدودة، ومواقفهم في صد هذا الباطل والتشهير به مشهودة، يكفينا من بحرها الزاخر ما أوردنا، إذ القصد في ذلك التدليل على أنه كان غريباً في فكر أمتنا الإسلامية، تنكره طباعهم، وتأباه أذواقهم ثم إن في أقوالهم تلك دعوة إلى **الالتزام الإسلامي**، نسير فيها على أثرهم، ونأتم بفكرهم، متلمسين سُبل الهداية والرشاد لنا ولكم وللمسلمين أجمعين.

---

(١) جمع الجواهر للحصري / ٣٣.

المبحث الثاني

أثر دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب في الفكر والأدب

تمهيد :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وعلى التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد.

فإن الرسالة التي يحمل عبأها المفكرون في هذه البلاد الطيبة الطاهرة وبخاصة الأدباء منهم، رسالة أمرها عظيم عبؤها جسيم، الكلمة تعمل في النفوس عمل السحر في العقول، ولقد قال المصطفى صلى الله عليه وسلم (إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة).

وقد أرادت دولتنا الرشيدة أن تضع الأدباء أمام مسئوليتهم في قيادة المجتمع، فأسست الأندية الأدبية خدمة لهذا الهدف، ووضعت زمام أمرها في يد أحد أبنائها المخلصين لفكرها أعني الأمير الشاب المسدد سمو الأمير فيصل بن فهد بن عبد العزيز الرئيس العام لرعاية الشباب.

ومن هنا وجب علينا الإسهام في تحقيق هذا الهدف النبيل أداء لواجب المجتمع علينا وإسهاماً في نجاح المقاصد الشريفة للدولة.

ومنذ ثلاثة أعوام تقريباً دعاني نادي القصيم الأدبي إلى الإسهام مع رجاله بإلقاء محاضرة، فكان في ذهابي إلى بريدة تجديد لذكريات سلفت في تلك المدينة العريقة بتاريخها، وأخلاق أهلها.

واليوم يشرفني رجال النادي بتوجيه دعوة أخرى كان لها في نفسي من الأصداء ما أوجب تلبيتها، فشكراً لهم على مايتيحونه لى مما قد يحجزنى عن أدائه ماحولى من شؤون وأعمال

ولقد فكرت ملياً في الموضوع الذي سأتحدث معكم فيه، وما أكثر الموضوعات ولكن لكل مقام مقال، ولست أدري كيف قفز إلى ذهني هذا الموضوع (أثر دعوة الإمام محمد ابن عبد الوهاب في الأدب والفكر) ولعل ذلك إحساس منى بالتقصير في إتمام بحث هذا الميدان الذي ألقيت أول محاضرة عامة فيه في سنة ١٣٨٥هـ ونشر نصها في كتاب

(الأدب الحديث في نجد) ثم عاودت الكتابة عنه في أكثر من كتاب، آخرها [الأدب الحديث تاريخ ودراسات].

ومع كل ماكتبت فمازالت تجد في ذهني فكر، وفكر تشعرنى بالتقصير، أو على الأقل بأن ماكتبته لم يف بعد بحق هذه الدعوة المباركة.

الدعوة :

أيها الأخوة الكرام لقد قام الإمام محمد بن عبد الوهاب بدعوته المباركة في منتصف القرن الثاني عشر للهجرة، وتقاذفته أحوال غير مشجعه بادىء ذى بدء حتى إذا ما هيأ الله له الاتفاق مع الإمام الجليل محمد بن سعود أمير الدرعية إذ ذاك قويت شوكته واشتد ساعده وأخذ في نشر دعوته مؤيد سلطان زميله الإمام، واستطاع الأئمة محمد بن سعود، وعبد العزيز بن محمد، وسعود بن عبد العزيز أن يمكنوا للدعوة وأن يبسطوا أفياء أدوامها على جزيرة العرب.

وجازت الدعوة الحدود فاستبشر بها المسلمون في كل مكان، ورآوا فيها الأمل القوى في توحيد الأمة العربية والإسلامية، وجمع شملهم على كلمة الله، ولذا وجدنا المخلصين من العلماء يستبشرون بها وينيطون برجالها الآمال، ويرونهم مثلاً يحتذيه المصلحون في كل البلاد.

وشواهد ذلك مقرؤه فيما كتب شكيب أرسلان، ومحمد عبده، ورشيد رضا، ومحمود شكري الألوسي، وعبد الرحمن الكواكبي، وكثيرون غيرهم.

أما من رجال الأدب فإن من ذلك ماورد في كتاب (من زعماء الإصلاح لأحمد أمين الذي صدّره بالحديث عن الإمام محمد بن عبد الوهاب يظهر فيه فهم الرجل لدعوة الإمام وتأثره بها، ولو على الأقل في حديثه عن الإمامين محمد بن عبد الوهاب ومحمد عبده، وإن شاب هذا شيء من الشوائب التي سببها قصور المعرفة الدينية.

ومنهم الدكتور طه حسين الذي كتب بحث في كتابه (ألوان) ومنه قوله: «على أن الباحث عن الحياة العقلية والأدبية في جزيرة العرب، لايستطيع ان يهمل حركة عنيفة، نشأت فيها أثناء القرن الثامن عشر، فلفتت إليها العالم الحديث في الشرق والغرب،

واضطرته أن يهتم بأمرها، وأحدثت فيها آثارا خطيرة هامة، هان شأنها بعض الشيء، ولكنه عاد فاشتد في هذه الأيام، وأخذ يؤثر لافي الجزيرة وحدها، بل في علاقاتها بالأمم الأوربية أيضاً، وهذه الحركة هى حركة الوهابين التي أحدثها محمد بن عبد الوهاب شيخ من شيوخ نجد».

ولعل في الاستشهاد بأقوال بعض المستشرقين مايؤنس أولئك الذين لايرون حقاً إلا ماشهد به الغرب.

يقول المستشرق الألماني داكوبرت فوق ميكس «كان لدعوة الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب، أثرها البالغ في عموم اتحاد العالم الإسلامي وكانت هذه الدعوة نواة كل الحركات الاصلاحية التي انبثقت بعد ذلك في جميع الأقطار الإسلامية من سو مطرة في أعماق الشرق الأقصى، إلى نيجير يا في قلب أفريقيا».

و يقول المستشرق الفرنسي برنارد لو يس «باسم الإسلام الخالي من الشوائب الذي ساد في القرن الأول نادى محمد بن عبد الوهاب بالابتعاد عن جميع ما أضعف العقيدة، والعبادات من زيادات، باعتبارها بدعاً صوفية غريبة عن الإسلام».

و يقول المستشرق لوثروب استودارد «و بينا العالم الإسلامي مستغرق في هجيته، ومدلج في ظلمته، إذا بصوت يدوي في قلب الصحراء، في شبه الجزيرة العربية، مهد الإسلام، يوقظ المؤمنين، و يدعوهم إلى الإسلام والرجوع إلى سواء السبيل، والصراط المستقيم، فكان الصارخ بهذا الصوت إنما هو المصلح المشهور محمد بن عبد الوهاب الذي أشعل نار الوهابية فاشتعلت، واتقدت ثم أخذ هذا الداعي يحض على إصلاح النفوس واستعادة المجد الإسلامي القديم» ومنيت الدولة السلفية بجهل الأتراك، ومخلب القط محمد علي، وكان ماكان (ولله الأمر من قبل ومن بعد).

غير أن الدولة السعودية لاتكبوا إلا لتنهض، حتى استقر أمرها على يد الملك عبد العزيز رحمه الله، وستبقى مؤيدة بنصر الله لأنها تنصره (ولينصرن الله من ينصره).

أثر دعوة الإمام في الفكر

عندما صدع الإمام بدعوته، ترددت أصداؤها في بلاد آسيا وإفريقيا وجاوزتها إلى أقلام المستشرقين في أوربا مما أشرنا إلى شيء منه سلفاً. وانقسم الناس في موقفهم منها إلى ثلاث فرق، مؤيدون، ومعارضون وآخرون وقفوا منها موقفا حيادياً يرون مابلغهم من أمرها دون تدخل بتأييد أو رفض، وهؤلاء قلة، اكثرهم من المستشرقين :

المؤيدون :

لقد كان طبيعياً أن يقبل علماء الجزيرة على دعوة الإمام مؤيدين لها ولزعمائها إلا نفراً صرفت قلوبهم عن سبيل الرشاد، وكان من أولئك المؤيدين الفضلاء الشيخ حسين بن غنام الإحسائى، وآل حفظى، والإمامان الصنعاني والشوكاني، وأمثالهم من الذين أسهموا بفكرهم في تأييد الدعوة والإشادة بها وبرجالها.

واتصل بعض علماء الإسلام الذين وفدوا للحج بعلماء الدعوة فدارسوهم وناظروهم، ثم انصرفوا إلى بلادهم، وقد ملأتهم العزيمة على نشر الدعوة في أوطانهم كالسنوسي الذي نشرها في الجزائر وبلاد المغرب والسيد أحمد[1] الهندي الذي نشرها في بنجاب وأنشأ بها شبه دولة سلفية امتد سلطانها حتى حدود شمال الهند، وأعلن حرباً على البدع والخرافات فأرهب هو واتباعه الدولة المستعمرة بريطانيا التي اشتدت في حربهم حتى قضت عليهم. ومنهم الشيخ «عثمان دانفوديو» الذي نشرها في السودان وامتدت إلى السنغال وخلفه احمد ابن بلو، وكان فيهم علماء نصروا الدعوة، إما بمؤلفاتهم كالشيخ بشير السهسواني الهندي الذي ألف كتاباً في الرد على زينى دحلان وسماه (صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان) والشيخ عمران بن على بن رضوان الفارسي والشيخ محمود شكري الألوسي الذي ألف كتاب (تاريخ نجد) وممن يلحق بهم الشيخ عبد الرحمن الجبرتي والإمام محمد عبده، والشيخ رشيد رضا، وكثيرون آخرون.

---

(١) قُتل رحمه الله بسبب تحليله تزويج الأرملة، وكانت تقاليد الهنود تقضى عليها بعدم الزواج.

ومما هو في الصميم من هذا مؤلفات أئمة الدعوة كمؤلفات زعيمها الإمام محمد بن عبد الوهاب، ومؤلفات حسين بن غنام وعثمان بن بشر، ومؤلفات سليمان بن سحمان، ومؤلفون آخرون يضيق المجال بعدهم أثروا المكتبة العربية الإسلامية بأن ألفوا فيها المؤلفات.

ولم يقف تأثيرهم في هذا الميدان عند كثرة المؤلفات بل تجاوز ذلك إلى الأسلوب، حيث نجا كثيرون منهم بأساليبهم من الهوة التي تردت فيها مؤلفات مُزامنيهم ومن قبلهم من المؤلفين في العهد العثماني، ونزعوا في مؤلفاتهم تلك إلى أسلوب الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وكذا في اللغة، وبخاصة مؤلفات الإمام وأبنائه، ويستثنى من ذلك بعض المؤلفات التي جنح أربابها إلى الإيغال في المحسنات كمؤلفات ابن غنام وابن سحمان وأمثالهما.

وكانت مؤلفاتهم تدور من حيث الموضوع حول علوم الدين كالفقه والتفسير والحديث والتوحيد ومنها ماكان في التاريخ ولكنه قليل.

وطبيعياً أن يظهر تأثيرها واضحاً في الموضوع، وأن تحمل أنصارها والمتأثرين بها على النزوع عن كل مافيه مجافاة منهج السلف الصالح كالصوفية وسائر مذاهب أهل الطرق الذين وقعوا فريسة التفريط اؤ الإفراط.

المعارضون :

وكما كان للدعوة مؤيدون في كل بلاد، كان لها معارضون أكثر وقفوا بباطلهم يحاولون صدها ومن أبرز هؤلاء سليمان بن عبد الوهاب وزيني دحلان، ويوسف بن اسماعيل النبهاني، وداود بن جرجيس، وغيرهم.

واذكر انه قُرأ لي على غلاف أحد كتب المنطق التي كانت تدرس في الأزهر إعلانا عن خمسة كتب كلها في الرد على الدعوة ورجالها، ولايزال كثيرون من هؤلاء يعيشون بروح عدائيه تمقت الدعوة السلفية وأربابها ومنهم من دفعه جهله إلى إنكار تأثر عثمان فودى بالدعوة التي اثبت المؤرخون من الأوربين وغيرهم تأثر عثمان نودي بالدعوة، وإقتضاءه بها في دعوته التي نشرها في نيجيريا. واعنى بهذا محمود سمير أحمد محمد التابعي، الذي أخذ من عثمان فودى موضوع أطروحة الماجستير التي قدمها لقسم التاريخ بمعهد البحوث والدراسات الإفريقية وهو معهد يتبع جامعة القاهرة.

وكان إذا مر بفودى قال الشيخ، فإذا مامر بابن عبد الوهاب ذكر اسمه مجرداً وهذا إذا تكرر عند المصريين فله مغزاه.

وعلى أي حال فإن هذه الدعوة المباركة قد أثرت المكتبة العربية الإسلامية بالكتب النفيسة التي شملت فروع العلوم الأسلامية، ويكفي أن نعلم انه قد كتب في سيرة إمامها وحده عشرات الكتب التي قد يعتري بعضها النقص بسبب الجهل أو التجاهل ومن ذلك كتاب الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار الذي صدف في كتابه (محمد بن عبد الوهاب) عن رسائل الإمام إلى علماء مكة، ومناظرتهم بعض تلامذته مثل عبد العزيز الحصين، وحمد بن معمر، وهى مناظرات تكررت في مجلس شريف مكة، وفي أماكن أخرى، وكان علماء مكة ينقادون لرأيهما، ويسلمون به، ولكن السلطه السياسية ومن ورائها تركيا كانت تنقض ما أبرمه العلماء.

أثر الدعوة في الأدب

من المعلوم أن الدعوة إنما قامت لإصلاح مافسد من أمر المسلمين، حين جفوا سبيل السالفين الصالحين، وسمحوا لأهوائهم بأن تجرهم إلى سبل الضلال، فجانبوا السداد في العقيدة والعبادات والمعاملات إلا من رحم الله ممن قام على نفسه وترك الناس في غيهم يعمهون.

وطبعيى والحال هذه أن يقف رجال الدعوة جهودهم على هذا السبيل، وأن لايعنوا بسواه ولا ماكان في خدمته مباشرة.

ومن هنا لم يتجه علماء الدعوة إلى تجديد معالم الأدب الدارسة، ولم يعنوا بشيء من فنونه إلا ماراأوا فيه عوناً على ماهم فيه من جهاد، ولذا وجدنا بعض فنون الأدب تبرز حين تدعوا الحاجة إليها، وحين يفرض المقام اتخاذها سلاحاً في وجه الأعداء.

ولكون بحثنا هذا لايحتمل التفصيل فإنا سنتحدث عن هذه الفنون واحداً بعد الآخر حسب أهميتها في خلاصات مقتضبه تومىء وتشير، وتترك البسط للبحوث المطولة التي تحتمل ذلك كالأطروحة التي صنعها عن أثر الدعوة في الأدب والفكر في جنوب الجزيرة العربية الدكتور عبد الله أبو داهش وقمت بالإشراف عليها.

الخطابه :

تعد الخطابة أول فن أدبي عني به رجال الدعوة، وظهر فيه أثر إصلاحهم على نحو من الإشراق والوضوح في كل جانب من جوانب هذا الفن، ولو سأل سائل عن سبب عناية الإمام بالخطابة في وقت مبكر فإن الجواب على ذلك أيسر من أن يحتاج إلى وقفة فيها تأمل وتفكير ذلك أن الخطباء في زمانه، والعصور التي تليه من قبل كانوا يخطبون على المنابر بخطب يقرؤنها أو يحفظونها من مدونات قديمة، دونت في عصور الضعف والانحطاط فجاءت مجافية سبيل الخطابة في لفظها وأسلوبها وعباراتها حيث يطغى فيها السجع المتكلف الذي كثيراً مادفع كاتب الخطبة إلى غريب اللغة وحوشيّها، وإلى اللحن حينا إذا ماتعذر الوصول إلى السجعة إلا من هذا الطريق إلى مافيها من طول ممُل سرى حتى إلى فقرها، زد على ذلك أنها لم تكن ذات موضوع محدد.

ثم إن كثيراً من تلك الخطب قد اشتملت على أشياء لا تقرها العقيدة السليمة، كالتوسل وما إليه.

من أجل ذلك أقبل الإمام محمد بن عبد الوهاب على بناء خطب جديدة يتحقق فيها كل ما يهدف إليه أهل هذا الفن، إلى مافيها من صفاء العقيدة ونقائها، إلى كونها كما أراد النبي صلى الله عليه وسلم للخطبة حين قال (إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة) أي دليل على فقهه.

ولما كان جُل خطباء زمانه من غير القادرين على إنشاء الخطب، فإنه رحمه الله قد عمد إلى تدوينها لتعميم الفائدة منها. غير أن من أتى بعده من خطباء وقفوا عندها ولم تكن لهم إلا إضافات قليلة في هذا الميدان.

وحين فرق سلطان الدعوة بانتهاء دولتها الأولى، عاد الناس في غرب البلاد وشرقها وجنوبها إلى المدونات القديمة، وبخاصة حين عاد النفوذ التركي إلى ممارسة ضغطه فيها من جديد.

وبقيت الخطابة ــ فيما علمنا ــ على هذه الحال إلى بعيد منتصف القرن الرابع عشر للهجرة، حيث ظهر علماء أجلاء جددوا سبيل الخطابة وأحيوا مناهجها، وفي المقدمة منهم

عبد الرحمن بن سعدى، وعبد الله خياط، وعبد العزيز بن صالح، وعبد العزيز بن عبد الله ابن حسن آل الشيخ.

وخلف من بعدهم في زماننا خلف ساروا على نهج أسلافهم في المضمون، ولكنهم صاروا يتبارون في طول الخطب التي يكتبها كثيرون منهم ويقرؤنها على المنابر.

أما الذين منحو القدرة على الارتجال الذي يفترض في أن يكون لدى كل خطيب، فإنهم قد بادروا اخوانهم المدونين في سباق الطول، فإذا كان النبي صلىٰ الله عليه وسلم قد نهى عن التنفير باطالة الصلاة، فما بالك باطالة الخطبة؟ ثم إنه قد ورد في ذلك الحديث الذي سلف ذكره.

الرسائل :

تعد الرسالة أحد الأجناس الأدبية الرئيسه لأنها تنقسم إلى :

أ ــ رسائل أدبية　　ب ــ رسائل إخوانية　　جـ ــ رسائل ديوانية.

ونحن هنا لايعنينا تقسيم الأجناس الأدبية بقدر ما يعنينا صلة كل جنس بالدعوة وتأثره بها وتأثيرها فيه.

ولقد وجد رجال الدعوة أنهم في حاجة إلى استخدام الرسائل في نشر الدعوة ومجادلة الناس فيها ومحاورتهم، ولذا وجدناهم يعمدون إلى استخدامها في وقت مبكر الأمر الذي جعل تأثير الدعوة يتجلى في نماذجها التي كانوا يبعثون بها للعلماء والزعماء، أو الرسائل العامة التي كانوا يسمونها النصائح وتصدر بخطاب لعامة المسلمين، وقد يخص من بلغته منهم. ولو لاتلك المقدمات والخوايتم فيها لأمكن أن توصف بأنها مقالات دينية.

وكان تأثير الدعوة في الرسالة يتضح في نبذ الغلو في الألقاب، والمبالغات في المقدمات والخوايتم، ثم نبذ المحسنات البديعية المتكلفة، واحتذاء أساليب الرسل البليغه، واجتناب كل مايمتُ إلى الفكر السيئة بسبب وهذا في الصميم من أهداف الدعوة، ومن أمثلة ذلك رسالة الإمام محمد بن عبد الوهاب إلى علماء مكة المكرمة التي يقول منها:

«من محمد بن عبد الوهاب إلى علماء الإسلام في بلد الله الحرام، نصر الله بهم دين

سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام، وتابعي الأئمة الأعلام، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد، جرى علينا من الفتنة مابلغكم وبلغ غيركم وسببه هدم بنيان في أرضنا على قبور الصالحين، ومع هذا نهيناهم عن دعوة الصالحين، وأمرناهم بإخلاص الدعاء لله، فلما أظهرنا هذه المسألة، مع ماذكرنا من هدم البناء الذي على القبور، كبر على العامة، وعاضدهم بعض من يدّعي العلم لأسباب ما تخفى على مثلكم، أعظمها: اتباع الهوى مع أسباب أخرى.

فأشاعوا عنا أنا نسب الصالحين، وأنّا على غير جادة العلماء، ورفعوا الأمر إلى المشرق والمغرب، وذكروا عنا أشياء يستحي العاقل، من ذكرها.

وأنا أخبركم بما نحن عليه، بسبب أن مثلكم مايروج عليه الكذب، فنحن ولله الحمد متبعون، لامتبدعون، على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وأنتم تعلمون رحمكم الله أن في ولاية الشريف أحمد بن سعيد وصل إليكم الشيخ عبد العزيز ابن عبد الله، وأشرفتم على ماعندنا وأحضروا، كتب الحنابلة التي عندنا عمدة كالتحفة، والنهاية عند الشافعية، وأنا أشهد الله وملائكته وأشهدكم أني على دين الله ورسوله، وأنني متبع لأهل العلم».

وفي عهد الإمام فيصل بن تركي جنحت رسائل بعض العلماء إلى أساليب أمكنوا في النهج الأدبي وبخاصة رسائل الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ المعروف بالأزهرى ومنها قوله:

«وبعد فاني أحمد اليك الله سبحانه على نعمه والخط وصل، وصلك الله بما يقربك إليه وما أشرت إليه صار معلوماً، لاسيما الإشارة الخفية، والنكت الأدبية،التي منها تشبية أخيك بالطير المبرقع، وإيراد المواعظ وأنت بمكان علو أرفع، وكنت حال وصوله قد قرأته بمرأى من أهل الأدب ومسمع».

والرسالة بكاملها موجودة في كتاب (الدرر السنية في الأجوبة النجدية).

ولم يواكب الرسالة من الأجناس الأدبية سوى المقدمات التي كان يفتتح بها العلماء مؤلفاتهم إذا صح عدها جنسا أدبياً.

وبعد توحيد أجزاء المملكة، التقت الجهود التي كانت ممزقة، فنشطت الحياة الأدبية،

لكن لم يكن بتأييد من الدعوة وحدها، وإنما كان أيضاً نتيجة التأثر بالحركات الأدبية في البلاد العربية وبخاصة مصر والشام.

غير أن فكر الدعوة أمسك بمقود الكتابة الأدبية ووجهها في أهم جوانبها وهو المضمون وجهة صالحة تخدم الأمة والبلاد، ونماذجها تملأ الصحف والمجلات والكتب الأدبية.

أثر الدعوة في الشعر

لم يرو لنا عن زمن الشيخ شعراً فصيحا له شأن، وإنما كان الشأن للشعر العامي الذي بلغ من أحكامه أن فيه مايقرأ بالفصيح والعامية فيستقيم معناه ووزنه.

ولم يرو لنا أن الشيخ ومن عاصره من زعماء الدعوة قد اهتموا بشأن الشعر نظماً أو تشجيعاً إلا نفراً منهم كالشيخ حسين بن غنام وأحمد الحفظي. ولعلهم كانوا ينظرون إلى الشعر نظرة الإمام الشافعي رحمة الله الذي قال:

ولولا الشعر بالعلماء يزرى　　　لكنت اليوم أشعر من لبيد

وكان منطلقه ومن رأى رأيه أن جُل الذين امتهنوا الشعر رواية أو نظما كانوا من المتساهلين.

ثم إن القرآن الكريم قد عرّض بالشعر والشعراء وكذا السنة المطهرة وهذه ــ اعنى موقف القرآن الكريم والسنة المطهرة من الشعر ــ قضية يحتاج الأمر فيها إلى بسط القول، وقد بسطناه في اكثر من موضع من كتبنا والمهم هنا أن علماء الدعوة لم يولوا الشعر أدنى اهتمام حتى انضم اليهم الشيخ حسين بن غنام، والشيخ أحمد الحفظى وكانا شاعرين فاستطاعا أن يُسخرا شعرهما في سبيل الدعوة، ثناءاً ودفاعا، ودعوة وارشاداً، فأحس علماء الدعوة ضرورة تشجيع الشعر ليكون سلاحاً يدفع به عن الدعوة، وينصر أمرها، وينشر ذكرها فنظموا فيه مثل قول الشيخ حسين بن غنام يرد على محمد بن عبد الله بن فيروز الذي هجى الدعوة ورجالها بقصيدة طويلة رد عليها ابن غنام بقصيدة طويلة ايضاً، جاء في مطلعها:

على وجهها الموسوم بالشؤم قد خُطا ... عروس هوى ممقوته زارت الشطا
لقد شوهت مازخرفته بزورها ... كما أنها بالمين قد أحكمت ربطا
وقد جاء منشيها بزور ومنكر ... وفحش وبهتان يعط به عطا
وجاوز منهاج الهداية راضيا ... عن الدين بالدنيا فما نالها بسطا
وربك بالمرصاد ممن يريد أن ... يؤسس ركن الشرك من بعد أن حطا
ولا كابن فيروز يروم سفاهة ... دفاعا لحق في البرية قد وطا
ويرجو من المخلوق غوثا ونصرة ... يناديه من بعد أغثنا بلا أبطا
ومن عارض الأقدار أوسخط القضا ... فربك قهار له المنع والاعطا
أيوصف بالطاغوت من جدد الهدى ... وأحيا أصول الدين والسنة الوسطى
وأطلع مولاه نجوم سعود ... بآل سعود حين صاروا له سبطا
بهم أسفرت شمس الهدى بعد دجنها ... وزال ظلام الشرك من بعد ماغطا
مدارسهم معمورة بعلومهم ... وما تبطوا عن نشر أحكامهم تبطا

كما نظم ابن غنام في رثاء الإمام اكثر من قصيدة، ونظم في هجاء أعداء الدعوة قصائد كثيرة، ومما يتجلى فيه أثر الدعوة أيضاً مانظمه أحمد الحفظي الأول بعد اتصاله بالدعوة وتتلمذه على علمائها، ومنه قوله في الإمام سعود بن عبد العزيز:

وأصبح في أكناف طيبة نازلا ... وللحرم المكي إماما وحاميا
وقام بإحياء المناسك وانتهت ... إليه أمور الحج بالقسط وافيا
وطهر بيت الله من كل مشرك ... وللكعبة البيت المحرم كاسيا

وذلك من قصيدة في الأئمة الثلاثة : محمد، وعبد العزيز، وسعود مطلعها:

على العارض النجدى أهدى سلاميا وأزكى تحياتي لتلك الروابيا
سلام على أعلامها وآكامها سلام على حضارها والبواديا

وامتد تأثير الدعوة إلى خارج حدود سلطان دولتها، كما نقرأ ذلك في قصيدة الإمام الصنعاني التي يقول منها:

سلامي على نجد ومن حل في نجد وإن كان تسليمى على البعد لايجدى
لقد صدرت من سفح صنعا سقى الحيا رباها وحياها بقهقهه الرعد
سرت من أسير ينشد الريح أن سرت ألا ياصبا نجد متى هجت من نجد
يذكرني مسراك نجدا وأهله لقد زادنى مسراك وجداً على وجد
قفى واسألى عن عالم حل سوحها به يهتدى من ضل عن منهج الرشد
محمد الهادى لسنة أحمد فيا حبذا الهادي وياحبذا المهدى
لقد أنكرت كل الطوائف قوله بلا صدر في الحق منهم ولا ورد
وما كل قول بالقبول مقابل ولا كل قول واجب الطرد والرد
سوى ما أتى عن ربنا ورسوله فذلك قول جل ياذا عن الرد
وأما أقاويل الرجال فإنها تدور على قيد الأدلة في النقد
وقد جاءت الأخبار عنه بأنه يعيد لنا الشرع الشريف بما يبدى
وينشر جهراً ماطوى كل جاهل ومبتدع منه فوافق ماعندى
ويعمر أركان الشريعة هادما مشاهد ضل الناس فيها عن الرشد
أعادوا بها معنى سواع ومثله يغوث وود بئس ذلك من ودى
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها كما يهتف المضطر بالواحد الفرد

وكم عقروا في سوحها من عقيرة أهلت لغير الله جهرا على عمد
وكم طائف حول القبور مقبل ومستلم الأركان منهن باليد

وكما تجلى أثر الدعوة في قصيدة الصنعاني تجلى في شعر تلميذه محمد بن علي الشوكاني وفي مؤلفاته، وهما عالمان يمنيان، ولو تلمسنا أثر الدعوة في شعر من نأى عن منبعها ومسرحها لوجدنا ذلك كثيراً في أشعار العلماء مثل الشيخ عمران بن علي بن رضوان الفارسي اللنجى الذي يقول في الدفاع عن الإمام محمد بن عبد الوهاب ودعوته، وإعلان متابعته له:

إن كان تابع «أحمد» متوهبا فأنا المقر بأنني وهابي
أنفى الشريك عن الإله فليس لي رب سوى المتفرد الوهاب
لاقبة ترجى ولا وثن ولا قبرله سبب من الأسباب
وأمر آيات الصفات كما أتت بخلاف كل مؤول مرتاب

كما قال في إيضاح دعوة الشيخ :

الشيخ شاهد بعض أهل جهالة يدعون أصحاب القبور الهمد
يرجون منهم قربة وشفاعة ويؤملون كذاك أخذا باليد
ورأى لعباد القبور تقربا بالنذر والذبح الشنيع المفسد
فأتاهم الشيخ المشار اليه بالنصح المبين وبالكلام الجيد
يدعو همو لله أن لا تعبدوا الإ المهيمن ذا الجلال السرمد

وهكذا نجد أثر الدعوة قد امتد خارج الجزيرة العربية، وجرت به ألسن العلماء والشعراء.

غير أن أثرها قبل منتصف القرن الثالث عشر للهجرة لم يظهر إلا في المضامين والموضوعات، حيث أقبل الشعراء على مدح الدعوة وزعمائها وتأييدهم، ونصرتهم وهجاء

حين وآخر ـ على فكرنا فتتفتت على صخرة الحقيقة الراسخة في عقول أبناء هذه البلاد رسوخ الجبال.

ومن هذا المنطلق ـ أعنى الانقياد لمقتضيات الفكر الأسلامي الذي قامت عليه دعوة

أعدادئهم، ورثاء من انتقل منهم إلى رحمة الله، ونظم مسائل الدين والنصح والإرشاد، وما إلى ذلك مما هو من صميم دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب. أما الاشكال فإن الشعر قد بقي على ما كان عليه في عصور الضعف التي سبقت دعوة الإمام، وذلك إلى منتصف القرن الثالث عشر للهجرة، حيث ظهر من الشعراء من نزعوا بشعرهم عن أساليب عصور الضعف والأنحطاط، واستعانوا بأساليب السابقين الأولين، ومن هؤلاء السادة الفضلاء الشيخ احمد بن مشرف، والشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، والشيخ عبد العزيز بن طوق، وأمثالهم.

فأما ابن مشرف فإن من قوله في صدر قصيدته (الشهب المرقيه على المعطلة والجهمية):

نفيتم صفات الله فالله أكمل ... وسبحانه عما يقول المعطل
زعمتم بأن الله ليس بمستوٍ ... على عرشه والاستوا ليس يجهل
وقد جاء في الأخبار في غير موضع ... بلفظ استوى لا غير يامتأول
وقد جاء في إثباته عن نبينا ... من الخبر المأثور ماليس يشكل
فصرح أن الله جل جلاله ... على عرشه منه الملائك تنزل
يخافونه من فوقهم وعروجهم إليه ... وهذا في الكتاب مفصل

وله قصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم أجاد فيها وأبدع ومنها قوله:

طفلة جملها حسن البها ... لا مقاليد وأقراط ووشح
بل بها الحلية قد زانت كما ... زين الشعر لخير الخلق مدح

أحمد الهادى إلى سبل الهدى | كم بدا منه لأهل الأرض نصح
هاشمي قرشي طاهر | حسن خلاق زاكى الأصل سمح
جاء بالدين الحنيف وقد | طبق الأرض من الإشراك جنح
فأرى الناس الهدى بعد الردى | فإذا الحق تجلى منه صبح

وأما الشيخ عبد اللطيف وابن طوق فكانا من المقلين، ولكنهما من المحسنين وقصائدهما موجودة في كتاب الدرر السنية في الأجوبة النجدية، ومنها القصيدة النونية، وكانت ثانية قصيدتين كتبهما الشيخ عبد اللطيف جوابا على القصيدة التي بعث بها إليه عبد العزيز بن طوق، يقول الشيخ عبد اللطيف:

دع عنك ذكر منازلٍ ومغاني | وبدور أنسٍ قد بدت وغواني
وجآذرٍ في روضةٍ يشدو بها | صوت النديم وشادنٍ فتّان
لا تُصغ للعُشاق سمعك إنما | ناديهُمُ بين البرية عاني
والعشق داء قاتل ودواؤهُ | في السُّنةِ المُثلى من الأعيان

وكان شعراء الإحساء وجنوب البلاد قد انقادوا لتأثير الدعوة في عهد الدولة السعودية الأولى حتى نبذوا في اشعارهم كل ما يخالف الفكر الإسلامي النزيه، فلما كتب الله الغلبة للجيوش التركية بقى كثيرون من أهل الإحساء على ماهم عليه.

أما أهل الجنوب فقد عادوا ــ إلا قليلا منهم ــ إلى الصوفية وشيء من الخزعبلات والأباطيل، إلا أنهم يعودون سريعاً كلما عاد إليهم سلطان الدعوة، وهم مع تذبذبهم هذا أغزر انتاجا وأوفر في ميدان الأعمال العلمية والأدبية.

وبدأت النهضة المعاصرة على يد الملك عبد العزيز رحمه الله، وكان في سيرته ومنهجه يسير على نهج سلفه الصالح، وخلفه على ذلك النهج أبناؤه البررة، ولذا وجدنا أثر الدعوة يتصل في حياتنا وأعمالنا والحمد لله. ولم يكن رجال الفكر في هذه البلاد ــ أدباء وغير أدباء ــ بمعزل عن هذا النهج القويم، وإنما كانوا فيه مصابيح الأمة، وأعلام طريقها،

وحداتها في مسيرتها إلى الحياة الأفضل على الرغم من المؤثرات الخارجية التي تهاجم — بين الحين والآخر — الإمام محمد بن عبد الوهاب — من هذا المنطلق وجدنا رجال الفكر في بلادنا يتجهون بأعمالهم وجهة الموضوعات التي تتخذ من الالتزام الإسلامي في معالجتها القضايا منهجاً ومنطلقاً تحوّم في آفاقه، وتنسرب في أعماقه وتتغلغل في كلياته وجزئياته باحثة عن موطن العلة لتعالجها، ومناطق القوة لتنميها وتنشرها.

وإذا كانت الموضوعات والأغراض يمكن أن توصف بالنزاهة والشرف، ويمكن كذلك أن توصف بالسقوط والنذالة والفساد..، وما ماثل هذا أو ذاك من صفات، فإن الألفاظ والأساليب والأفكار والمعاني لاشك توصف بذلك كله، بل إنه لايمكن الوصول إلى الغرض المقصود — حسناً كان أو قبيحاً — إلا عن طريق اللفظ والأسلوب المناسبين له.

وإذا كان الأديب صافي العقيدة، نزيه التفكير سليمه، شريف المقاصد والأهداف ينزع فيما يذهب إليه عن مبدأ مُوغلٍ في الرسوخ، مُعرق في الثبوت، منفرد بين المذاهب بقابلية الصلاح والإصلاح، لكل زمان ومكان لصدوره ممن «لايُسأل عما يفعل» لكونه الموجد لكل شيء والمتصرف في كل شيء.

إذا كان الأديب من هذا الطراز فإنه أشد الأدباء احتياجاً إلى نزيه اللفظ وشريف التعبير، لأنه نبيل القصد شريف الموضوع.

ولقد كان أدباء هذه البلاد المباركة الطيبة من ذلكم الطراز النفيس... بل إنهم كانوا في ذلك قدوة، ومذهبهم فيه أسوة.. يأتم بهم الصالحون، ويسترشد بهم الراشدون، وذلك أنهم من غراس تلكم الدعوة المباركة.. التي قامت على أساس من الوحي المقدس، والسنة الغراء، والائتمام بالسلف الصالح الأولين.

وإن من يتقصص آثارهم، ويتبع أخبارهم فيما روى من سيرهم أو تضمنته أسفارهم، أوما احتوته أسرارهم، ليرى أنهم في هذا الميدان لايدرك لهم شأو ولا يبزُّ لهم جياد.

وحين نتحدث عن أثر دعوة الإمام في فكرنا بعامة، وأدبنا بخاصة فإنا ببحثنا لاننشد مفقوداً، أو نتلمس خفيا، أو ندلل على غير مبين وإنما نصنع ذلك لتنمية القوى والشد من

أزره، والعمل على استمراره ونفض ماقد يعلق به من غبار الفكر السقيم الذي لوث آفاق الفكر في العالم إلا من رحم الله، ونرجوا أن نكون منهم. وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله واصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

البحث الثالث

وقفة مع قضية الانتحال في الشعر العربي

مقدمة :

النحلة بالكسر وبالضم، العطية ونحله المال أعطاه إياه أو خصه بشيء منه كنحله، وانتحله وتنحله ادعاه لنفسه وهو لغيره، ونحله للقول كمنعه نسبه إليه، وفلان ينتحل كذا يدين به.

والوضع والنحل والانتحال ألفاظ يدل بها على الكذب في الروايه، في أي علم وفي أي عصر ولدى أي أمه.

وفي الأدب عند العرب وجد الوضع والانتحال من أيام الجاهليه ومازالوا يعرفونه حتى يومنا هذا.

وأذكر أن مجله الإشعاع التي كانت تصدر في مدينه الخبر نشرت في عام ١٣٧٦هـ قصيدة في وصف بستان بالرياض اسمه «عليشه [١]» للأمير محمد بن عبد العزيز ونسبتها لشخص لا أذكر اسمه الآن، وكنت قرأتها في المسامرات الأدبيه التي كانت تصدرها مدرسة تحضير البعثات بمكه المكرمه باسم عبد الله بن سعد الطالب بها إذ ذاك.

وعرف العرب كذلك الكذب في التاريخ والأنساب منذ القدم، وأوضح شاهد على هذا أن النبي عليه الصلاة والسلام اذا انتسب لم يتجاوز في نسبه معد بن عدنان بن أدد ثم يمسك ويقول: كذب النسابون وكذلك ماذكره الهيثم بن عدى في «كتاب المثالب».

من أن دغفلا النسابه دخل على معاويه فقال له معاويه: من رأيت من علية قريش؟ فقال رأيت عبد المطلب بن هشام وأمية بن عبد شمس. فقال: صفهما لي. فلما وصف له عبد المطلب قال: فصف أميه: قال رأيته شيخا قصيرا نحيف الجسم ضريرا يقوده عبده ذكوان. فقال: مه. ذاك ابنه أبو عمر. فقال هذا شيء قلتموه بعد، وأحدثتموه، وأما الذي عرفت فهو الذي أخبرتك به.

وعرف المسلمون الوضع والنحل في الحديث الشريف وقد كثر ذلك في المائه الثانيه للهجرة وحديث ذلك في كتب الإسلام كثير، غير أن أوضح شاهد على هذا ماورد عن

---

(١) حي من أحياء الرياض الآن.

الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال «من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار[1]» وقد جاءه ذات يوم المنقع بن الحصين فقال: يارسول الله إن الناس خاضوا كذا وكذا، فرفع النبي صلى الله عليه وسلم يديه وقال: «اللهم لا أحلّ لهم أن يكذبوا عليّ» قال المنقع: فلم أحدث بحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا حديثاً نطق به كتاب أو جرت به سنه، يكذب عليه في حياته فكيف بعد موته؟؟

ونحن وان كان هذا يعنينا كثيراً إلا أنه ليس موضوع حديثنا هذا، فلنرجع إلى مانحن بصدده من حديث الشعر.

وقبل أن نتكلم عن الانتحال في الشعر نورد شيئاً من خبر تدوينه وروايته، ففي ذلك مايثبت حقيقة أصالته وإن كان ذلك أمر لايحتاج إلى تدليل.

ولكن ماقولكم في من يقف في الشمس رابعة النهار يتقي حرارتها بيده ثم يقول إن الشمس غير مشرقه. تلكم هى حال من ينكر أصاله للشعر الجاهلي وهو يرى حقيقة تلك الأصاله ماثلة في مابين أيدينا من أسفار مدونات المحققين من أسلاف علمائنا رحمهم الله.

تدوين الشعر

من المتفق عليها لدى الباحثين ان العرب لم يدونوا أدبهم بل لم يستخدموا التدوين في أي شأن من شؤون حياتهم الفكريه ـ الإماندر ـ لأسباب منها أن غالبيتهم كانوا أعراباً رحلاً ثم أن الكتابه في الحواضر كانت محدوده وقليل منهم من كان يجيدها وقد ثبت أن الكاتبين منهم لم يستخدموا الكتابه في تدوين الأدب لأنهم لم يألفوا ذلك، ولأن الدافع إلى التدوين منتفى عندهم لإنه إما أن يكون خوف النسيان ـ وهم أهل ذاكرة ومذاكرة ـ أو الثقافه العلمية وليس لهم من ذلك نصيب ـ فيا علمنا ـ وإنما كان العرب يحفظونه في صدورهم ويرويه بعضهم عن بعض على ماسيأتي في حديث الرواية، وظلوا على ذلك أيام الجاهلية وصدر الإسلام وعصر بني أميه.

وحين شاع التدوين في مطلع العصر العباسي كان الشعر في مقدمة تلك الفنون التي

---

(١) الحديث متفق عليه، ورواه جلة من المحدثين منهم أبو داود والترمذى والنسائي وروى عن مايزيد عن تسعين صحابى.

بـادر العلماء إلى تدوينها فجمع حماد الروايه المعلقات، وكتب المفضل الضبى «المفضليات» أما أبـو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي فله جملة رسائل منها الأصمعيات ثم أبو عمرو ابن العـلاء الـذي قيـل أنـه دون كـثيـراً ثم أحـرقه وأبو عبيدة عمرو بن المثنى الذي دون نقائض. جرير والفرزدق، وغيرهم كثير.

ومما تجدر الإشاره إليـه ماذكر من أن المعلقات العشر أو بعضها قد دونت وعلقت في جوف الـكعبـه المشرفه. فإن أمر تدوينها وتعليقها كان موضع شك لدى بعض الأقدمين كـأبي جعفر أحمد بن محمد النحاس المتوفي سنة ٣٣٨هـ الذي قال «إن حمادا هو الذي جمع السبع الطوال ولم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقه على الكعبه[١]».

وأنـكر بـعضـهم التدوين وقالوا إن الرواة وجدوا تلك المطولات كانت موضع اهتمام ويسمـونهـا أحياناً بالمعلقات وأخرى بالمذهبات وما إلى ذلك من الأسماء ولم يجدوا لتلك التسميات من تعليل فاخترعوا من انفسهم هذه التسميه «المعلقات».

ورغـم أنـنـا لانميـل إلـى الأخذ بالأمور الظنيه ونكره التشكيك فيما رواه العلماء إلا إذا ثـبـت الـدليل على ذلك رغم هذا فإنا نقول أن تدوين المعلقات وتعليقها لايعد دليلاً على أن العرب كانوا يدونون أشعارهم.

أولاً — لأن تدوينها قد وقع فيه شك.

ثانياً — أنـه لـو ثـبـت ذلـك فإن الدافع إلى تدوينها لم يكن الحفظ وإنما كان للتفاخر والمـبـاهـاة بهـا وقد علمنا أن العرب كانت تقيم الأعياد والأفراح إذا نبغ فيهم شـاعـر فـيطعمون الطعام ويسقون وينحرون الكثير من الإبل للآكلين ابتهاجاً وفرحة بـنـبوغ ذلك الشاعر لأن عليه يقع عبء الدفع عن القبيلة والذب عنها ونشر محـامـدهـا ومـفـاخرها، ويجعل لها وزنا أكبر في المجتمع وكيف لا وبيت الـشـعـر فـي المجـتـمـع الـعـربـي إذ ذاك كفيل برفع سمعة القبيله إلى الأعلى والهبوط بها إلى الحضيض.

---

(١) مصادر الشعر الجاهلي، الأسد، ١٦٩.

ثالثا ــ أن تدوين المعلقات عمل محدود لغرض مقصود غير التدوين. وليست هناك مدونات أخرى تدعمه فلا يجوز عده بدايه للتدوين ولا دليلاً عليه.

وأما ماذكر من أن حمادا الراويه روى «أن النعمان ابن المنذر المتوفي «سنة ٦٠٢م» أمر فنسخت له أشعار العرب في الطنوج ــ الكراريس ــ ثم دفنها في قصره الأبيض فلما كان المختار بن أبي عبيد «حوالي سنة ٦٧هـ» قيل له: إن تحت القصر كنزاً فاحتفره فأخرج تلك الأشعار. فمن ثم أهل الكوفه أعلم بالشعر من أهل البصرة» فإن بعض الباحثين عده من قبيل الأساطير ثم إن مصدره حماد وكذبه معروف.

ولقد حاول الدكتور ناصر الدين الأسد أن يثبت أن انتشار الكتابة في الجاهلية كان بشكل أوسع مما يتصوره جميع الباحثين من قبله وأردف بحثه في الكتابه ببحث آخر في تدوين الشعر وقد استغرقا معافي كتابه [مصادر الشعر الجاهلي] من ص ٢٣ الى ص ١٨٤. وهو بحث جليل حشد فيه كل مايمكن أن يعرف أو يقال في الكتابه الجاهلية وتدوين الشعر ورغم أنه جم الفوائد الا أنه لايخلو من بعض ملاحظات نورد بعضاً مما يتصل بموضعنا اتصالا مباشرا.

أولا: ففي حديثه عن تعليم الكتابه في الجاهليه وشيوعها قال: وأما قوله [ص] «إنا أمة أمية لانكتب ولانحسب» فلا ينقض ماقدمنا من رأي وذلك لأنه قال ذلك في حديث الصيام عن رؤيه الهلال وفي الحديث بقيه وهو كاملاً «إنا أمة أمية لانكتب ولانحسب، الشهر هكذا وهكذا».

فهذا الحديث لايعني إلاضرباً خاصاً من الكتابة والحساب، وهو حساب سير النجوم وتقييد ذلك بالكتابة لمعرفة مطلع الشهر فقد أخبر أن هذا الضرب من العلم المدون المسجل على الحساب والتقويم لم يكن للعرب عهد به ومن هنا علق الحكم بالصوم وغيره بالرؤيه لرفع الحرج عنهم في معاناة حساب التسيير[1].

ونحن معه على أن الحديث لايتضمن نفياً للكتابة بل ونضيف إلى ذلك أن المفسرين

---

(١) ٤٥، ٤٦ مصادر الشعر الجاهلي.

قد فسروا لفظة أميين الواردة في القرآن الكريم[1] والتي قصد بها العرب. أن معناها: الذين لاكتاب لهم وإن كانوا يعرفون القراءة والكتابه[2] . ولكنا لسنا معه على أن الحكمة في التشريع النبوي الكريم الذي علق حكم الصوم بالرؤ يه لجهل العربي بالحساب أو لدفع الحرج في معانا تهم لذلك النوع من الحساب ولو صح ما ذهب إليه لانتفى تعليق الحكم بالرؤية لانتفاء الجهل بوسائل الحساب في هذا العصر ولم يقل ذلك أحد من العلماء المعتد برأيهم[3]. ثم أننا لانستطيع أيضاً أن نكون معه في النتيجة التي وصل إليها وهى أن ثبوت الكتابه عند العرب وذكرها وأدواتها في أشعارهم وما أثر عنهم في نقوش يستلزم تدو ين الشعر إذلا دليل على ذلك سوى أنه لازم له.

مهما يكن من أمر فإن تدو ين الشعر العربي إنما تم عند بدء حركة التدو ين في أواخر العهد الأموي وأوائل أيام العباسيين.

الرواية والرواة

الرواية :

قد كان الشعر عند العرب سفرهم الأكبر، صحائفه الصدور ومداده الذاكرة الفطر ية المرنة، استودعوه أمجادهم ومفاخرهم وائتمنوه على أيامهم وانتصاراتهم فهو مجلى حياتهم وصورة أخلاقهم وطباعهم. تغنوا به في شعاف الجبال ومهابط الأوديه. وهزجوا به على ظهور الإبل وتنادوا به على صهوات الخيل و بين لمعان السيوف وخفق البنود فردده الأبطال والرعاة وتغنى به السادة والنساء وتناقلوه في مجالسهم ومراعيهم بين ماشيتهم، ورواه الخلف منهم عن السلف، وتناشدوه في المحافل والمجامع يتنا قلونه جيلاً بعد جيل حتى جاء فجر الإسلام فألقى الكثير من النفايات واستبقى من صالحه ما استبقى فلما جاء عصر بني أميه ونشطت فيه الأحزاب والعصبيات واحتاجوا إلى شعر القبائل في المفاخرات والمنافرات ونحوها بحثوا عن ذلك فألفوه قد ضاع جله لنبذ الإسلام له وموت الكثير من حفاظ الشعر ورواته.

---

(٢) ٢٠ سورة آل عمران، ٢سورة الجمعة.

(٣) ٢٦٦ جـ ١ الكشاف للزمخشري، ٢٥٣ جـ ١ الفتوحات الإلهيه ــ الجمل ــ.

(٤) راجع الفتاوي لابن تيميه، المجله ص ٥٨ ــ ٦٠، المجلد ٢٥ ص١١٢، ١١٣، ٢٠٢، ٢٠٨.

قال عمر بن الخطاب «رضى الله عنه»: «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولهت عن الشعر وروايته فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولاكتاب مكتوب وألفوا في ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير».[1]

وقال أبو عمرو بن العلاء «ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافر لجاءكم علم وشعر كثير»[2].

ومن ذلك العصر والرواة يعملون على لم شتاته وجمع ما تبعثر منه فاختلفت لذلك روايات بعضه ونسب قليل منه إلى غير أهله، لكن عكوف علماء التدوين على تمحيصه والتثبيت في روايته صحح الكثير ولم يبق غير النادر الذي لايستحق الحكم به ولاعليه الا المتعمد المكابرة والجحود والمضـــلل يأخذ بالظنة و يبني حكمه على الخيال.

الرواة :

اتضح لنا في مامر أن العرب لم يدونوا شعرهم لأسباب أشرنا إليها سلفا وأن التدوين إنما تم في مطلع القرن الثاني الهجري فما وسيله حفظ تلكم الأشعار التي ملأت سمع الدنيا وبصرها وسالت بالحديث عنها أقلام العرب وغير العرب من المستعربين المهتمين بشأن الثقافه والحياة العربية حتى تكونت من ذلك أسفار وأسفار أثرت بها مكتبة الدراسات الأدبية واللغوية بشكل منقطع النظير.

إن أمة كالعرب يحتل الشعر من نفوسهم أعلى منزلة لا تملك إلا أن تقبل على هذا الشعر، وتحرص على حفظه ولما لم تكن لهم يد في التدوين فقد اعتمدوا في حفظه على الرواية والحفظ، وأقبلوا على ذلك إقبالا منقطع النظير استوى فيه السيد والعبد والشريف والطريف والرجل والمرأة كما أسلفنا، إذ لم يكن الشعراء وحدهم هم الذين يعنون برواية الشعر بل كان يشترك معهم في ذلك جميع أفراد القبيله كلهم يحفظون، و يرددون شعر شاعرهم في مختلف المجالات ولو بلا مناسبة و بلغ من مغالاتهم في ذلك أن عيروا القبيله

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٢٢.

(٢) طبقات فحول للشعراء لابن سلام ص ٢٣.

التي لم تردد غير قصيدة واحدة، قال الشاعر معيراً بذلك بكراً وتغلباً في ترديدهم قصيدة عمرو بن كلثوم التي مطلعها:

ألا هبي بصحنك فأصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

وهى إحدى المعلقات السبع ولم يرووا له سواها، قال :

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يروونها أبدا مذ كان أولهم ياللرجال لشعر غير مشئوم

وما ألفه شعراء العرب قديماً وحرصوا عليه أن يكون لكل شاعر راوية يحفظ شعره وينشره في الناس ثم لايلبث أن يكون ذلك الراوية شاعراً فيتخذ له راوية كذلك وهكذا، ومن أمثلة ذلك أن زهير بن أبي سلمى كان راوية لأوس بن حجر وكعب بن زهير والحطيئة كانا راويتين لزهير، وهدبة بن خشرم كان راوية للحطيئة، وعن هدبة روى جميل بن معمر وعنه روى كثير عزه، كما روى الأعشى عن المسيب بن علس وروى طرفة عن المتلمس وهكذا.

وهناك من الرواة من لم تقصر روايتة على القبيلة ولم تلتزم بشاعر معين بل أقبلوا على الشعر دون تفرقة يحفظونه وينشدونه في المحافل والمجامع وفي مجالس القبائل وأسواق العرب.

ثم جاء الإسلام بأساليبه وتعاليمه السماوية السامية فنقل العرب من حياة تفرق وتناصر وتدابر وظلم وقطيعة وما إلى ذلك مما ألفه العرب في جاهليتهم، إلى حياة تآخ وتواصل ومحبة وتعاون بل إلى كل فضيلة من فضائل الدين الحنيف وكان مما شمله ذلكم التغيير الشامل موقفهم من الشعر ونظرتهم إليه متأثرين في ذلك بقول الله تعالى: «والشعراء يتبعهم الغاوون ألم ترأنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات» الآية (١) .

وقول المصطفى عليه الصلاة والسلام : «لئن يمتلىء جوف أحدكم قيحاير يه خير من

(١) سورة الشعراء، آية ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧.

أن يمتلىء شعرا» فانصرفت الكثرة الكاثرة منهم عن قول الشعر وروايته وانضم إلى هذا اشتغالهم بحفظ القرآن الكريم وحديث المصطفى عليه الصلاة والسلام ثم النفرة في سبيل الله لجهاد اعداء الله ونشر دينه في الأرض فكان من نتائج ذلك ضياع الكثير من تراث العرب الشعري الذي سبق أن ذكرنا ما قاله عمر بن الخطاب «رضى الله عنه» فيه وأردفناه بقول أبي عمرو بن العلاء غير أنه لايفوتنا أن نذكر أن كثيراً من كبار صحابة الرسول صلىٰ الله عليه وسلم كانوا من رواة الأخبار والأشعار.

فقد كان الخليفة الأول أبو بكر [رضى الله عنه] راو ية للشعر، نسابة، وكان كثير الاستشهاد بالشعر في خطبه وأحاديثه كما كان النبي صلىٰ الله عليه وسلم يحيل إليه في الأنساب، وكان عمر رضى الله عنه كثير الروايه للشعر يتمثل به و يستنشده و يأمر بروايته، فقد قال« احفظ محاسن الشعر يحسن أدبك فإن محاسن الشعر تدل على مكارم الأخلاق وتنها عن مساؤيها» وما وفد عليه وفد من العرب إلا وسألهم عن شعر شعرائهم وقد يستنشدهم منه، وكذا كان الخليفتان عثمان وعلي رضى الله عنهما وخطبهم ورسائلهم حافلة بالأمثلة الصادقة في ذلك، متأثرين فيه بقول المصطفى صلىٰ الله عليه وسلم «إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمه»[1] .

وحين ظهرت الأحزاب ونشطت العصبيات القبليه أيام بني أميه احتاج أرباب تلكم الفئات والأحزاب إلى تراث آبائهم السابقين في ميدان المفاخرات والمنافرات فجدوا في نبش أشعار الجاهلين، وساعد على ذلك أن كان بني أمية وأمرؤهم وولاتهم من أشد الناس إقبالاً على سماع الأشعار وحرصهم على تفسيرها، وقد يؤرق الخليفه بيت من الشعر جهل صدره أو عجزه أوقائله فلا ينام حتى يؤتي له بمن يتمه أو يفسره وكانوا يبذلون في ذلك بسخاء، دفع ذلك كله إلى تخصص رجال في ذلك أقبلوا عليه واحترفوا روايته فأصبحت رواية الشعر حرفة بعد أن كانت هوايه.

وتكاثرت القبائل بالأشعار وكان أناس قلت أشعارهم فأرادوا أن يكونوا لهم من وفرة الشعر مالغيرهم فوضعوا على ألسن آبائهم وأجدادهم شعراً نحلوهم إياه، فاندس في عالم

---

(١) رواه ابن عباس وأخرجه أبو داوود، الفتوحات الإلهيه، المجلد ٣ص ٢٩٧.

الرواة من لايحترم أمانة النقل فجر ذلك إلى شيء من الكذب والانتحال والوضع، ولكن لم يكن ذلك على الصورة التي بالغ في تضخيمها بعض المتأخرين.

ومما يحسن إيراده في هذا الباب قول ابن سلام الجمحي «لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وماذهب من ذكر وقائعهم وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا ان يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار فقالوا على ألسن شعرائهم ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الأشعار»[1].

وكان هناك جمهور كبير من ثقاة الرواة لم يرووا الا ماصح لديهم كما أنهم حرصوا على رد باطل الوضاعين وتزييف بهرجهم ولذا يمكن تقسيمهم إلى قسمين..

(١) رواه ثقاة :

يحرصون على استقاء الشعر من منابعه وتلقفه من أفواه أربابه، ورواته المعروفين فكانوا يجوسون خلال البادية لهذا الغرض، ولم يكتفوا بذلك بل كانوا يعرضون مايردون على رواة القبائل وحفاظها ولا يعتمدون في روايتهم على كتاب أو صحيفه. قال ابن سلام: «وليس لاحد إذا اجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه أن يقبل من صحيفة ولايروى عن صحفى[2] ».

(٢) وآخرون غير ثقاة، وهم ثلاثة أنواع :

(أ) رواة وضاعون خبروا فنون الشعر ومسالكه وأجادوا تقليده ومحاكاته فصاروا ينظمون القصائد و ينحلونها الشعراء وذلك لأن الرواية تدرعليهم من الكسب والمال مالا يدره نظم الشعر، ثم أيضاً ليقال عنهم أنهم يروون مالم يروه غيرهم ومن هؤلاء حماد الراوية وخلف الأحمر، وفي تجريحهما وردت أخبار كثيرة من ذلك مارواه ابن الأعرابي الكوفي، يروى عن المفضل الضبي أنه قال:

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام، ص ٣٩، ٤٠.
(٢) طبقات فحول الشعراء ص ٦.

«قد سلط على الشعر من حماد الراوية ماأفسده فلا يصلح أبدا فقيل له وكيف ذلك؟ أيخطىء في روايته أم يلحن؟ قال: ليته كان كذلك فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب الرجل و يدخله في شعره ويحمل ذلك عنه في الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولايتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد، وأين ذلك»[1] و يروى أن خلفاً الأحمر كان ماجناً وضاعاً.

(ب) ورواة لايضعون ولكنهم ينقلون الصحيح والسقيم ومن هؤلاء ابن اسحاق راوى السيرة النبويه، قال ابن سلام في طبقاته «وكان ممن أفسد الشعر وهجنه وحمل على غثاء منه محمد بن إسحاق ابن يسار مولى آل مخزمه بن المطلب بن عبد مناف وكان من علماء الناس بالسير. فقبل الناس عنه الأشعار وكان يعتذر منها و يقول: لاعلم لي بالشعر اوتى به فأحمله ولم يكن ذلك له عذراً. فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط، وأشعار النساء فضلاً عن الرجال. ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود فكتب لهم أشعاراً كثيرة وليس بشعر وانما هو كلام مؤلف معقود بقواف أفلا يرجع إلى نفسه فيقول: من حمل على هذا ومن أفاده منذ آلاف السنين والله تبارك وتعالى يقول «فقطع دابر القوم الذين ظلموا» اي لابقيه لهم، وقال أيضاً: «وأنه أهلك عادا الأولى وثمود فما أبقى» وقال في عاد «فهل ترى لهم من باقية» وقال «وقروناً بين ذلك كثيرا» وقال «الم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لايعلمهم الا الله[2] ».

(جـ) اما النوع الثالث فرواة غير محترفين ومن هؤلاء أبناء بعض الشعراء وأقربائهم قال ابن سلام «اخبرني أبو عبيده أن ابن داوود بن متمم بن نويرة قدم البصرة في بعض مايقدم له البدوي في الجلب والميرة فنزل النحيت فذهبت انا وابن نوح العطاردي فسألناه عن شعر ابيه متمم وقمنا له بحاجته وكفيناه صنيعه فلما نفذ شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار و يضعها لنا وإذا كلام دون كلام متمم وإذا هو يحتذي على كلامه فيذكر المواضيع التي ذكرها متمم والوقائع التي شهدها. فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله[3] ».

(١) الأغاني ٨٩/٦، ومعجم الأدباء ٢٦٥/١٠.
(٢) الطبقات لابن سلام ص ٨.
(٣) المصدر السابق : ص ٤٠.

رواة مدونون :

في أخر يات العصر الأموي وأول العصر العباسي كثر الرواة المحترفون الذين قاموا بجمع أشعار العرب من أفواه الحفاظ والرواة من الأعراب الذين كان يذهب إليهم الرواة المحترفون فيرجلون إليهم في مضارب القبائل ومرابع البادية وكان جل أولئك المحترفين لايدونون وإنما يعلمونه الناس مشافهة وتعليماً.

وآخرون كانوا يدونون مايروون بجانب تعليمهم إياه للآخرين في حلق الدرس ولكن لم يصل إلينا شيء مما كتبوا فهم في ذلك كالفئه السابقه من حيث عدم بقاء آثار مدونه لهم أما أولئك الذين بقيت اعمالهم او بعضها خالده فيما دونوا واليهم يرجع الفضل فيما وصل إلينا من تراث من سبق عصرهم فهم الرواه المدونون، وأبرز هؤلاء المفضل الضبي الذي دون المفضليات والأصمعي ومن أهم مادون الأصمعيات وأبو عبيدة، معمر بن المثنى وما دونه النقائض بين جرير والفرزدق.

نظرية الانتحال في الشعر

يشكل الأدب الجاهلي جزءاً هاماً من تراثنا الأدبي واللغوي وهو الأرض الصلبة التي قام عليها بناء علوم اللغه وقواعدها من نحوو صرف و بلاغة ونحوها، وفيه شاهد المفسر والمحدث وعدة الخطيب ومستمد الأديب، ولقد حفظ العرب أدبهم وتناقلوه روايه ودرايه يرويه الخلف عن السلف و يتعهدونه بالحفظ والاستذكار و يتعاقبون على ذلك كأعز مايملكون وأجل مابه يفاخرون وكيف لا وهو ديوانهم الذي استودعوه مفاخرهم وأحسابهم وعلمهم الذي لاعلم لهم أصح منه كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه (١) .

وكانت ثروتهم منه لاتحصر ولا تقدر ــ يقول أبو عمرو بن العلاء «ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ولوجاءكم وافر لجاءكم علم وشعر كثير» (٢) وهذا الذي يراه أبو عمرو بن العلاء قليلاً، كثير جداً ولكن كما قال أبو الطيب المتنبي.

---

(١) راجع موضوع الرواية.

(٢) سبق في موضوع الروايه.

قـواصـد كـافـور تـوارك غـيـره ومـن قصد البحر استقل السواقيا

وأبو عمرو بن العلاء أقرب إلى عصرهم وأعلم بأحوالهم وأخبارهم وأدرى بوفرة شعرهم ولذا استقل ماروى منها رغم كثرة ذلك المروى ولقد روى لنا ثقاة الرواة من صحيح الشعر الكثير مما لايتسرب إلى صحته أدنى شك الا عند جاحد مكابر ومغالط كذاب إذ أن أئمه البصريين الذين عرفوا بتحرجهم في الروايه وتشددهم فيها قد تركوا لنا ثروة عظيمة تتمثل فيا رواه أمثال أبي عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب والمفضل الضبى وأبو عبيدة معمر بن المثنى وأبو سعيد الأصمعي ونحوهم من الثقاة، أفيقال بعد ذلك أن الشعر الجاهلي كله أو قليل منه منحول.

ونحن مع تيقننا صحة الكثير مما وصلنا من الشعر الجاهلي لاننكر أنه قد شابه شيء من الوضع والانتحال الا أنه كان من القله بحيث أمكن العلماء التنبيه عليه والتحذير منه من رواته وواضعيه وقبل أن نأخذ في عرض الآراء في هذا الموضوع ومناقشتها نود أن نطرح سؤالاً الإجابة عليه تجعل الهدف أمامنا مكشوفاً والعلامات أكثر وضوحاً ــ وهذا السؤال هو: ما الهدف من حملة التشكيك في الشعر العربي وإنكار أكثره؟ أهو الإخلاص للحقيقه والتاريخ أم الغيرة على تراث العرب، أم هناك دلائل جديدة وحقائق كانت مستورة ولم تكشف الا لهذا الجيل المتأخر من المستشرقين وبعض العرب المستغربين. ويديهي أن الإخلاص للحقيقة والتاريخ لايكون بهدم الحقائق القائمة وان الإخلاص للعرب والغيرة على تراثهم لايكون بتجريدهم من أعز ماخلفوا وأن الأدلة والحقائق في هذا عرفها أقوام ثقاة لايفصل بينهم وبين الجاهليه غير قرن أو ينقص يحول بين ذلك العصر وبين الطاعنين أربعة عشر قرناً فا الهدف إذاً؟

إن الهدف واضح وضوح الشمس في رابعة النهار إنه وسيلة لاغاية، لأنه حلقة من سلسلة أعمال هدامه استهدفت الكيد للإسلام والدس عليه والتشكيك في حقائقه وهيهات هيهات أن ينال هؤلاء شيئاً مما أملوا.

نشأة نظرية الانتحال

في كل جانب من جوانب حياة الأمم يوجد الصدق والكذب، وفي كل ميدان من ميادين تراث الأمم يوجد الأصيل والدخيل، ولقد أصاب الشعر العربي من ذلك ما أصابه

أيام التدوين، فلم يغفل عنه ثقاه المدونين بل نبهوا عليه وحذروا منه ـ وسيأتي ذكر ذلك في موضعه ـ أما هذه الموجه العارمه من الشبه والطعن والتشكيك في أشعار الجاهلين والطعن والتجريح والتكذيب لثقاة الرواة فحمله حديثة يعود تاريخها إلى القرن السابق قام بها كتاب أوربيون أمثال [نولدكه، ألورد، مو ير، باسيه، بروكلمان مرجليوث، بلاشير] وشايعهم في تعصب وتبذل فكري الدكتور طه حسين في كتابه «في الشعر الجاهلي» و «في الأدب الجاهلي» لكن كان المفكرون العرب بالمرصاد لتلكم الحملات الحاقدة المغرضة فلقد وقفوا في وجهها بقوة الحق والإخلاص ففندوا حججهم وزيفوا بهرجهم وقدموا للناس الحجج الساطعة والبراهين القاطعة على كذبهم وافترائهم على الحق وأهله فتعروا أيما تعرية وفضحوا أيما فضيحة وممن تصدى لذلك محمد الخضر حسين في كتابه «نقض كتاب الشعراء الجاهلين» وعبد الحميد المسلوت في كتابه «نظرية الانتحال» ثم تعاقب على ذلك الباحثون في تاريخ الأدب العربي والدارسون له كناصر الدين الأسد في كتابه «مصادر الشعر الجاهلي»[(١)] .

(٢) إن عصر بني أميه كان عصر تحرك واسع وسريع في جمع شتات ماتفرق من أشعار الجاهليين وكان ذلك بتأثير من الأحزاب والعصبيات التي هاجتها ظروف ذلكم العصر فأوجد هذا جيلاً من الرواة المحترفين عرفوا بالأدباء أو المؤدبين كانوا يتسابقون على الشهرة والجوائز التي كان يتحفهم بها بنو أمية فأمكنهم هذا السباق من جمع الكثير من أشعار العرب الإسلاميين منهم والجاهلين لكن المكاثرة في المروى من الأشعار والأخبار دفعت أرباب النفوس المريضة وهم قليل إلى وضع بعض الأشعار ونحلها ففطن لذلك الثقاة منهم وهم كثير، فحاربوا الوضاعيين وماوضعوا وشهروا بهم وحذروا منهم، ومارووا غير أن ماوضعه أولئكم كان قد زاع وانتشر فحفظه غير المتبصرين فيما دونوا فوجد المنحرفون من الباحثين في هذا العصر منه مادة صالحة لنفث شكوكهم ودس سموم شبههم. ومن هنا كانت نظرية الانتحال وكان انقسام الناس عليها كما يأتي:

أ ـ يبالغ البعض فيدعى أن شعر الجاهلية كله منحول قد انقطعت به سبل الصحة والثبوت.

---

(١) ستأتي إشاره إلى بعض المؤلفات أيضاً.

ب ــ و يغالي آخرون فيدعون أن كل ماورد في الكتب المدونة من ذلك صحيح.

جـ ــ و يقف المحقق وسطا في ذلك يثبتون الصحيح و ينفون ماعداه، وهذا هو سبيل الحق الذي سار عليه الأولون من ثقاة الرواه والمدونين، وهؤلاء والحمد لله هم الأكثر وفيهم نفر من المستشرقين أمثال [برو ينلش، جيمش ليال].

(٣) خلاصة القول :

أن الشعر العربي إما أن يأتي عن طريق الرواة الثقاة أمثال أبي عمر و بن العلاء والمفضل الضبى وأبي سعيد الأصمعي وأبي عبيدة وأمثالهم، وهذا مقبول لاسبيل للطعن في صحته أو أن يكون آت عن طريق ابن اسحاق أو عبيد بن شر يه أو خلف الأحمر أو حماد الراو ية وأمثالهم من غير الثقاة وهذا مرفوض مادام من هذا المصدر وحده.

«النحل والانتحال عند الأقدمين»

وجدت ظاهرة الانتحال في الشعر منذ القدم، وفيما ذكره ثقاة الرواة مايثبت هذا إلا أن ذلك كان قليلاً جداً ثم أن الكثير منه كان يقع في البيت أو الشطر وقد يصل إلى عدة أبيات لأن نسبة الكلام إلى غير قائله متحققه في الجميع ولو أردنا أن نفرق بين الأمر ين لقلنا إن السرقة تكون في الشطر والبيت أما مازاد على ذلك فانتحال، وهذه أمثله لذلك:

أ ــ فمثال ماوقع فيه الانتحال في شطر أو بيت ماورد في شعر امرىء القيس و بعض الفحول الآخر ين مما نميل إلى تسميته توارد خواطر، وذلك أمر جائز.

(١) يقول امروء القيس :

وقوفا بها صحبي عليّ مطيهم يقولون لاتهلك أسى وتجمل

و يقول طرفه :

وقوفا بها صحبي عليّ مطيهم يقولون لاتهلك أسى وتجلد

(٢) يقول امروء القيس :

فدعها وسلّ الهمّ عنك بجسرة زمول إذا صام النهار وهجرا

و يقول علقمه :

فدعها وسلّ الهم عنك بجسرة كهمك فيها بالرداف خبيب

(٣) يقول امروء القيس :

وقد اغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

و يقول علقمه :

وقد أغتدى والطير في وكناتها وماء الندى يجري على كل مذنب

ب — ومن النوع الثاني ماورد ذكره في بعض كتب الأقدمين :

(١) فمن ذلك ما ذكره ابن سلام قال : حدثني أبو عبيدة قال : كان قراد بن حنش من شعراء غطفان وكان جيد الشعر قليله، وكانت شعراء غطفان تغير على شعره فتأخذه وتدعيه، منهم زهير بن أبي سلمى، ادعى هذه الأبيات:

إن الرزية، لا رزية مثلها ماتبتغى غطفان يوم أضلت

إن الركاب لتبتغي ذامرة بجنوب نخل إذا الشهور أحلت

ولنعم حشو الدرع أنت لنا، إذا نهلت من العلق الرماح وعلت

ينعون خير الناس عند كريهة عظمت مصيبتهم هناك وجلت[١]

(٢) وقد اتهم بعضهم الأعشى بأنه يستعين على شعره ، أي يسرق، قال ابن قتيبه: وكان «الأعشى» يفد على ملوك الحيرة ويمدح الأسود بن منذر أخا النعمان، وفيه يقول.

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام : ٥٦٨ — ٥٦٩.

أنت خير من ألف ألف من الناس إذا ماكبت وجوه الرجال

وقال له النعمان : لعلك تستعين على شعرك، قال: احبسني في بيت حتى أقول فحبسه في بيت فقال القصيدة التي أولها:

أأزمعت من آل ليلى ابتكارا وشطت على ذى هوى ان تزارا

وفيها يقول :

وقيدني الشعر في بيته كما قيد الآسرات الحمارا[1]

(٣) ودخل النابغه الجعدي على الحسن بن علي ليودعه حين عزم على الخروج إلى الباديه فقال له الحسن أنشدنا من شعرك فأنشده قوله:

الحمد لله لاشريك له من لم يقلها فنفسه ظلما

فقال له الحسن أيا أبا ليلى ماكنا نروى هذه الأبيات إلا لأميه ابن أبي الصلت، قال: يا ابن بنت رسول الله، والله أني لأول الناس قالها، وإن السروق من سرق أمية شعره[2].

جـ ــ وقد أشار الشعراء إلى أنفسهم وذكروا برائتهم من الانتحال أو برؤوا منه غيرهم آخر ممن يرون براءته.

(١) طلب الحطيئه من كعب بن زهير أن يذكره في شعره و يثنى عليه لأنها آخر فحول الشعراء كما يقول الحطيئه، فقال كعب أبياتا منها:

فمن للقوافي شانها من يحوكها إذا ماثوى كعب وفوز جرول

يقول، فلا يعنى بشيء يقوله ومن قائليها من يسيء و يعمل

كفيتك، لاتلقى من الناس واحدا تنخل منها مثل ما يتنخل

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٨٠، الطبعه الثانية.
(٢) راجع ابن سلام، ص ١٠٦ ــ ١٠٧.

يـشـقـفـهـا حتى تـلين مـتـونهـا   فـيـقصر عنهـا كـل مـايـتـمـثـل

قال ابن سلام فاعترضه مزرد ابن ضرار، واسمه يزيد وهو أخو الشماخ، وكان عريضاً (أي شديد العارضة كثيرها) ، فقال :

وباستك إذ خلفتني ــ خلف شاعر   من الناس ــ لم أكفىء ولم أتنحل

فإن تجشبا، وإن تتنخلا   وإن كنت أفتى منكما ــ أتنخل

ولست كحساة الحسام ابن ثابت   ولست كشماخ ولا كالمخبل

وأنت امرؤ من أهل قدس أوارة   أحلتك عبد الله أكناف مبهل[1]

(٢) ويقول الفرزدق في مدح علقمه الفحل والثناء عليه بأن كلامه لاينتحل لظهور أثره فيه وغلبة طابعه حتى أن كلامه كحلل الملوك التي لايرتديها غيرهم، قال:

والفحل علقمة الذي كانت له   حلل الملوك كلامه لا ينحل[2]

موقف الرواة الثقاة من الوضع والانتحال والرواة الوضاعين

وأول من درس قضية الانتحال دراسة الناقد المتبصر الحريص على أمانة النقل والعلم ابن سلام الجمحى «طبقات فحول الشعراء» وهو بصري ثقة أخذ منهجه في الأمانة وحب التثبت عن شيوخه علماء البصرة، وحرص على أن يكون دقيقاً صادقاً في كل مايثبت أو ينفى، وقد عزا ابن سلام الوضع في الشعر إلى سببين:

الأول : الرواة الوضاعون.

الثاني : القبائل العربية التي استقلت شعر شعراء سابقيها فوضعت أشعارا على ألسنتهم للتفاخر بذلك والتباهي قال ابن سلام: «فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من وقائعهم، وكان قوم قلت

---

(١) طبقات ابن سلام، ص ٨٨ ــ ٨٩.

(٢) ديوان الفرزدق ص ١٥٩، المجلد الثاني.

وقائعهم وأشعارهم وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار فقالوا على ألسن شعرائهم ثم كان الرواة بعد، فزادوا في الأشعار التي قيلت وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولاما وضعوا ولاما وضع المولدون وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء او الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك بعض الأشكال» (١).

وضرب أمثلة كثيرة لذلك منها قوله : «أخبرني أبو عبيدة عن يونس قال: قدم حماد البصرة على بلال بن أبي بردة وهو عليها، فقال: ما أطرفتني شيئاً فعاد إليه فأنشده القصيدة التي في شعر الحطيئه مديح أبى موسى فقال ويحك، يمدح الحطيئه أباموسى لا أعلم به وأنا أروى شعر الحطيئه، ولكن دعها تذهب في الناس» (٢).

وكان من أبناء الشعراء وأحفادهم من تقّول على أبيه وكذب عليه، قال أبو عبيده: «أن ابن داود بن متمم بن نويرة قدم البصرة في بعض مايقدم له البدوى في الجلب والميره فنزل النحيت فأتيته أنا وابن نوح العطاردى فسألناه عن شعر أبيه متمم وقنا له بحاجته وكفيناه ضيفته فلما نفذ شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويضعها لنا، وإذا كلام دون كلام متمم وإذا هو يحتذى على كلامه فيذكر المواضع التي ذكرها متمم والوقائع التي شهدها فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله» (٣).

وما يدل على استهجانهم المنحول ونبذه قول ابن سلام: «وفي الشعر المسموع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه، ولاحجه في عربيته ولا أدب يستفاد، ولامعنى يستخرج، ولا مثل يضرب، ولا مديح رائع، ولا هجاء مقذع، ولافخر معجب، ولا نسيب مستطرف. وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل الباديه ولم يعرضوه على العلماء. وليس لأحد — إذا أجمع أهل العلم الرواية الصحيحه على إبطال [شيء منه] — أن يقبل من صحيفة ولايروى عن صحفى. وقد اختلفت العلماء في بعض الشعر، كما اختلفت في بعض الأشياء. أما ماتفقوا عليه، فليس لأحد أن يخرج منه » (٤).

---

(١) طبقات ابن سلام ص ٣٩.

(٢) طبقات ابن سلام ص ٤١.

(٣) طبقات ابن سلام ص ٤٠.

(٤) الطبقات لابن سلام ص ٥ — ٦.

ومما يمثل موقفهم من الرواة الذين لايثبتون ولا يتحفظون في روايتهم فيروون منه السليم والسقيم والصحيح والمنحول قول ابن سلام: «وكان ممن أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه، محمد بن اسحاق بن يسار، مولى آل مخرمه بن المطلب بن عبد مناف، وكان من علماء الناس بالسير» (١) وأما الرواة الوضاعون فأسلفنا في الحديث عن الرواة إشارة إلى شيء من ذلك ومما يلحق به ماورد في مقدمه المفضليات لحسن السندوبى (٢) نقلا عن كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني بسنده عن جماعه ذكر أنهم كانوا في دار أمير المؤمنين المهدى بعيساباذ وقد اجتمع فيها عدة من الرواه والعلماء بأيام العرب وآدابها وأشعارها ولغاتها إذ خرج بعض أصحاب الحاجب فدعا بالمفضل الضبى الراو يه فدخل فمكث مليا ثم خرج إلينا ومعه حماد والمفضل جميعا وقد بان في وجه حماد الانكسار والغم وفي وجه المفضل السرور والنشاط، ثم خرج حسين الخادم معهما فقال : يامعشر من حضر من أهل العلم إن أمير المؤمنين يعلمكم أنه وصل حماد الشاعر بعشرين ألف درهم لجودة شعره، وإبطال روايته لزيادته في أشعار الناس ماليس منها، ووصل المفضل الضبى بخمسين ألف لصدقه وصحة روايته، فمن أراد أن يستمع إلى شعر جيد محدث فليسمع من حماد، ومن أراد أن يسمع روايه صحيحه فليأخذها من المفضل.

قالوا فسألنا عن السبب فأخبرنا أن المهدى قال للمفضل لما دعابه وحده: إني رأيت زهير بن أبى سلمى افتتح قصيدته بأن قال.

(دع ذا وعد القول في هرم.)

ولم يتقدم له قبل ذلك قول، فما الذي أمر نفسه بتركه؟ فقال له المفضل ماسمعت يا أمير المؤمنين في هذا شيئاً إلا أنى توهمته كان يفكر في قول يقوله، أو يروى في أن يقول شعرا فعدل عنه إلى المدح هرم وقال: دع ذا، أو كان يفكر في شأن من شؤنه فتركه وقال: دع ذا، أى دع ما أنت فيه من الفكر وعد القول في هرم.

فأمسك عنه ثم دعا بحماد فسأله عن مثل ما سأل عنه المفضل، فقال ليس هكذا يا أمير المؤمنين، قال، فكيف قال؟ فأنشده:

---

(١) الطبقات لابن سلام ص ٦ ــ ٨.

(٢) المفضليات للضبى، طباعة القاهرة سنة ١٣٤٥هـ ص ١٨ ــ ١٩.

لمن الديار بقنة الحجر أقوين مذ حجج ومذ دهر
لعب الزمان بها وغيّرها بعدي سوافي المور والقطر
قفر بمندفع النحائت من ضفوى الات الضال والسدر
دع ذا وعدّ القول في هرم خير الكهول وسيّد الحضر

فأطرق المهدي ساعة ثم أقبل على حماد فقال له : قد بلغ أمير المؤمنين عنك خبرٌ لابد من استحلافك عليه، ثم استحلفه بأيمان البيعه وكل يمين محرجة ليصدقنه عن كل مايسأله عنه، فحلف بما توثق منه فقال له: اصدقنى عن حال هذه الأبيات ومن أضافها إلى زهير؟ فأقر له حينئذ أنه قائلها. فأمر فيه وفي المفضل بما أمر به من شهرة أمرهما وكشفه.

ونظائر هذا الخبر كثير جمع الأستاذ المرحوم مصطفى صادق الرافعي جملة حسنة منها ورتبها ودرسها في كتابه تاريخ الأدب، المجلد الأول.

المتأخرون ونظرية الانتحال

١ ــ المستشرقون .

في عام ١٢٨١هـ/١٨٦٤م وعلى يد المستشرق [نولوكه ثم آلورد] الذي نشر دواوين الشعراء الجاهلين السته «امرؤ القيس، والنابغة، وعنترة، وزهير، وطرفه، وعلقمة»، وأعلن عن مشكلة في جميع أشعار هؤلاء ولم يستثن لهم من ذلك إلاقصائد معدودة قال إن الشك أيضاً يحوم حولها من حيث ترتيب الأبيات وتغير الألفاظ

فُتح باب واسع على الشعر الجاهلي ولج منه الكثير من المستشرقين غير أن أهمهم اثنان: مارجليوث من المهاجين وشارلس جيمس ليال من المدافعين، وقد لخص الدكتور ناصر الدين الأسدرأى مارجليوث تلخيصاً حسنا وعرض لآراء شارلس جيمس ليال واقتطف منها مقتطفات حسنة وذلك في كتابه [مصادر الشعر الجاهلي]

ونظرا إلى أن خلاصه آراء المستشرقين تتمثل فيا كتبه هذان الرجلان فسوف نكتفي

في حديثنا عنهم بما كتباه وسنعتمد في حديثنا من الأول على ماذكره الأسد اذ أن المصدر الأصلي ليس في متناول أيدينا، ثم أن بحث الأسد لم يترك حاجة لغيره في ذلك[1].

في مجلة الجمعيه الملكية الأسيويه عدد يوليو سنة ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م نشر مارجليوث مقالاً تحت عنوان «أصول الشعر العربي» حكم فيه بأن هذا الشعر الذي تقرؤه على أنه شعر جاهلي، إنما نظم في عصور إسلاميه ثم نحله هؤلاء الوضاعون لشعراء جاهليين، يقول الأسد وقد بنى رأيه هذا على ضربين رئيسين من الأدله، أدلة خارجيه وأدله داخلية[2] ثم أخذ في عرض هذه الأدله بادئاً بالأدلة. الخارجية ثم الأدله الداخلية وسنجمل القول فيها اكتفاء بتبسيط الأسد لها إلى ماسنوفيء إليه من رأينا في ذلك.

٢ ـ الأدلة الخارجيه .

أ ـ استدل على وجود شعراء في الجاهلية بما ورد في القرآن الكريم من ذكرهم في سوره الشعراء [والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ماظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون[3]] وما ورد في سورة الطور من قوله تعالى : [فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون، أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون][4] وقوله تبارك وتعالى [إنه لقول رسول كريم، وماهو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون، ولا بقول كاهن قليلاً ماتذكرون][5] ويزعم أن الألفاظ: كاهن، شاعر، مجنون، تدل على مدلول واحد، وإنه من الجائز عنده أن الشعراء كانوا ينبؤن بالغيب وهذا جهل منه بلغه العرب. ثم يعرض بالقرآن الكريم وبالمصطفى عليه الصلاة والسلام، ويقول أن محمداً يدعى أن كلامه ليس من جنس كلام الشعراء ولا الكهان وأنه منزل إليه من ربه تبارك وتعالى [تعالى الله ص ١٨].

---

(١) راجع مصادر الشعر الجاهلي للأسد من ص ٣٥٢ ـ ٣٧٦.
(٢) مصادر الشعر الجاهلي، الأسد ص ٣٥٣.
(٣) الشعراء، من آية ٢٢٤ إلى أخر السوره.
(٤) الطور ٢٩ : ٣٠.
(٥) الحاقه ٤٠ : ٤٢.

ب ـ استنتج مما ورد من أخبار وأشعار في كتب الأقدمين من العرب أن بداية الشعر الجاهلي غامضة ثم توصل إلى الحكم بأنه بدأ قبل الإسلام بأجيال قليلة على يد المهلهل وأضرابه (١) ونحن نعلم كما علم أسلافنا أن نشأة الشعر غامضة فعلا ولكننا نجزم أن جيل المهلهل لم يكن هو الذي على يده كانت بداية الشعر العربي بل لابد من أن أجيالا سبقت جيل المهلهل في عهدهم ولد الشعر ونما حتى وصل إلى ما وصل إليه فيما ورثناه عن المهلهل ومن بعده وقد بسط رجال تاريخ الأدب القول في هذا.

جـ وفي حديثه عن حفظ الشعر العربي قال بأنه لابد من أن يكون حفظ بالروايه أو بالكتابه.. وقال أنه رغم كون العرب يميلون إلى حفظه بالروايه الشفهيه إلا أنه أمر مشكوك فيه واستدل على ذلك بأن الإسلام يجب ماقبله، وأن القرآن عرض بالشعراء واتهم القرآن الكريم بالقسوة عليهم، ثم توصل إلى الحكم بنبذ العرب للشعر ونسيانهم له لأنه يتنافى ومايدعو إليه الإسلام (٢).

د ـ وفي دليله الرابع من الأدله الخارجية يحكم أولا وبناء على ماقدمه في الدليل الثالث بأن الشعر حفظ عن طريق الكتابه ثم يأتي ثانيا ليهدم هذا الدليل مستدلا على عدم كتابة الشعر الجاهلي بما صرح به القرآن الكريم من انكار لذلك حسب زعمه، ثم يشير إلى جملة من آيات الكتاب العزيز هى [أم لكم كتاب فيه تدرسون](٣) [أم عندهم الغيب فهم يكتبون](٤) [لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون](٥) [ام يقولون افتراه؟ بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون](٦) [وماكنت بجانب الطور إذ نادينا، ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً، ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون (٧)].

---

(١) راجع مصادر الشعر الجاهلي الأسد ص ٣٥٥.
(٢) راجع مصادر الشعر الجاهلي الأسد ص ٣٥٦.
(٣) القلم ص ٣٧.
(٤) القلم ٤٧.
(٥) يس ٦.
(٦) المسجده ٣.
(٧) القصص ٤٦.

ويقول أنه لوثبت وجود شعر مدون قبل الإسلام لكان تكذيباً للقرآن الكريم لأن هذا الشعر وحي ولكنه غير مهذب ولا مشذب [قبحه الله] ونص العباره كما أوردها الأسد [وهي كتب في الحقيقه موحى بها] ومفهوم ترجمة كلامه في هذه النقطة أنه يريد الوصول إلى هدفين الأول: إنكار إعجاز وبلاغة القرآن الكريم. والثاني جعل القرآن الكريم مرحله من مراحل نمو الشعر وتطوره اي أنه يدعى أن القرآن من كلام محمد صلى الله عليه وسلم، وليس من كلام الله، وهذا نص كلامه كما ترجمه وأورده الأسد.

«ان الاساليب الأدبيه العربيه، سواء النثر المسجوع والشعر فيه مشابه من أسلوب القرآن. وفي القرآن آيات لاينكر أنها نثر مسجوع إلا الغلاة من المتشددين، وفيه أيضاً في مواطن متعدده أمثله على كثير من الأوزان الشعريه، والتطور من الأسلوب القرآني إلى الأسلوب المنتظم، يبدو متمشياً مع المألوف. وإذا كان القرآن أول أثر في اللغه يظهر فيه الفن الأدبي فإن مايدعيه لنفسه من الإعجاز في الفصاحة أمر من اليسير على الناس فهمه، وهو لايختلف بذلك كثيراً عما يدعيه لأنفسهم أولئك الذين أدخلوا لأول مره النظم في اللغه أو ينسبه إليهم الآخرون. أما إذا كان المستعمرون قد تعودوا سماع النثر المسجوع والشعر الكامل المصقول كما يبد لنا في أساليب الآثار الأدبية التي تدل في ظاهرها على أنها جاهلية، فإن من العسير إقامة الدليل على هذا الادعاء» (١).

وتفنيد مزاعم مرجليوث ودحض شبهه أمر لايحتاج إلى عناء غير أن بسط القول فيه يخرجنا عن دائرة الايجاز التي التزمناها وحسبنا أن نقول: إن بطلان مايذهب إليه واضح جداً.

أولا : فلو لم يكن هناك شعراء، وشعر قبل الإسلام، لما عنى بذكرهم الكتاب العزيز ولكنهم كانوا وشعرهم من الكثره بحيث خصهم بالذكر.

وثانياً : انه لو كان القرآن الكريم في لفظه وأسلوبه وتراكيبه وتعبيراته ودلالاته غير متميز بالاعجاز والبلاغه لما تحداهم في اكثر من موضع لقوله تبارك وتعالى وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهدائكم من دون الله إن كنتم صادقين» (٢) وقوله تعالى «أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من

(١) راجع مصادر الشعر الجاهلي للأسد، صفحات ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩.
(٢) البقرة ٢٣.

استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين»[1] وقوله تعالى «فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين» (٢) ولقد شهد عقلاؤهم ببلاغه القرآن وإعجازه ونفوا أن يكون سحرا أو شعرا أو مقالة مجنون كالذي ورد في قول الوليد بن المغيرة حين سمع القرآن فيما رواه ابن عباس رضي الله عنهما: [إن الوليد بن المغيره جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال اقرأ عليّ فقرأ عليه [إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى] فقال : أعد، فأعاد. فقال، والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلوا ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ماتحته، وما يقول هذا بشر.

وحين حل الموسم خافت قريش من اختلاف كلمتها في محمد صلى الله عليه وسلم فاجتمعوا لدى الوليد بن المغيره وطلبوا منه أن يقول في محمد صلى الله عليه وسلم قولاً فقال: «بل قولوا وأنا اسمع. قالوا: نقول كاهن. قال: ماهو بزمزة الكهان، ولاسجعهم، قالوا نقول: مجنون قال ماهو بمجنون. لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو.

قالوانقول : شاعر قال : ماهو بشاعر، لقد عرفنا الشعر، ورجزه وهزجه، وقريضه ومقبوضه ومبسوطه.

قالوا: نقول ساحر، قال ماهو بساحر، لقد رأينا السحرة وسحرهم، فماهو بعقدهم ولانفثهم، قالوا: فما نقول يا أباعبد شمس؟ قال: ماتقول من شيء من هذا إلاعرف أنه باطل وإن أقرب القول، أن تقولوا ساحر يفرق بين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه بذلك»[4] .

هـ ــ وفي آخر دلالته الخارجية يحاول أن يجرح الرواة وأن يجمع كل ماقيل من تكذيب لهم فذكر (حماد، وجناد وخلف الأحمر) وغيرهم وحاول أن يبطل روايتهم.

ثم لم يجد بدا من الاعتراف بأن هناك رواه ثقاة ولكنه امتداداً من الشك الذي يملأ نفسه.

(١) هود ١٣.
(٢) الطور ٣٤.

(٣) مختصر سيرة الرسول للشيخ للإمام محمد بن عبد الوهاب ص ٧٦.
(٤) مختصر سيرة الرسول للشيخ للإمام محمد بن عبد الوهاب ص ٧٧.

عاد ليتحدث عن أولئك الذين أخذ عنهم الرواة الثقاة ليخلص إلى إنكار أصالة الشعر الجاهلي ويحاول أن يثبت أنه منحول، يقول مرجليوث «إن هؤلاء العلماء لم يكن يوثق بعضهم بعضا، فابن الإعرابي كان يتهم الآخر» [١] و يقول أيضاً «وقد نقبل ان بعض العلماء كانوا يشكون بل كانوا ينقدون فلم يضعوا ولم يخلوا، وأدخلوا في بعض مجموعاتهم ماكانوا يعتقدون إنه حقيقه شعر قديم ولكن هذا يعود بنا إلى التساؤل عن مصادرهم فقد كانت رساله [محمد] حدثا عظيماً في بلاد العرب كانت انفصالاً عن الماضي يندر مثيله في التاريخ، فقد ترك الناس من جميع أنحاء شبه الجزيره مساكنهم ليستوطنوا في بلاد لم يكن إلا القليل منهم يسمع بها وقد واكبت الإسلام وتلته حروب أهليه في داخل شبه الجزيره ولم يكن الإسلام متسامحاً مع الوثنيه القديمه حتى ولا تسامح استصغار لشأنها بل كان يناصبها أشد العداء ولم يقبل أن يلتقي معها في مكان سوي، فإذا كان الشعراء هم لسان الوثنية الناطق، فمن هم أولئك الذين حفظوا في صدورهم ثم نقلوا إلى غيرهم تلك الأشعار التي تنتسب إلى نظام أبطله الإسلام.[٢]

وهذه شبهة ردها يسير، ذلك أن العرب الذين هذب الإسلام أخلاقهم وقومها كانوا يميزون حسن الشعر من قبيحه فيصطحبون الحسن و يرفضون القبيح.

ثم إن شعرهم كان ديوانهم كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فطبعي أن يحفظوه.

ولقد ثبت فيا صح من خبرأن المصطفى صلى الله عليه وسلم سمع الشعر واستنشده وقال إن [الشعر حكمة] فالعرب في صدر الإسلام لم ينقطع حاضرهم عن ماضيهم بل ظلوا مرتبطين بما لايناقد الدين مما ورثوا عن أسلافهم.

الأدله الداخلية .

أ ــ وفي أول أدلته الداخليه يحاول نفي الأصاله عن الشعر الجاهلي بأمرين :

---

(١) مصادر الشعر الجاهلي ص ٣٥٩.

(٢) مصادر الشعر الجاهلي ص ٣٥٩ ــ ٣٦٠.

الأول : تضمن هذا الشعر لألفاظ وردت في القرآن الكريم كالحياة الدنيا والقيامة والحساب وبعض صفات الله وأسمائه.

والثاني : عدم تصويره لديانات الجاهليين كالحديث عن الآلـهوتعددها وما إلى ذلك يقول مرجليوث إن الشعراء من جميع الأمم لايتركون الناس بعدهم يشكون في أمر ديانتهم والعرب في نقوشهم واضحون صريحون كذلك في هذا الموضوع. فإن أكثر النقوش تذكر إلها أو آلهة وأمور تتصل بعبادتها.. ولكن الاشارات إلى الدين في الأشعار التي بين أيدينا قليلة.. ولانجد من الشعر جو الآلهة المتعدده الذي نجده في النقوش[1] [وهذا موضوع لنا عوده إليه مع الدكتور طه حسين، ولكن لايفوتنا هنا أن نذكر أن العرب قد ذكروا الآلهة [الأصنام والأوثان في كثير من شعرهم وقد كون ذلك ابن الكلبي مادة كتاب مطبوع سماه [كتاب الأصنام].

ب ــ أما الثاني من الأدلة الداخليه فإنه يدور حول لهجات العرب في الشمال والجنوب وعن اجتماع العرب على لهجة واحدة قبيل نزول القرآن هى اللهجة التي نزل بها الكتاب العزيز ولكي لانكرر الحديث نرجى مناقشة هذا الأمر إلى حديثنا مع الدكتور طه حسين أيضاً.

جـ ــ وفي هذا الدليل الثالث يدور حديثه حول مقدمات القصائد وموضوعاتها ويحاول بتفكير ملتــو أن يجعلها إنما كانت كذلك لأن القرآن أشار إلى هذا فنسج الشعراء على نمط ما أشار إليه القرآن يقول (أن الشعراء في كل واديهيمون). وإذا كانوا يصفون أسفارهم وتحوالهم لأن القرآن يقول إنهم يتبعهم الغاوون وهذا يتضمن يقيناً أنهم أنفسهم ضالون غاوون، وإذا كانوا يذيعون وينشرون أعمالهم وغالباً ماتكون مخالفه للأخلاق لان القرآن يقول «إنهم يقولون مالا يفعلون»، فإننا نستطيع على الأقل أن نقتفي هذه الرتابه إلى مصدرها[2] وكان مرجليوث قد كتب في مجله الجمعيه الملكيه الأسيويه عام١٩١٦م ١٣٣٥هـ مقالاً في هذا الموضوع كما تحدث عنه أيضاً في كتابه «محمد» الصادر عام ١٩٠٥م/١٣٢٣هـ وكذا ماذكره في معلمة الدين والأخلاق من حديث عن محمد صلى الله

(١) مصادر الشعر الجاهلي ص ٣٦٠.
(٢) مصادر الشعر الجاهلي ص ٣٦٦.

عليه وسلم، فوقف في وجهه كثير من المستشرقين يردون باطله و يفندون مزاعمه وأبرزهم جيمس ليال زعيم المتتبعين للشعر الجاهلي المدافعين عن أصالته من المستشرقين.

فلقد كتب ليال عام ١٣٣٧هـ/١٩١٨م مقدمة لكتاب المفضليات تحدث فيه عن أصالة الشعر العربي ثم عاد إلى الموضوع في مقدمة ديوان عبيد بن الأبرص وقد بدأ دفاعه عن الشعر العربي بأن أورد الخبر المروى عن المفضل الضبي في تجريحه لحماد الراوية..

وقد سبق أن أوردناه في الحديث عن الرواة. وعقب على هذا بقوله [إن بين ناقل هذا الخبر ــ وهو أبو الفرج الأصفهاني وصاحب الحديث، وهو المفضل للضبي ــ ثلاثة رواة في سند الخبر. وهم : محمد بن خلف وكيع عن أحمد بن الحارث الخراز عن ابن الأعرابي، فربما زاد هؤلاء أو أحدهم على هذا الحديث شيئاً مما يز يده الرواة، غير أننا لو قبلنا أن هذا الحديث قد قاله المفضل حقاً وسلمنا بذلك، فلابد لنا من أن نذكر أن حمادا كان معاصرا للمفضل وانه ربما كان أصغر منه سناً، وأن المفضل كان من أعلم الناس بالشعر وأقدر هو على تمييز صحيحه من منحوله، وأن الرواة العرب ــ وهم الذين يزعم أن حمادا قد أفسد ما أخذ عنهم من الشعر ــ كانوا، من قبل أن يفسد حماد روايتهم، قادر ين على أن يفتحوا خزائن الشعر الذي يحفظونه و يردونه بين يدى المفضل.

ولو أننا سلمنا بصحة ماذكره هذا الخبر من أمر الوضع والنحل، فإن ذلك ينتهي إلى أن مازاده حماد كان يشبه لغة الشاعر الأصيل. فإذا كان ذلك كذلك فكيف أمكن ان يعرف أنها موضوعة منحولة، إذا لم يكن ثمة من يعرف القصيدة في صورتها الأولى من غيرما أضيف عليها من ز يادات موضوعه؟ ومن يكون ذلك العالم سوى المفضل نفسه[1] ؟ ثم ذكر خبر المفضل وحماد مع الخليفة المهدي الذي شهر فيه المهدى بحماد ووثق بالمفضل:

وقد سبق أن أوردناه في حديث الرواة وموقفهم من الوضع والوضاعين. بعد إيراده لهذا الخبر، قال: إن هذه القصه تتضمن أن المهدي كان آنئذ خليفة، وذلك لأن الرواة قالوا أنهم كانوا في دار أمير المؤمنين، ولأن قصره بعيساباذ بناه بعد أن ولى فيها المهدى، فقد ذكر ابن خلكان أن وفاة حماد كانت سنة ١٥٥هـ، وذكر ابن النديم في الفهرست أنها كانت في سنة ١٥٦هـ.

---

(١) المفضليات [ليال] جزء ٢، ص ١٦ وما بعدها من المقدمه

وفضلاً على ذلك فإن البيتين اللذين يقال أنهما أضيفا إلى قصيدة زهير ليس فيهما إلاوصف عادي، وفي المجموعات القديمه مئات من القصائد تبدأ بما يشبهها، والقيمة الوحيدة لذكر أسماء المواضع في هذين البيتن هي أنها يدلان على أن الشاعر ينتمي إلى الموطن الذي توجد فيه هذه المواضع، فإذن لم يكن عملا جليلاً أن يزاد على القصيدة لزهير، من الواضح أنها ناقصة في أولها ــ أبيات قليله وضعت مكان النسيب الناقص، ولاريب ان ذلك لايدل على مهارة خارقة في الوضع والنحل[1] ». ثم بعد ذلك أورد ليال هذا الخبر

«قدم حماد الراويه على بلال ابن أبي بردة البصرة، وعند بلال ذو الرمه، فأنشده حماد شعراً مدحه به، فقال بلال لذي الرمة: كيف ترى هذا الشعر؟ قال جيداً وليس له، قال فمن يقوله، قال: لا أدرى إلا أنه لم يقله، فلما قضى بلال حوائج حماد وأجازه قال له: أن لي إليك حاجة قال: هي مقضية، قال: أنت قلت ذلك الشعر؟ قال: لا، قال: فمن يقوله؟ قاله: بعض شعراء الجاهليه، وهو شعر قديم ومايرويه غيرى، قال: فمن أين علم ذو الرمة أنه ليس من قولك؟ قال : عرف كلام أهل الجاهليه من كلام أهل الإسلام[2] . [وبعد إيراده لهذا الخبر يقول] إن هذه القصص ذات الدلالات لتوضح لنا ــ سواء أكانت صحيحة أم موضوعة ــ أنه ليس ثمة مايحملنا على الظن أن الشعر الذي جمعه المفضل قد أفسده مايعزي إلى حماد من وضع الشعر ونحله.

وبعد أن يعرض ليال لسيرة خلف الاحمر، ولما ينسب إليه من أنه كان يقول الشعر وينحله الشعراء الجاهليين، يقول: وانه لمن الخطأ العظيم ان نعقد هذين الرجلين ــ حماداً وخلفا ــ النموذجين المثاليين للرواه المحترفين الذين كانوا يردون اشعار القبائل.

فقد كانا كلاهما من أصل فارسي. أما رواة القبائل فكانوا من العرب، يختارهم الشعراء ليكونوا الوسيله التي تحفظ شعرهم وتخلده في صدور القبيلة والأمة العربية بعامة. وكان من هولاء أن أخذ الرواة الجامعون في القرنين الأول والثاني الهجريين ماجمعوا من شعر. وأما أن نذهب، كما ذهب أحد العلماء المحدثين، إلى أن جميع مانسميه بالشعر العربي القديم موضوع منحول، مستدلين على ذلك بالقصص التي تروي عن حماد وخلف

---

(١) مقدمة المفضليات، ص ١٨ وما بعدها.

(٢) الأغاني، جزء ٦، ص ٨٨ طبعه دار الكتب المصريه.

وقد قدما نماذج منها فهو مذهب مخالف لجميع وجوه هذه القضيه واحتمالاتها. إن حمادا وخلفا كانا يحاكيان أسلوباً للنظم كان قد قرر واتخذ صورته النهائيه زمناً طويلاً قبل الإسلام، وكان قد نظر به شعراء كثيرون كانوا وثنيين، أو غير مسلمين في زمن محمد ثم أسلموا، وقد كثر استخدامه وسجل بالكتابه لعهد شعراء القرن الأول الهجري [مثل جرير والفرزدق والأخطل وذى الرمه، ولم أذكر الا الذين خلفوا لنا تراثاً من الشعر كبيراً] فسلسله الروايه والنقل لم تنقطع.

فقد كانت الطبقه الأخيرة من الشعراء على قيد الحياة ينظمون الشعر حينما كان العلماء يدأبون في جمع الشعر وتدوينه. ولايمكن أن تعترضنا، في دراستنا لهؤلاء الشعراء مشكلة الوضع والنحل لأن رواتهم قد دأبوا على كتابة القصائد التي تلقى عليهم لنشرها وتخليدها.

أما الشعر الجاهلي فربما حاكاه حماد وخلف، ولكن هذه الحقيقه نفسها، المحاكاة تدل على وجود أصل يحاكى. أما أن نذيع أن مابين أيدينا لايعدو أن يكون الصوره المحكية، وانه لم يبق شيء من الأصل نفسه فذلك أمر لايقره الفهم السليم على ضوء هذه الظروف (١) .

وقد أشار ليال في الهامش إلى أنه يعنى ببعض المحدثين مرجليوث وما كتبه مابين عام ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م ـ ١٣٣٥هـ/١٩١٦م. مما يذهب إليه ليال فيقول في نفس الهامش [ان الأستاذ مرجليوث يذهب مذهباً يدعو إلى الدهشه والعجب وهو قوله: أن الشعر القديم هو في معظمه موضوع منحول صيغ على نمط القرآن]. إن مذهب ليال في الشعر الجاهلي مذهب العالم المحقق المتجرد من الأهواء والنزعات المقبل على مابين يديه بروح العالم والأمانة العلمية ثم إن مذهبه هذا يدل على وعي كامل ومعرفة شامله لأحوال العرب وعاداتهم وتقاليدهم ومدى تأثير ذلك على ماخلفوه من تراث شعري لاتخفى أصالته إلا على ذي هوى وميل إلى الطعن والتجريح لابل إلى محاولة الطعن في الإسلام ومحاولة النيل من الكتاب العزيز، وهيهات هيهات.

وفي مقدمة ديوان عبيد بن الأبرص يخص ليال المعلقات بالذكر ويرى أن من الجهل

---

(١) مقدمة المفضليات ١٩، ٢٠، ٢١.

القول بأن هذا الشعر موضوع، يقول ليال: [غير أننا حين نفحص القصائد ذاتها نجد فيها من الشخصية الفردية، مايكفينا للاستدلال على أن القصائد في معظمها من نظم الشعراء المنسوب إليهم.

فالمعلقات السبع مثلا كلها قصائد ذات شخصية وخصائص واضحه، وتعرض لنا سبع شخصيات متميز بعضها من بعض كل التميز. ونجد الأمر نفسه في القصائد الثلاثة الباقيه «للأعشى والنابغه وعبيد» التي عدها بعض النقاد من المعلقات، فقد تركت شخصية امرىء القيس وزهير ولبيد والنابغة والأعشى طابعها على شعرهم، ومن جموح الخيال أن نظن أن معظم القصائد المنسوبة لهم مصنوعة في عصر متأخر، صنعها علماء عاشوا في ظروف مغايرة تمام المغايرة وفي حياة شديدة الاختلاف عن حياة الأعراب في الصحراء العربية.][1] .

ونحن وإن كنا على يقين من أصالة الشعر الجاهلي وأن هذه الأصالة في غنية لدى المحققين عن الدفاع إلا أنه يهمنا جداً أن يقف مستشرق منصف فاهم في وجه مستشرق متنكر لرفع العلم متعمد غمط الشعر العربي حقه لينفذ من ذلك إلى هدف تريده نفسه المريضه وتفكيره المنحرف ورأيه الضال.

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

٢ ــ نظرية الانتحال عند المحدثين العرب :

أ ــ مطفى صادق الرافعي :

يعتبر المرحوم مصطفى صادق الرافعي أول من تناول القضيه من المتأخرين العرب وذلك في كتابه «تاريخ آداب العرب» الذي نشره عام ١٣٢٩هـ/١٩١١م غير أن المرحوم الرافعي لم يتجاوز في عمله جمع ماتفرق في كتب المتقدمين من العرب كابن سلام وابن قتيبه ونحوهما ممن تناولوا هذا الموضوع أوما يتصل به كشواهد المفسرين والنحويين والمتكلمين وغيرهم وقد شغل في كتابه من ص ٢٧٧ إلى ص ٤٣٤ المجلد الأول وجعل

(١) مقدمة ديوان عبيد بن الأبرص، ص ١٧ ــ ١٩.

ذلك باباً منه وسماه [الرواية والرواة] حشد فيه كل مايتصل بالموضوع من قريب أو بعيد دون أن يتناوله بنقد أو درس أو تحليل غير أن هذا العمل وإن خلا من التجديد والابتكار إلا أنه عمل جليل يشكر له حيث جمع فيه ماتفرق في بطون الكتب فلم شتاته وقرب ما انتأى منه عن أيدى الباحثين، قال عنه الأسد: [ولكنه على هذا الجهد العظم الذي تكلفه، اكتفى في اكثر حديثه بالسرد المجرد والحكايه عمن مضى، ولم يتجاوز ذلك إلى البحث في هذه الأخبار والروايات بحثاً علمياً ولا إلى نقدها نقداً يميز زائفها من صحيحها إلا في القليل النادر، وحتى في هذا القليل النادر كان يتعجل المضي، فلا يكاد يقف عند خبر أو رواية حتى يدعها و ينتقل إلى غيرها.

ومع ذلك فللرافعي فضل السبق وفضل الاستقصاء في الجمع][1] وقال عنه شوقي ضيف [ونحن نحمد له استقصاءه كما نحمد له ماوقف عنده من شعر الشواهد للمذاهب الكلاميه، فقد لاحظ مادخل هذا الشعر من بعض الوضع، وهو وضع سجله القدماء أنفسهم ولم يفتهم التنبيه عليه][2] .

كان الرافعي رحمه الله يومىء إلى رأيه أحياناً وهى إيماءات ذات مغزى إن لم تتضمن نهجاً فهى تشير إليه فمن قوله وهو يمهد للحديث عن الرواة مايأتي :

[ولشد ماكانوا يتحوبون عفا الله عنهم فيما يهجن به بعضهم بعضا مما يسبق من الظنة إلى أحدهم و يتوجه من الشبهة عليه فلا يحبون أن يثبتوا من ذلك شيئاً، لأنه جهاد لايراد به وجه الله كما هو الشأن في الحديث، فكان الأمر بينهم مقصوراً على المناقضات والمنافسات، بيد أن كل طبقه منهم كانت تحكى عن سابقتها أشياء مما تناقلته، حتى انتهى جماع ذلك إلى مدونى كتب الطبقات، وإلى المتناظرين في تصنيف الكتب التي وضعوها للكلام في علماء المصرين وإلى المنصفين في اللغه من متأخرى الرواة الذين تعقبوا السابقين وتتبعوا ماتقل عنهم، كالأزهري صاحب التهذيب وغيره، فرأى كل اولئك أن القليل الذي تأدى اليهم لايعطى من حكم النقد المباح ماكان له في زمنه، فيعتبر من

---

(١) مصادر الشعر الجاهلي ص ٣٧٧.

(٢) العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ص ١٧٠.

الكلام المعفو عنه الذي بعثت عليه المعاصره كما أجراه أهله، فلا يبقى له شأن متى وضح الحق وظهر وجه الصواب وتمهدت به العلوم بل رأوا فيه ماده لما كانوا بسبيله، ورأوا أن التاريخ قد أحال تلك المناقضات بعد أن طوى أشخاصها ونفض عنها وهج الحفيظه ووهج الأنفاس، فحرصوا عليها ودونوها، ولولا ذلك لعفا هذا الموضوع من التاريخ][1]

ب ــ الدكتور طه حسين :

في عام ١٣٤٥هـ/١٩٢٦ أصدر الدكتور طه حسين كتابه في الشعر الجاهلي بسط فيه شكوك المستشرقين ومددها وأضاف إليها ماشاء له تفكيره وقد أثار صدور ذلكم الكتاب ضجة كبيرة في أوساط المحافظين نتج عنها تقديمه للمحاكمه.

وفي عام ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م أصدر كتابه الثاني في الأدب الجاهلي بعد أن حذف وحور ما حوكم من أجله وبسط القول في بعض أجزائه، وأضاف إليه ما أضاف. ومهما يكن من أمر فإن الموقف المتبذل الذي وقفه الدكتور من الشعر الجاهلي أثار ضده كثيراً من المفكرين العرب فكتب البحوث والمقالات وألفت الكتب في الرد عليه[2] وتفنيد ما أتى به من شبه وتضليل وتفسير معوج لأراء وأقوال الأقدمين وتحميلها أكثر ماتحتمل واعتبار الشواذ والأحكام الفرديه قواعد وأحكاماً عامة منها ينطلق وعليها يعوّل في تعميم أحكامه وبث شكوكه مستخدماً في ذلك مهارته في التعبير وقدرته الأسلوبيه في التحوير، يقول الأسد في ذلك «وجاء الدكتور طه حسين فلم يقنع كما قنع مرجليوث بأن يدلنا عليها في مقاله أو مقالتين، وإنما فصل لنا القول فيها في كتاب كامل قائم بذاته وساقها في أسلوبه الأخّاذ الذي يلف القارئين به لفا حتى يكاد أن ينسيه نفسه ويصرفه عن مناقشة رأيه. ومن آيات ذلك أننا حينما قرأنا تلخيصاً لرأي الدكتور ــ بعد أن جردناه من أسلوبه ــ أحسسنا فرق مابين الملخص والكتاب، وأدركنا أن هذا التلخيص يفقد الكتاب حقه، ويفقده كثيراً من أثره في النفس][3] .

---

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي، الجزء الأول ص ٤٠٠ ــ ٤٠١.

(٢) أ . من ذلك كتاب «نقد كتاب الشعر الجاهلي» للأستاذ محمد فريد وجدي.
ب . «الشهاب الراصد» للأستاذ محمد لطفي جمعه.
جـ . نقص كتاب في الشعر الجاهلي للسيد محمد الخضر حسين.
د . تحت راية القرآن لمصطفى صادق الرافعي.

(٣) مصادر الشعر الجاهلي ص ٣٨٠ ــ ٣٨١.

لقد ختم الدكتور طه حسين فكرة المستشرقين بكل حماس لم يعرف حتى عنهم أنفسهم بعد أن أضاف إليها ماجره إليه فكره المستورد وتفكيره الملتوي القائم على هدم كل ثابت، وإنكار ماأقره الثقاة من رواة الأدب العربي، مستخدماً في ذلك مقاييس يونانيه ورومانيه زاعماً أنها تنطبق على العرب، ونسى أو تناسى أن التاريخ ومافيه من حقائق يثبت الفرق بين حياة الأمة العربية وأمتي اليونان والرومان وأن ظروف الحياة لكل من الفريقين مختلفة اختلافاً واضحاً.

فأما الكتاب الأول فلم نره لاحتجابه منذ قدم الدكتور للمحاكمه عام ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م وفي قرار المحكمه الصادر عنها كثير مما تجنى فيه على الدين، فمن ذلك قوله في صفحه ٢٦ من كتابه في الشعر الجاهلي [للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم واسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً ولكن ورود هذين الأسمين في التوراة والقرآن لايكفي لإثبات وجودهما التاريخي فضلاً عن إثبات هذه القصه التي تحدثنا بهجرة اسماعيل بن إبراهيم إلى مكه ونشأة العرب المستعربه فيها ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعاً من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهه أخرى][1] .

وقد علق الأستاذ محمد الخضري على هذا منتقداً منهج الدكتور في البحث واستخلاص الحقائق كما يريدها الدكتور، يقول الخضري [ومن الغريب أن يبرهن على الجمله الأولى وهى وضع اليهود للحديث بقوله «فليس يبعد» وعلى الجمله الثانيه وهى قبول قريش له بقوله «فليس مايمنع» وعلى الجمله الثالثة، وهى استغلال الإسلام له، بقوله [فما الذي يمنع] ويبنى على هذه الكلمات الثلاثة قوله [أمر هذه القصه إذا واضح].. نعم قد اتضح بنفي البعد في الأولى وعدم المانع في الآخرين،..وعما علمنا بمنطق في العالم يكتفى في إقامة البرهان على عدم صحة خبر من الأخبار بأنه لايبعد ضده أو أنه لامانع من ضده، لو كان مضمون الخبر مما تستحيله العقول أو تستبعده، لكان للأستاذ وجه في شكه، لأن مخالفة الأخبار لقضايا العقول مما يقضى حتماً بردها أو تأويلها، أما مسألتنا فليست كذلك لافي ذاتها ولافي نسبتها إلى ابراهيم وولده إسماعيل (٢) .

---

(٢) قرار النيابه ص ٢.

(٣) محاضرات في بيان الأخطاء العلميه والتاريخيه التي اشتمل عليها كتاب في الشعر الجاهلي للأستاذ محمد الخضري ص ٨.

وفي موضوع آخر أورد قرار النيابه قول طه حسين [ونوع آخر من تأثير الدين في انتحال الشعر وإضافته إلى الجاهليين وهو مايتصل بتعظيم شأن النبي من ناحية أسرته ونسبه في قريش، فلأمر ما اقتنع الناس بأن النبي يجب أن يكون صفوة بني هاشم وأن يكون بنو هاشم صفوة بني عبد مناف وأن يكون بنو عبد مناف صفوة بني قصى وأن تكون قصى صفوة قريش وقريش صفوة مضر، ومضر صفوة عدنان وعدنان صفوة العرب والعرب صفوة الإنسانيه كلها] (١)

ونقول : إذا لم يستطع القرآن الكريم ولا التاريخ أن يكون قاعدة صلبة يبنى عليها الدكتور الحقيقة التي يريدها فمن أين هذه القاعدة المتينه التي يريدها، إن جميع أحكامه لايد عمها غير دليل واحد إن صح أن يسمى دليلاً، هو الشك. والأدله الظنيه التي تهدم ولا تبني وتفسد لاتصلح، وتعمل على محو الحقيقه لتقيم على انقاضها هياكل الشك والإنكار.

يقول الدكتور في إيضاح منهجه في البحث الذي أراد أن يكون فيه واضحاً ـــ حسب قوله ـــ لكي لايخطىء الناس في فهم مايقول أو يتأولونه على غير مايريد: أريـــد أن اصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه «ديكارت» للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث. والناس جميعاً يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هى أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعمله من قبل، وان يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوا تاماً، والناس جميعاً يعلمون أن هذا المنهج الذي سخط عليه أنصار القديم في الدين والفلسفه يوم ظهر، قد كان من أخصب المناهج وأقومها وأحسنها أثرا وأنه قد جدد العلم والفلسفه تجديداً وأنه قد غير مذاهب الأدباء في أدبهم والفنانين في فنونهم وأنه هو الطابع الذي يمتاز به هذا العصر الحديث(٢) .

[من المتحزبين لمنهج ديكارت من استخرج منه نتائج على هوى ذوقه، وبنى عليه مذاهب بعيده مثل مالبرنش وسبينوزا وفردلا، ومنهم من اقتصر على التمسك بأفكار ديكارت

---

(١) قرار النيابة ص٣

(٢) في الأدب الجاهلي لطه حسين ص ٦٧ الطبعه الأولى.

والاعتماد على نظامه ليحاموا عن الحقيقه الدينيه والأدبيه مثل أرنود و بوصو يه ودفنلون و بعضهم اتخذه عثرة في سبيل العقائد مثل بايل][1] .

والنظره الفلسفية إلى الأشياء وعرضها على العقل أمر عرفه العرب قبل ديكارت فابن خلدون والغزالي وأمثالهم عرفوا ذلك واستعملوه وإن كان ابن خلدون صرح بوجوب أن يقصر على التاريخ

وفي نقض الفقر السابقه من قول طه حسين يقول الخضر حسين [ولا يدع أن ينبت الشرق رجالا لايستقبلون المطالب العالميه الا بعقولهم فإن من يتلو القرآن ولو بغير تدبير يعرف أن من مقاصد الإسلام بعث العقول من مراقد الخمول وتحريرها من أسر التقليد، فتراه يدعو بالبرهان وبيان الحكمة غير مقتصر على الموعظة والمعجزات المشهورة و يطالب ذوى الآراء المبتدعه بالحجه و يذم كل من قلد في عقيدة ماله بها من سلطان، والآيات المتضافره في هذا المعنى قد نفخت في العقول روح التفكير وانطلقت بها تخوض كل علم وتبحث في كل واقعه. فالمذهب الذي يرى الباحث ان يستقبل موضوع بحثه خالى الذهن مما قيل فيه، لا يسخط عليه رجال الدين الذي كان بالعقل حفيا، ورفع العلم والحكمة مكانا عليها وإنما يزدرون الكاتب الذي يحسب أن تصور هذا المذهب يكفي وسيله إلى التهجم على كل علم فيمشي في غير سبيل، و يدلج بغير دليل، ثم يزعم بملء فمه انه أحاط بمالم يحط به أحد من قبله][2] .

أما الكتاب الثاني «في الأدب الجاهلي» الذي صدر بعد المحاكمه عام ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م فقد كونه من سبعة كتب خص قضايا الانتحال منه بأربعة هي ٢، ٣، ٤، ٥ وقد أفرغ فيها كل ماسولت له نفسه أن يقوله.

وسوف نعرض لذلك بحديث مجمل تحصل منه الفائدة إن شاء الله.

---

(١) نقض كتاب في الشعر الجاهلي لمحمد خضر حسين، ص ٢٥.

(٢) نقض كتاب في الشعر الجاهلي لمحمد خضر حسين، ص ٢٧، ٢٨.

الكتاب الثاني :

في هذا الكتاب تحدث عن الأسباب التي دفعته إلى الشك في الشعر الجاهلي ثم أملت عليه ذلك الموقف الجاحد لأثار الجاهليين المتجني عليهم وعلى أولئك الذين دفع بهم شكه إلى أن يكونوا متهمين بالوضع والانتحال وقدم بين يدي حديثه عن تلك الأسباب قوله «وأول شيء أفجؤك به في الحديث هو أنني شككت في قيمة الأدب الجاهلي وألححت في الشك أو قل ألح عليّ الشك، فأخذت أبحث وافكر وأقرأ وأتدبر، حتى انتهى بي هذا كله إلى شيء إلا يكن يقيناً فهو قريب من اليقين. ذلك أن الكثرة المطلقه مما نسميه أدباً جاهلياً ليس من الجاهليه في شيء. وإنما هى منتحله بعد ظهور الإسلام فهى إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهوائهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين وأكاد أشك في أن مابقى من الأدب الجاهلي الصحيح قليل جداً لايمثل شيئاً ولايدل على شيء ولاينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبيه الصحيحة لهذا العصر الجاهلي[1] ».

وإذن فإن أيدينا صفر من كل مانعتقده شعراً جاهلياً لأنه جميعه موضوع منحول إلابقيه ضئيله منه لا أهميه لها إطلاقاً لأنها لاتعطي أي صورة ولو هزيلة عن ذلك العصر.

والأغرب من هذا أنه يدعى إن ذلك الشعر إنما يمثل حياة الإسلاميين لا الجاهليين ومن قبله قال هذا القول مرجليوث[2] (ثم يطلب منا أن نقبل قوله ونسلك منهجه متجردين من كل مايربطنا بالدين واللغه والدم والتاريخ بل من كل مامن شأنه أن يبقى لنا أن نحن تجردنا من ذلك وأي قيمه لفكرنا مالم يكن مسخراً لهذا الذي يريد منا أن نتجرد منه. ولأمر مانسى الدكتور أو تناسى أن الإسلام لايحجر على الفكر ولا يقيد حرية الرأي بل يدعو إلى التدبر والتفكر والتأمل والنظر ويمدح ذلك ويذم ضده ويدعو إلى النظر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء).

بعد هذا أخذ في إيضاح الأسباب التي تدفع إلى الشك في الشعر الجاهلي وتقضي برفضه وهى عنده ثلاثه :

---

(١) في الأدب الجاهلي لطه حسين الطبعه الأولى ص ٦٨.

(٢) ارجع إلى ماسبق من حديث عنه.

(١) أنه لايمثل حياة عرب الجاهلية ولايدل عليها.

(٢) أنه لايمثل اللغة الجاهلية التي اختلفت فيها اللغة الجنوبية عن اللغة الشمالية.

(٣) أنه يمثل اختلاف لهجات أهل الشمال.

وهذه الأسباب يجمعها أمر واحد هو أن هذا الشعر لايمثل حياة عرب الجاهلية وإنما الذي يمثلها حقاً هو القرآن الكريم.

و يقول إن الذي أوصله إلى ذلك هو المنهج العلمي الحديث الذي اتخذه في دراسته لذلك التراث وهو نفس مناهج ديكارت و يعيب على الأقدمين منهجهم السلبي في الدراسة يقول الدكتور [ولو أن القدماء استطاعوا ان يفرقوا بين عقولهم وقلوبهم وأن يتناولوا العلم على نحو ماتناوله المحدثون لايتأثرون في ذلك بقوميه ولا عصبيه ولامايتصل بهذا كله من الأهواء، لتركوا لنا أدبا غير الأدب الذي نجده بين أيدينا، ولاراحونا من هذا العناء الذي نتكلفه الآن][1] .

وهذا يعني أن أسلافنا العلماء رحمهم الله كانوا ينطلقون في تفكيرهم وأحكامهم من منطلق عاطفي.

سبحان الله، فكر قامت عليه حضارة العالم المعاصر في كل منحاً عملي أو عقلي ومازال العالم يجله و يستمد كنوزه إلى يومنا هذا، يقول عنه الأستاذ الدكتور طه حسين إن منطلقه العاطفه.!

أين ابن سلام وابن قتيبه والكندى والفارابي وابن سينا والتوحيدى وابن رشدو ابن خلدون وغيرهم من رجال الأدب واللغه والفلسفه والعلوم والاجتماع.

أسباب الشك في الشعر الجاهلي

(١) وأول هذه الأسباب عنده أن الشعر لايمثل حياة العرب الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية وأن الذي يمثلها في رأيه هو القرآن، وهو في ذلك يعقد مقارنة بين القرآن الكريم والشعر فيقول.

---

(٣) في الأدب الجاهلى، طه حسين ص ٦٨.

فأما هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين فيظهر لنا حياة غامضه جافه بريئه أو كالبريئه من الشعور الديني القوى والعاطفه الدينية المتسلطة على النفس والمسيطرة على الحياة العلمية، وإلا فاين نجد شيئاً من هذا في شعر امرىء القيس أو طرفة أو عنترة أو ليس عجيباً أن يعجز الشعر الجاهلي كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين.

وأما القرآن فيمثل لنا شيئاً آخر، يمثل لنا حياة دينية قوية تدعو أهلها إلى أن يجادلوا عنها ماوسعهم الجدال. فإذا رأوا أنه قد أصبح قليل الغناء لجأوا إلى الكيد، ثم إلى الاضطهاد، ثم إلى اعلان الحرب التي لاتبقى ولا تذر. (١)

أ ـ فأما الدين فالشعر عنده لايمثل ديانات الجاهليين ولايتحدث عنها ولايجادل في ذلك، ويقول أن هذا خلاف ماورد في القرآن الكريم، وقياس الشعر على القرآن الكريم قياس باطل أصلاً اذ أن القرآن كلام الله [لايأيته الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من حكيم حميد] (٢).

ثم أنه كتاب دين يهدف إلى جمع الناس على معبود واحد وديانة واحدة، فذكره للديانات كاليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئة والوثنية ومجادلة أربابها والتشنيع بهم في معارضتهم وعدم اتباعهم لما يدعوا إليه من حق ورشاد أمر لابد منه، يدعو إليه جمع الكلمة وتتطلبه محاربة الشر والفساد. أما الشعر فكلام بشر يأتي فيه الحق والباطل ، ثم إنهم لايدعون فيه إلى دين وإنما ينظمون في أغراض تتصل بحياتهم البدوية التي تختلف اختلافاً كبيراً عن الحياة التي يدعو إليها الإسلام، ثم ان موقف القرآن الكريم والسنة المطهرة من الشعر جعل المسلمين ينصرفون عن رواية للشعر الا القليل ومن الطبيعي والحال هذه ان يهملوا منه ماكان مشتملاً على ديانات الجاهليين، زد على ذلك انه لم يكن لتلكم الديانات من سلطان على نفوس الشعراء فتجافوا عن الإكثار من ذكرها في أشعارهم على أن كتاب الأصنام لابن الكلبي قد حوى مافيه الكفاية لدحض هذه الشبهة ومن قولهم في ذلك :

إني حلفت يمين صدق برة   بمناة عند محل آل الخزرج

(١) في الأدب الجاهلي، طه حسين ص ٧٣.
(٢) فصلت «السجده» آيه ٤٢.

وقول الآخر :

وبـالـلات والـعـزى ومـن دان دينهـا　　وبـالله إن الله منهـن أكبر[1]

وفي الأقيصر، وهو صنم على مشارف الشام يقول زهير بن أبي سلمى :

حـلـفـت بـأنـصـاب الأقيصر جاهـدا　　ومامسحت فيـه المقاديم والفصل[2]

وفيه يقول ربيع بن ضبع الفزاري :

واثـنـي والـذي نـغـم الأنـام لـه　　حـول الأقـيصر تـسـبيـح وتهـليـل[3]

وفي أساف يقول بشر بن أبي خازم الأسدي :

عـلـيـه الـطير مـايـدنـون مـنـه　　مـقـامـات الـعـوارك مـن اساف[4]

(ب) ثم تحدث عن الحياة العقلية لعرب الجاهلية مدعياً ان مانسب لهم من شعر لا يمثلها، فأي حياة عقلية يريدها عند بدو رحل. كل نصيبهم من ذلك أمور محدودة تتصل بعاداتهم وتجاربهم في باديتهم، أيريد من هؤلاء أن يأتوه بمثل مانأبى به الأمم المتحضرة التي نالت من العلم والمعرفة والرقي الفكري حظاً ونصيباً؟

لقد ذكر العرب في أشعارهم كثيراً مما يدل على الحياة العقلية عندهم وهى حياة أقرب إلى الفطرة وألصق بروح البداوة، يقول طرفة بن العبد في وصف السفن وحاجتهم إلى ركوب البحار، ويذكر فيها المفائلة بشق كومة التراب باليد بعد أن يدفن فيها عود أو نحوه وينظر في أي جهة يكون بعد شق التراب باليد.

كـأن حـدوج المـالـكـيـة غـدوة　　خـلايـا سـفين بـالـنـواصـف من دد

عـدولـيـة أو مـن سـفين ابـن يـامـن　　يجـور بهـا المـلاح طـورا ويهـتـدى

(١) كتاب الأصنام لابن الكلبي ص ١٧.
(٢) الأصنام لابن الكلبي ص ٣٨.
(٣) الأصنام لابن الكلبي ص ٣٩.
(٤) الأصنام لابن الكلبي ص ٢٩.

يشق باب الماء حيزومها بها   كما قسم التراب المفايل باليد

ويقول لبيد في الدلالة على معرفتهم بالكتابة :

عفت الديار محلها فمقامها   بمنى تأبد غولها فرجامها

فدافع الريان عرّى رسمها   خلقا كما ضمن الوحى سلامها

وجلا السيول عن الطلول كأنها   زبر تجد متونها أقلامها

وقال عروة بن حزام في الإشارة إلى معرفتهم العرافة وأهميتها عند العرب:

جعلت لعراف اليمامة حكمة   وعراف نجد إن هما شفياني

ومن الإشارة إلى براعتهم في الأنساب قول الشاعر :

فحكم دغفلا وارحل إليه   ولا تدع المطي من الكلال

وقول النابغه الذبياني وفيه إشارة إلى عادتهم في كي السليم كى لاتنتقل إليه العدوى بداء العر :

لكلفني ذنب امرىء وتركته   كذى العر يكون غيره وهو راتع

(جـ) ثم يتحدث طه حسين عن عدم تمثيل شعرهم للحياة السياسية ويعود من جديد إلى المقارنة بين القرآن الكريم والشعر محتجاً بأن القرآن الكريم قد ذكر الروم في السورة التي سميت بهم، وظاهر جداً أن صلة العرب بغيرهم كانت محدودة، صحيح أن قريشاً كانت لها صلات تجارية مع غير العرب كما كانت الصلات قوية بين المناذرة والفرس والغساسنة والروم ولذلك تحدث شعراء هؤلاء عن الفرس والروم وخصوصاً عندما نشبت بعض الحروب بين بعض القبائل العربية وجيرانهم من غير العرب كالحرب التي وقعت بين بكر والفرس والتي يقول فيها الأعشى من قصيدة له في ذلك اليوم:

وجند كسرى غداة الحنو صبحهم   منا غطاريف ترجوا الموت وانصرفوا

لقوا ململة شهباء يقدمها   للموت لاعاجز فيها ولا خرف

ومنها :

لمــا رأونــا كــشــفــنــا عــن جماجمــنــا ... لــيــعــلــمــوا أنــنــا بــكــر فــيــنــصرفــوا

قــالــوا الــبــقــيــة، الهــندى يحصدهم ... ولابــقــيــة الا الــســيــف فــانــكــشــفــوا

لــوأن كــل مــعــد كــان شــاركــنــا ... في يوم ذى قــار ما أخــطــاهــم الــشرف

لمــا أتــونــا كــأن الــلــيــل يــقــدمــهــم ... مــطــبــق الأرض تــغــشــاهــا بهــم سدف

بــطــارق وبــنــو مــلــك مــرازبــة ... مــن الأعــاجــم فــي آذانهــا الــنــطــف

ومنها أيضاً :

لمــا أمــالــوا إلــى الــنــشــاب أيــديهــم ... مــلــنــا بــبــيــض فظل الهام يــقــتــطــف

وخــيــل بــكــر فــا تــنــفــك تــطــحــنــهــم ... حتى تــولــوا وكــاد الــيــوم يــنــتــصــف[1]

والشعر في هذا اليوم وفي غيره كثير لايتسع المجال هنا لذكره، ومن ذلك على سبيل المثال قول الأعشى يخاطب كسرى عندما طلب رهائن، وهى قصيدة طويلة نجتزىء منها هذه الأبيات الثلاثه:

مــن مــبــلــغ كــســرى، إذا مــاجــاءه ... عــنــي مآلــك مخــمــشــات شــردا

آلــيــت لا نــعــطــيــه مــن أبــنــائــنــا ... رهــنــا فــيــفــســدهــم كــمــن قد أفــســدا

حتى يــفــيــدك مــن بــنــيــه رهــيــنــة ... نــعــش، ويــرهــنــك الــســمــاك الــفــرقــدا

(د) ثم يتحدث طه حسين عن عدم تمثيل الشعر للحياة الاقتصادية في الجاهلية فيقول إن الأدب الجاهلي لا يصور لنا الحياة الاقتصادية عندهم وإنما يصور العرب أجواداً كراماً يهينون المال ويزدرونه في سبيل الفضيله ولايعرض للبخل والبخلاء ولا للربا، بينما نجد القرآن الكريم يتحدث عن ذلك كله.

---

(١) أيام العرب في الجاهليه، ص ٣٤ ـ ٣٥.

ولست أدري كيف نسي طه أو تناسى أن العرب حين تحدثوا عن الكرم قرنوا ذلك بالحديث عن البخل فهم في مدحهم الكريم يذمون البخيل وأشعارهم في ذلك صريحة. يقول عروة بن الورد.

إذا المرء لم يطلب معاشا لنفسه … شكا الفقر أولام الصديق فأكثرا
وصار على الأدنين كلاّ وأوشكت … صلات ذوى القربى له أن تنكرا
وماطالب الحاجات من كل وجهة … من الناس الإمن أجد وشهرا
فسر في بلاد الله والتمس الغنى … تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا

و يقول الشنفرى وهى قصيدته المشهورة بلامية العرب :

وأستف ترب الأرض كي لايرى له … عليّ من الطول امرؤ متطول
ولولا اجتناب الذام لم يبق مشرب … يعاش به الإ لديّ ومأكل
ولكن نفسا مرة لاتقيم بي … على الضيم إلا ريثما أتحول
وأطوى على الخمص الحواى كما انطوت … خيوط ماري به تغار وتفتل
وأغدو على القوت الزهيد كما غدا … أزل تهاداه التنائف أطحل

ولحاتم الطائي وغيره من الشعراء الصعاليك في ذلك أشعار كثيرة.

(٢) وفي الحديث عن عدم تمثيل الشعر الجاهلي للغة يذكر أنها لم تظهر آثار للغة الحميرية فيه، رغم أنه نسب إليها كثير من الشعر كما يتناول بحديثه في هذا شعراء من الشمال ولكنهم ينسبون إلى أصل يمني كشعراء كنده والأزد وغيرهم

فأما أن اللغة الحميرية لم تظهر لها آثار في الشعر الجاهلي رغم تميزها عن لغة الشمال حسب ماورد في النقوش والآثار وفي أحاديث المستشرقين وحسب مافسر به البعض كلام أبى عمر وبن العلاء «مالسان حير وأقاصي اليمن بلساننا وما عربيتهم

بعربيتنا[1] فإنه من الواضح فساد ماقاله الدكتور طه حسين وأمثاله في ذلك وهذا الفساد من وجوه.

أ ــ إن اللغة الحميرية قد اضمحلت وانطوت قبل الإسلام ولم يبق منها سوى آثار لهجية، والدليل على صحة هذا القول أنها لو بقيت إلى أيام الإسلام لما مات أثرها على هذا النحو، فلابد إذن أن تكون بوسيلة أو أخرى انطوت في لغة الشمال أو اضمحلت أمام المد الأدبي الذي كان للغة الشمال.

ب ــ ثم أن النقوش التي وجدت إنما كان يكتبها في الغالب رعاة وأشباهم ممن يضعف نفوذ لغة الأدب في لسانهم الذي تسيطر عليه اللهجة المحلية، وأوضح دليل على ذلك أنه لم يوجد في تلك النصوص نص أدبي واحد وإذا كنا ونحن في عصر انتشار التعليم ووسائل التثقيف من كتب وصحف ومذياع وتلفزيون ومسرح وغيرها وسهولة في المواصلات نحس الفرق الواضح بين اللهجات الإقليميه في العالم العربي بل في جزيرة العرب نفسها فما بالك بعصر يعيش فيه الرجل حياته لايسمع سوى لسان ابيئته وإقليمه.

جـ ــ وأما قول أبي عمرو بن العلاء الآنف الذكر فإن العرب كانت تقول عن اللهجة لغة فيقولون لغة تميم ولغة ربيعة وهكذا، وهم يعنون لهجة وهذا كثير في كتب اللغة والنحو وهو استعمال شائع عند الأقدمين، حتى أنهم كانوا يصغرون حين تكون اللهجه ضعيفه فيقولون لغيه.

د ــ ومن الأدلة على أن هذا الأمر لم يقصد به سوى التضليل والابهام دون الاعتماد على الحقائق العلمية الثابته أن الدكتور يتحدث عن امرئ القيس والطائي وغيرهما من الشعراء الشمالين المنتمين إلى أصل يمني، يتحدث عنهم على أنهم يمنيون فأي منطق ينمي لغة من نشأ وعاش في الشمال إلى الجنوب؟ صحيح أن قبائلهم هاجرت من الجنوب ولكن هل يعقل أن تعيش بلهجتها في بيئة تكتنفها فيها لهجات أخرى دون أن تتأثر بها ثم تذوب فيها.

(٣) وتحدث عن عدم ظهور لهجات للشمال في الشعر الجاهلي واتخذ من ذلك دليلاً

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ١١.

على عدم أصالة هذا الشعر وأنه منحول شأنه في ذلك مانسب لليمنيين كله موضوع ومكذوب لاسبب يربطه ولانسب ينميه إلى الأصاله.

وحقيقة الأمر أن العرب فيما قبل الإسلام قد التقوا على لهجة قريش لغة أدب وشعر، بها يخطبون وينظمون فالتعليل بعدم ظهور لهجاتهم في شعرهم أمر لامكان له هنا.

(٤) ومن الأسباب التي دعت الدكتور طه إلى الشك في الشعر الجاهلي كثرة ماورد من الشواهد الشعرية المنسوبة للجاهليين في مختلف العلوم والفنون وهذا قول مبالغ فيه جداً، نحن لاننكر أن الشواهد وجد فيها ماهو موضوع منحول غير أن ذلك لايعني أن كل شاهد انطبقت عليه القاعدة العلمية حتى كأنما قدّ لها قدا، كما يقول الدكتور لايعني أن ذلك الشاهد مكذوب منحول، ألم ينزل القرآن الكريم بلغة العرب الذين قالوا هذا الشعر وألم يتكلم المصطفى بلسانهم؟! ماوجه العجب من انطباق البيت على القاعدة إنّ المعيار في ذلك ليس هذا، ولكنها نزعة الهدم ومحاولة سلب الشعر العربي أصالته.

٢ ـ الكتاب الثالث :

وفي هذا الكتاب يتحدث الدكتور طه عن أسباب الانتحال في الشعر فيردها إلى أسباب خمسة، هى السياسة والدين والقصص والشعوبية والرواة، ولكنه يقدم بين يدي هذه الأسباب حديثاً يحاول فيه أن يقيس الأمة العربية في حياتها وتاريخها بأمتي اليونان والرومان، مدعياً ان مظاهر الحياة والتكون في الأدب والتاريخ ومظاهر الارتقاء ثم المد السياسي والفكري ثم ماوصلت إليه هذه الأمم الثلاث من نتائج في كافة مجالات حياتها متشابهة ومتقاربة جداً ان لم يكن متحداً وهو في ذلك يحاول أن يثبت عدم أصالة الشعر الجاهلي قياساً على الأدب اليوناني القديم ثم يعود إلى الحديث عن منهج «ديكارت» ووجوب أخذنا به زاعماً ان مآلنا إلى التأثر به رضينا أو كرهنا لأن الغرب قد تأثروا به بل لابد أن نتأثر بطريقة الغربين وأن مآلنا في مستقبلنا أن نكون غربيين(١) .

يقول الدكتور طه :«وسواء رضينا أو كرهنا فلابد من أن نتأثر بهذا المنهج في بحثنا العلمي والأدبي كما تأثر من قبلنا به أهل الغرب. ولابد من أن نصطنعه في نقد آدابنا وتاريخنا كما اصطنعه أهل الغرب في نقد آدابهم وتاريخهم، ذلك لأن عقليتنا نفسها قد

(١) راجع من صفحه ١١٧ إلى ١٢١ ومنها النص الوارد هنا من كتاب في الأدب الجاهلي.

أخذت منذ عشرات من السنين تتغير وتصبح غربية، أو أقرب إلى الغربية منها إلى الشرقية، وهى كلما مضى عليها الزمن جدت في التغيرات وأسرعت في الاتصال بأهل الغرب. وإذا كان في مصر الآن قوم ينصرون القديم، وآخرون ينصرون الجديد، فليس ذلك إلالأن في مصر قوماً قد اصطبغت عقليتهم بهذه الصبغة الغربية، وآخرين لم يظفروا منها بحظ أولم يظفروا منها إلا بحظ قليل .

وانتشار العلم الغربي في مصر وازدياد انتشاره من يوم إلى يوم، واتجاه الجهود الفرديه والجماعية إلى نشر هذا العلم الغربي كل ذلك سيقضي غداً أوبعد غد بأن يصبح عقلنا غربياً، وبأن ندرس آداب الغرب وتاريخهم متأثرين بمنهج «ديكارت»، كما فعل أهل الغرب في درس آدابهم وآداب اليونان والرومان» (١) .

ثم أخذ فى بسط الحديث عن أسباب الانتحال على نحو مما سنجمله هنا:

أ ـ السياسة وانتحال الشعر : ولم يتحدث الدكتور عن السياسة حسب مصطلحات العصر بل عنى بذلك العصبية القبلية وحاول أن يمهد لما يقصد إليه بإبراز الخلاف الذي كان بين قريش والأنصار قبل الفتح ثم أخذ في تهويل ما كان بين الصحابة رضوان الله عليهم من المهاجرين والأنصار، ويتطاول فينكر أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام قد ترك للأمه الإسلامية دستوراً تسير على نهجه فأين القرآن الكريم والسنه إذن؟ يقول «ولكنه توفى بعد الفتح بقليل ولم يضع قاعدة للخلافة ولادستوراً لهذه الأمة التي جمعها» (٢) .

وفي حق عمر رضى الله عنه يقول متهماً إياه بالتعصب لقريش. «وكان عمر قرشياً تكره عصبيته أن تزدري قرشياً، وتنكر ما أصابها من هزيمه، وما أشيع عنها من منكر» (٣) .

وموقف الصحابه رضوان الله عنهم من أعداء الإسلام معروف حتى ولو كانوا آبائهم أو إخوانهم أو عشيرتهم وكتب السير والأخبار تشهد بأنهم كانوا لايحبون إلافي الله ولايبغضون

(١) في الأدب الجاهلي لطه حسين، ص ١١٩، ١٢٠.
(٢) في الأدب الجاهلي لطه حسين، ص ١٢٦.
(٣) في الأدب الجاهلي لطه حسين، ص ١٢٧.

إلا في الله لذا كان هو أهم تبعاً لما جاء به المصطفى صلى الله عليه وسلم فقوله عن عمر وسائر الصحابه رضوان الله عنهم قول ظاهر البطلان.

ثم يخلص الدكتور طه بعد ذلك إلى مايريد فيضرب الأمثله للعصبيات وماعسى أن تكون نحلته من شعر فيسوق أولا على ذلك قصيدة حسان بن ثابت في مدح الزبير بن العوام وأسفه على ضياع أنصاف الأنصار وموالاة النبي فيهم، فقد حدث الرواة أن الزبير مر بنفر من المسلمين فإذا فيهم حسان ينشدهم، وهم غير حافلين بما يقول، فلامهم على ذلك، وذكرهم موقع شعره من النبي وأثر ذلك في نفس حسان فقال يمدحه:

أقام على عهد النبي وهديه ... حواريه والقول بالفعل يعدل

أقام على منهاجه وطريقه ... يوالى الحق والحق أعدل

هو الفارس المشهور والبطل الذي ... يصول إذا ماكان يوم محجل

إلى آخر القصيدة..

وقد روى هذه القصة نفر من آل الزبير ومن أحفاد عبد الله بن الزبير أفتستبعد أن تكون عصبية الزبيريين قد مدت هذه الأبيات وطولتها وتجاوزت بها ماكان قد أراد حسان من الاعتراف بالجميل إلى ماكانت تريد العصبيه الزبيريه من تفضيل الزبير على منافسيه، أو على منافس ابنه عبد الله، كذلك يرى في قصيدة النعمان بن بشير التي أنشدها وهو مغضب بين يدي معاويه حين قال الأخطل في هجاء الأنصار:

ذهبت قريش بالمكارم والندى ... واللؤم تحت عمائم الأنصار

فدخل النعمان على معاوية وأنشده القصيدة :

معاوي إلا تعطنا الحق نعترف ... لحى الأزد مشدودا عليها العمائم

أيشتمنا عبد الأراقم ضلة ... وماذا الذي تجدي عليكم الأراقم

فمالي ثأر دون قطع لسانه ... فدونك من ترضيه عنك الدراهم

إلى أن يقول :

وإنـــي لأغـضـي عـن أمـور كـثـيـرة ستـرقـى بهـا يـومـاً إلـيـك الـسـلالم
أصــانــع فيهــا عـبـد شـمـس وإنني لـتـلـك التي فـي الـنـفـس مني أكاتم
فـمـا أنـت والأمـر الـذي لـسـت أهلـه ولـكـن ولـي الحـق والأمر هـاشـم
إليهـم يـصير الأمـر بـعـد شـتـاتـه فـمـن لـك بـالأمـر الـذي هـو لازم
بهـم شـرع الله الهـدى فـاهـتـدى بهم ومنهـم لـه هـاد إمـام وخـاتم

فظاهر جدا أن الأبيات الثلا ثه الأخيرة على أقل تقدير قد حملت على النعمان بن بشير حملا، ثم يخلص من ذلك إلى أن العصبية قد دفعت كل قبيلة إلى أن تعود إلى جاهليتها تعتز بقديمها وتنشر مفاخره وتردد من أمجاده. وكانت في حاجة إلى الشعر، تقدمة وقوداً لهذه العصبية المضطرمة فاستكثرت من الشعر، وقاله منه القصائد الطوال، ونحلتها شعراءها القدماء. (١)

وهذه قضية فرغ منها مذتناولها ابن سلام في طبقات فحول الشعراء ــ كما أسلفنا ــ وما دامت حجج الدكتور تتمثل في [ما الذي يمنع] و [من الجائز ولا يبعد]فإنا نقول لايبعد أن يقول النعمان بن بشير في حين غضب ذلك القول في مجلس معاو يه وهذا موقف له نظائر في سير الصحابه والتابعين ومن بعدهم.

(ب) الدين وانتحال الشعر: وهو في هذا يزعم أن الدين لم يكن أقل تأثيراً من السياسة في انتحال الشعر بل و يزعم أن هذا الانتحال وجد أيام الخلفاء الراشدين وأنه لو كان لديه سعة في الوقت لأمتع القارىء بما يكشفه في هذا المجال، فالدين قد حمل القصاصين على اختراع الأشعار ونسبتها إلى السابقين كعاد وثمود بل ونظموا على لسان آدم ونوح وغيرهما تزيداً منهم في الروايه وإشباعاً لفضول الناس الذين كانوا يصغون كثيراً لما كان يرو يه هؤلاء القصاصون، ومن ذلك أيضاً مانظم إرهاصاً لبعثة محمد عليه الصلاة والسلام.

---

(١) راجع في الأدب الجاهلي من ص ١٢٢ إلى ص ١٤٠.

وهذه أيضاً أمور كفانا وكفى الدكتور الحديث عنها ابن سلام في طبقات فحول الشعراء فلم يبق محل لهذه الشكوك المشاعة أثناء بحوث هذا الكتاب.

(جـ) القصص وانتحال الشعر : وقد تكلم عن القصص في أكثر من موضوع في كتابه ولكنه عاد هنا ليبسط القول فيه أكثر ثم عاد للمقارنة بين الأدب العربي واليوناني بمثل قوله.

«وليس من شك عندنا في أن هؤلاء القصاصين من المسلمين قد تركوا آثاراً قصصيه لا تقل جمالاً وروعة وحسن موقع في النفس عن [الإلياذة] و [الأودسا] وكل مابين القصص الإسلامي واليوناني من الفرق هو أن الأول لم يكن شعرا كله وإنما كان نثراً يزينه الشعر من حين إلى حين بينما كان الثاني كله شعراً، وإن الأول لم يكن يلقيه صاحبه على أنغام الأدوات الموسيقيه بينما كان القصاص اليوناني يعتمد على الأداة الموسيقيه اعتماداً ما، وأن الأول لم يجد من عناية المسلمين مثلما وجد الثاني من عناية اليونان»[١] .

وتحدث عن نشأة القصص في أيام بني أمية وأيام العباسيين وإقبال الناس عليها وعلى روايتها الذين كثرت روايتهم لها في المساجد والمجالس والأسواق حيث يقبل الناس على سماع السير والأخبار وفطن الخلفاء لما لهذه القصص من أثر فأقبلوا إليها وشجعوا عليها، وطلبوا الرواة والقصاصين في قصورهم ونادموهم مصغين إلى مايروون، كما حرص الرواة على تحلية رواياتهم بالقصائد والأبيات تزييداً في الرواية واشباعاً لفضول السامعين ومما استشهد به في ذلك قول العنبر بن تميم:

قد رابني من دلوى اضطرابها والنأي في بهراء واغترابها

إلا تجيء ملأى يجيء قرابها[٢]

(١) في الأدب الجاهلي ص ١٥٩.
(٢) في الأدب الجاهلي ص ١٦٧.

وقول دويد بن زيد بن نهد حين حضره الموت :

اليوم يبنى لدويد بيته ... لوكان للدهر بلى أبليته
أوكان قرني واحداً كفيته ... يارب نهب صالح حويته
ورب غيل حسن لويته ... ومعصم مخضب ثنيته[1]

على أن ذلك لم يفت ابن سلام فقد نبه عليه في الطبقات.[2]

د ــ ويتحدث عن الشعوبيه وأثرها في الانتحال فيمثل تاره بشعر أبي نواس، وأخرى بما أنشد إسماعيل بن يسار، ثم ينتقل إلى الجاحظ ويحاول الطعن فيما رواه في كتاب الحيوان من شعر. وكل عمله هنا هدم وإفساد لانصيب فيه للبناء والإصلاح ثم هو يتعلق بخيوط واهيه يظنها تشده للهدف وتوصله للطريق[3].

هـ ــ الرواة ونحل الشعر : وفي هذا يذكر أخباراً عن بعض الرواة كحماد مما سبق أن أشرنا إليه في حديثاً عن الأقدمين ونظرية الانتحال وغيره من المواضع ولكنه هنا يذكر لنا مثالين لأولئك الرواة هما حماد الراوية وخلف الأحمر ويشير إلى مانسب اليهما من مجون وفسق ثم يجعل أخلاقهما مقياساً لأخلاق الرواة الآخرين وذلك في قوله: «وإذا فسدت مرؤة الرواة كما فسدت مروءة حماد وخلف وأبي عمرو والشيباني واذا أحاطت بهم ظروف مختلفة تحملهم على الكذب والانتحال ككسب المال والتقرب إلى الأشراف والأمراء والظهور على الخصوم والمنافسين ونكايه للعرب: إذا فسدت مروءة هؤلاء الرواة وأحاطت بهم مثل هذه الظروف، كان من الحق علينا ألا نقبل مطمئنين ماينقلون إلينا من شعر القدماء[4].

عجيب أمر هذا الرجل، أين مايقوله من الأصمعي وأبي عبيدة والمفضل والضبي؟ على

---

(١) في الأدب الجاهلي ص ١٦٩.

(٢) راجع ص ٨ في الأدب الجاهلي من ص ١٥٨ إلى ص ١٧٠.

(٣) راجع من ص ١٧١ إلى ص ١٨٠ في الأدب الجاهلي.

(٤) في الأدب الجاهلي ص ١٨٤.

أن ماذكره من أمر بعض الرواة لم يفت الأقدمين التنبيه عليه وفي كتاب الطبقات لابن سلام وأمثاله من الناقدين الأقدمين مايبطل هذا الادعاء وسبق لنا إيراد كثير من ذلك فيما مر من موضوعات. وخلاصة تعليقنا على ذلك.

أولا : أن الأمثلة التي أوردها في السياسة ليست جاهلية وإنما هي إسلامية.

ثانيا : أن جميع ما أورده من شواهد وأمثلة للمكذوب والمنحول سبق أن نبه عليها العلماء قديماً ورفضوها جميعاً.

ثالثا : أن ماذكره من كذب الرواة ومانحلوه من أشعار أمراً كان معلوماً لدى السابقين الذين ميزوا الرواة الموثوق بهم من غير الموثوق بهم.

رابعاً : أن الدكتور يريد أن يمد تلكم الأسباب لتشمل ماثبتت صحته من شعر للجاهليين.

خامسا : أن ماذكره من أن الشعوبية هى التي حملت الجاحظ على حشد ماحشده من أشعار في الحيوان ومايتصل بها ليثبت علمهم بها حسب زعم الدكتور فنفي بما قاله الجاحظ نفسه في كتاب الحيوان إذ ينفى عنهم اتساع المعرفة في علم الحيوان ويقول أن معارفهم فيه أوليه كما يرجع السبب في كثرة أشعارهم فيها إلى مباشرتهم لهم ومعايشتهم إياها.

(٣) الكتاب الرابع :

وفي هذا الكتاب يطبق طه حسين ماذهب إليه من انتحال على جملة من شعراء اليمن وربيعة ويبدأ بامريء القيس فيكرر ما ادعاه من أنه يمني، كما يزعم ان شعره ركيك أما أنه يمنى فأمر ظاهر البطلان اذ أن قبيلة كنده نزحت إلى الشمال قبل عصره بزمن فأصبحت بذلك شماليه النشأة واللهجة.

وأما أن شعره ركيك فتعميم ظاهر التحامل لأنه انطبق على قليل مماشك فيه العلماء فإنه لاينطبق على جميع شعره وكيف وفيه من حسان القصائد مما رواه المفضل الضبى وأبو سعيد الأصمعي ولقد قال الأصمعي في شعر امرىء القيس «كل شيء في أيدينا من شعر امرىء القيس فهو عن حماد الراويه الإنتفاً سمعتها من الأعراب وأبى عمرو بن العلاء[1].

ومما ثبتت أصالته من شعر امرىء القيس إضافة إلى مارواه الأصمعي معلقته:

(١) مراتب النحويين، ص ٧٢.

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

والمطولة الأخرى :

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى   وهل يعي من كان في العصر الخالى

ولكن طه حسين لايكتفي بإنكار صحة شعر امرىء القيس وأصالته بل يزعم أنه شخصية لاحقيقية لها إلا في خيالات القصاصين الذين اصطنعهم عبد الرحمن بن الأشعث (١).

وعلى نحو من حديثه عن امرىء القيس كان حديثه عن جملة من الشعراء كعلقمة الفحل وعبيد بن الأبرص وعمرو بن قميئه، ومهلهل، وجليله، وعمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزه، وطرفه، والمتلمس، والأعشى بانياً حكمه على ما أملته ميوله ورغبته في هدم شعر الجاهليين ولوكان طالب حق وإنصاف لأنصفهم بقول الحق كما فعل السابقون، ولكنه يشك في كل شيء بل يعتقد أن جميع ماورد من أخبار الجاهليين وآدابهم منحول إلا القليل جداً وهذا القليل مشكوك فيه أيضاً عنده.

وفي نفيه لصحة ماورد عن الجاهليين خبراً أو شعراً يقول «ونحن لانعرف نصاً عربياً وصل إلينا من طريق تاريخية صحيحة يمكن أن نطمئن إليها قبل القرآن إلا طائفة من النقوش لا تثبت في الأدب حقاً ولا تنفى منه باطلاً». (٢)

ومقتضى هذا القول أن جميع ماروى عن عرب الجاهليه من خبر أو شعر منحولاً لأن شك الدكتور يقضى بهذا وعلينا إذا رضينا الأخذ بهذا الشك أن نكذب ماورد من الحقائق في كتب التاريخ والأدب عن طريق ثقاة العلماء.

(٤) الكتاب الخامس :

وأعجب مايصادفنا منه أنه لايستبعد أن يكون هناك شعراء مضريون وشعر مضري ولكنه يرجع إلى سنته في الإنكار فيدعى أن مابقى من شعر المضريين لايكفي لإعطاء

---

(١) راجع في الأدب الجاهلي، ص ٢١٣.
(٢) في الأدب الجاهلي، ص ١٨٨.

صورة واضحة لأنه حسب مايعتقد قليل ثم أن الغلط والاضطراب فيه لايعطيان الناقد فرصة الرؤية الأدبية فتخليصة وتصفيتة مما شابه أمر عسير بل و يرفع صعوبة ذلك إلى حد الاستحاله ثم يطلب بعد ذلك أن تخضعه لمقياس مركب من خصائص فنيه اشترك فيها طائفة من الشعراء أمثال أوس بن حجر وزهير بن أبي سلمى والحطيئه وكعب بن زهير.

ومهما يكن من أمر فإن تجنى الدكتور طه على الشعر العربي وإنكار أصالته ومحاولة إيهام القارئين بما اعتقده من وضع وانتحال أمر لايقره عليه كل ذى نصيب من المعرفة بما خلفه السابقون ومادونوه مما يتصل بالأدب الجاهلي من خبر أو شعر.

وأود أن أنبه هنا على أني أناقش آثار مفكر أديب لم أعرف أنه أعلن رجوعه عنها وإن كنت قد سمعت ذلك من أفواه كثيرين فعسى أن يكون قال ذلك لنقول وبكل ارتياح عفا الله عنك ورحمك ياطه حسين.

خاتمة

إن الأدلة على أصالة الشعر الجاهلي وأنه حقيقة ثابتة لايتطرق إليها الشك يمكن إجمالها فيما يلي :

(١) إن المحاكاة في حد ذاتها تدل على وجود أصل يحاكى وإلا فكيف تمت المحاكاة؟

(٢) إن ورود القليل من المنحول كمقدمة قصيدة زهير التي سقطت مقدمتها يجب أن ينحصر وضعه فيه ولا يتجاوزه إلى غيره.

(٣) إن المفضل والأصمعي وغيرهما من الثقات قد عاصروا من يقال عنهم أنهم كانوا يضعون الشعر أمثال حماد وخلف ويمكنهم ان يردوا ما أتى به هؤلاء من الشعر المنحول.

(٤) إن الأعراب الذين روى عنهم الشعر كانوا في زمن المفضل وأمثاله أو يمكنهم أن يرجعوا إليهم في ما يشتبهون فيه من شعر.

(٥) هذا الخلط يوجد في بعض روايات التجريح كقصة المهدي مع المفضل وحماد إذ أن المهدي قد تولى الخلافه عام ١٥٨هـ بينما يذكر ابن خلكان أن حماداً توفى عام ١٥٥هـ ويذكر ابن النديم أنه توفي عام ١٥٦هـ.

(٦) إن وضع بيتين أو ثلاثة مكان الناقص في أول قصيدة من الواضح نقصها لايدل على مهارة خارقه في المحاكاة تمكن من وضع قصائد طوال محكمه.

(٧) لماذا نفتح الباب أمام احتمال النحل والكذب على الشعر الجاهلي، ونغلقه أمام الأخبار التي تطعن في رواته[1] خاصه وأن الشبه قويه في الأخير

(٨) إن الموقف المنصف الذي تفرضه علينا الأمانة العلمية أن نفحص بعقلية مجردة من التعصب والتحزب ومن الإفراط والتفريط كل ماورد عن الجاهليين متأثرين في ذلك سبيل الأقدمين نثبت ما أثبتوا وننفي ما أنفوا، أو ليسوا أقرب منا إليهم وأعلم منا بهم وقد درسوا شعرهم وتكلموا منه فأبطلوا ماكان زائفاً وأقروا ما رأوه صحيحاً ثابتاً.

(٩) وهناك الكثير من القصائد المجمع على صحتها فما المانع من دراسة ماسواها ومقارنتها بها لنتبين بعد ذلك ما إذا كانت تختلف عنها في موضوعها وإسلوبها وكافه سماتها التي تتميز بها أم أنها تعيش في أجوائها وتدور في أفلاكها وتنهل من مناهلها وتصدر عن منازعها.

(١٠) ثم إن هؤلاء الذين يقال عنهم إنهم نحلوا هذا الشعر ووضعوه قوم يفصل بينهم وبين الجاهلية أكثر من قرن ثم هم يعيشون عيشة تختلف في طريقتها ووسائلها وكافة مظاهرها عن حياة الجاهليين، حتى اللغة نفسها نالها من التغير مانالها وكثيراً ماكانوا يقفون أمام غريب الألفاظ في ذلك الشعر فكيف يقال بعد هذا أنه من صنعهم؟

(١١) إن الاختلاف على نسبة الشعر، أهو لفلان أو فلان، كالاختلاف على بعض شعر امرىء القيس أكان له أم لبعض الصعاليك الذين كانوا يصاحبونه لايعد دليلاً على الانتحال، وليس منه ماداموا جميعاً من الجاهليين.

(١٢) إن العرب عرفوا باعتمادهم على الذاكرة وعرف عنهم اعتمادهم على الشعر واعتزازهم به واقبالهم على حفظه وروايته فليس بالغريب أن يبقى فيهم محفوظاً قروناً طويلة دون ان يمس جوهره أدنى تغيير.

(١٣) إن ما أصاب الشعر الجاهلي في رحلته الطويلة من أيام الجاهلية حتى أيام التدوين من تغير إنما كان في أمور ليس بغريب ان تحدث كسقوط بعض الأبيات أو تقديم بعضها على بعض أو إبدال كلمه بأخرى مما يحدث أحياناً حتى في عصرنا هذا وهو

(١) أعني الشعر المنحول.

عصر تدوين كل شيء حتى التفاهات وفي طبيعة بناء القصيده الجاهلية مايساعد على بعض ذلك.

(١٤) إن دعوى ان الشعر الجاهلي لايمثل الحياة الجاهلية في الدين والاجتماع والسياسة والاقتصاد ونحو ذلك ــ إن هذا القول مردود بما ورد عن العرب الجاهليين أنفسهم وفي أشعارهم كما ثبت لنا ذلك. وقد أسلفنا الحديث عن هذا في عرضنا لأقوال الدكتور طه حسين.

(١٥) إن عماد أدلة المشبهين الطاعنين في صحة الشعر الجاهلى وأصالته هو لازم الأمر السابق وهو تشبيه هدمته النصوص وهذا الأمر الذي هو عمدة آلائهم وسلاح تشبيههم إنه يلزم من عدم تمثيل الشعر الجاهلي حياة الجاهليين، أن يكون منحولاً ومكذوباً وهذا دليل أغرب منه الادعاء الذي بني عليه وأقيم أساساً له.

(١٦) إن الشعر في صدر الإسلام وعهد بني أميه قد وصلنا صحيحاً وهو في واقعه الأدبي لايمكن إلا أن يكون امتداداً لشعر قبله نسج الإسلاميون على منواله واحتدوا حذوه وإن كانوا قد طوروا في بعض جوانبه تبعا لتطور حياتهم بعد ذلك الحدث الجليل «الإسلام» ومن أولئك الشعراء الإسلاميين حسان بن ثابت رضى الله عنه، والحطيئة وذو الرمة وجرير والفرزدق والأخطل ونحوهم.

(١٧) إن هذه الحملة العارمة من التشكيك والإنكار التي يشنها الأوربيون على الأدب العربي ليست بالجديدة ولا الوحيدة من نوعها فقد شن الأوربيون ومازالوا يشنون الحملات ضد الفكر العربي والثقافة العربية ومن ذلك تشكيكهم في التاريخ الجاهلي وروايته وإنه لايمثل الحياة الجاهلية وإنما يمثل حياة العرب في القرنين الثاني والثالث.

(١٨) إن المشككين في الأدب والتاريخ الجاهليين يربطون في أحاديثهم دائماً وأبدا بين الجاهليين والقرآن الكريم، ويعتبرونه المصدر الأساسي الموثوق به في ذلك وهم في ذلك لاينزعون عن اعتقاد حسن في القرآن، وإنما يدفعون إلى سلب القرآن الكريم قدسيته وإنه كلام الله ليصلوا بعد ذلك إلى أن القرآن الكريم كتاب العرب ومن نسجهم وكلامهم هم لاكلام رب العالمين، أي أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو الذي صاغ أسلوبه ونظم جمله وتراكيبه وهيهات هيهات لقد قال الله تبارك وتعالى في وصف كتابه: العزيز «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفة تنزيل من

حكيم حميد» (١) وقال في نبيه محمد عليه الصلاة والسلام ووصف مايوحى إليه القرآن الكريم: «وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى» (٢).

ومن شواهدنا على مانقول أن بعض غلاة هولاء يجعلون الشعر الإسلامي أقوى وأعلى مستوى في اللفظ والصياغه وطريقة التعبير من القرآن الكريم وأن القرآن الكريم كان مرحلة من مراحل نمو الشعر الاسلامي العربي.

والكلمة الأخيرة التي نختم بها بحثنا هذا هي أن قضية الانتحال ستظل مرتعاً خصبا لأقلام الناقمين على لغة العرب وآدابها، حتى يقدم الباحثون عملاً تقطع به الألسن وهذا في نظرنا لايتم إلا بعمل جماعي متصل تقوم به هيئة من العلماء.

---

(١) سورة : الآية

(٢) سورة النجم الآيتان ٣ ــ ٤

البحث الرابع

الأدب المقارن

مفهومه وموضوعه

مقدمة :

(١) يُعد الأدب المقارن فناً جديداً فيما يراه الغربيون والشرقيون. وتعد فرنسا عندهم الأم التي انجبت هذا الفن وذلك حين برز في كتابات «جوزيف تكست» في آخر القرن التاسع، وتبعه «فردينان بالدنسبيرجيه»، وكذا «بول فان تيجم» «وجون مارى كاربة» و «ديديه» وجاء بعض أدباء العرب فأخذوا هذا الفن عن أهله فتبعوهم فيه ولم يخرجوا عليه، وإن كان بعض كبار الأساتذة منهم قد رفضوا هذا، أو على الأقل لم يعترفوا به فناً جديداً، وإنما هو في — حقيقته — نمو لمباحث التأثر والتأثير ومحاكاة لأساليب الموازنات، وهذه أمور عرفها أدباء العرب منذ قرون طويلة، ومن هؤلاء الأساتذة الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين رحمه الله والأستاذ الدكتور بدوي طبانه، وهما عالمان لأرائهما وزن في مجتمعنا الأدبي العربي. فما الأدب المقارن وما موضوعه؟

تعريف الأدب المقارن :

وقد عرّف «بندتوكر وتشيه» الأدب المقارن بأنه [اسم جديد لنوع من الخبرة هى موضع التبجيل على مر العصور] وعرّفه الدكتور طه ندا بأنه «دراسة الأدب القومي في علاقاته التاريخيه بغيره من الآداب كيف اتصل هذا الأدب بذاك، وكيف أثر كل منهما في الآخر. ماذا أخذ هذا الأدب وماذ أعطىٰ؟ وعلى هذا فالدراسة في الأدب المقارن تصف انتقالاً من أدب إلى أدب.

قد يكون هذا الانتقال في الألفاظ اللغوية أو في الموضوعات أو في الصور التي يعرض فيها الأديب موضوعاته أو الأشكال الفنيّة التي يتخذها وسيلة للتعبير كالقصيدة أو القطعة أو الرباعي أو المزدوج أو القصة أو المسرحية... الخ» (١) .

ويعرفه الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى بأنه «العلم الذي يدرس الصلات الأدبية بين الآداب المختلفة، ومواطن الالتقاء بينها في ماضيها وحاضرها، والتأثرات والتأثيرات العديدة التي تكون بين بعضها والبعض الأخر، أياً كان مظاهر هذه التأثرات والتأثيرات، وسواء تعلقت بالأصول الفنية العامة للأجناس والمذاهب الأدبية. أو التيارات الفكرية. أو

(١) د — طه ندا الأدب المقارن ص ٢٠ القاهرة، دار المعارف.

بطبيعة الموضوعات والمواقف والأشخاص التي تعالج أو تحاكي في الأدب، أو بالصياغة الفنية والأفكار الجزئية في العمل الأدبي، أو بغير ذلك من مظاهر التأثيرات والتأثرات المختلفه»[١] .

ويعرفه الدكتور حسن جاد حسن بأنه «دراسة آثار الآداب المختلفة من ناحية علاقاتها بعضها ببعض[٢] ، أو هو دراسة احتكاك الآداب العالمية بعضها ببعض، وما ينشأ عن هذا الاحتكاك من ظواهر قد تقود إلى أحكام عامة[٣] ، أو هو دراسة الأدب القومي في علاقاته التاريخيّة بغيره من الآداب الخارجة عن نطاق اللغة التي كتب بها[٤] .

إنه يدرس مواطن التلاقي بين الآداب على اختلاف لغاتها، في ماضيها أو حاضرها، وطبيعة هذا التلاقي، ويبحث في صلاتها التاريخيّة، مالها من تأثير أو تأثر في الأصول الفنيّة، أو المذاهب الآدبية، أو التيارات الفكرية، أو الصياغات الشكلية، وغير ذلك من مظاهر التأثر والتأثير[٥] .

وعرفه غنيمى هلال بقوله [وأما كلمة «المقارن» فلا يقصد بها هنا المقارنة بمعناها اللغوي ــ وسنوفي في القول في هذا عندما تعرف الأدب المقارن في هذا الكتاب ــ بل يجب أن يلحظ فيها المعنى التاريخي، وبذا يكون الأدب المقارن هو دراسة الأدب القومي في علاقاته التاريخية بغيره من الآداب الخارجية عن نطاق اللغة القومية التي كتب بها] ثم قال [أولى أن يسمى : «التاريخ المقارن للآداب» أو «تاريخ الآدب المقارن»] ثم شرح التعريف بقوله «فاللغات، إذن، حدود حصينة تحول دون انتقال الأفكار في صورها الفنية.

وقد كان هذا الظن عقبة كأداء في سبيل العناية بالدراسات الأدبية المقارنة ولكن

---

(١) ود. محمد عبد المنعم خفاجى دراسات في الأدب المقارن جـ ١ : ١٠ ــ ١١ القاهرة دار الطباعة المحمدية.

(٢) : فإن تيجم ص٦.
(٣) : النقد الأدبي لسهير القلماوي.
(٤) : غينمي هلال/ الأدب المقارن ص : ٦.
(٥) : الأدب المقارن ص ٨ ــ ٩ جـ٣ ١٣٩٨هـ ــ ١٩٧٨م القاهرة دار المعلم للطباعة

سرعان ماتبدد حينما تبين الباحثون أن من الحقائق التي لامجال لأدنى شك فيها أن الآداب في مختلف الأمم تتبادل فيما بينها علاقات التأثير والتأثر بالرغم من اختلاف اللغات التي كتبت بها، ذلك لأن الأفكار والتعبيرات كثيراً ماتتناظر وتتكافأ في معظم اللغات، والا لما يسرت الترجمة ولما لقى كبار الكتاب حظاً وإعجاباً بهم في مختلف اللغات، ولما نسجت الآداب الحديثة على منوال الآداب القديمة، كما كانت عليه الحال مثلاً في أوروبا في عصر النهضة. هذا إلى أن الأدب المقارن لايعنى بدراسة ماهو فردى في الإنتاج الأدبي فحسب، بل يعنى كذلك بدراسة الأفكار الأدبية، وبالقوالب العامة التي هي هذا مما يجد سبيله إلى القلوب في مختلف اللغات.

وفوق هذا قد تجد الناحية الفنية سبيلها للخروج من نطاق الأدب القومي والتأثير في الآداب الأخرى.. فقد تتبادل الآداب التأثر في النواحي الفنية للصياغة في الشعر والنثر».

وكون الأدب المقارن يقوم على أساس من التأثر والتأثير الذي يتم بين آداب الأمم المختلفة ممتزجاً بعوامل التطور والارتقاء، كما كانت علاقة التأثر والتأثير تقوم على أساس من التفاعل في ميدان الفكر، وأساليب الصياغة وطرق التفكير وربما اللغة حينا، فإن هذا يعني أن مايعرف في الأدب العربي بالموازنة غير داخل في الأدب المقارن.

وهذه نظره خاطئة، لأن الموازنة إما أن تقوم بين متأثر ومؤثر وهذه موضع اتفاق، وإما أن تقوم على اساس من التشابه غير الخاضع لعوامل التأثر والتأثير السارية من الأعمال الأدبية نفسها، ولكنها قائمة على أساس من تأثير الظروف والأحوال المتشابه التي وجهت عمل الأديبين أو الأدباء في مسارات متشابهه قد تعلو فيها نسبة التشابه لتدنوا من نقطة الاتفاق.

والذين يحصرون الأدب المقارن في إطار العلاقات التأثرية والتاريخية يحجزونه عن ميادين الإنطلاق في آفاق اكثر رحابة، وأجدى نفعاً ويجعلونه يحيا داخل حدود التبعية المطلقه للنقد الأدبي العام وبخاصة في دراسات التأثريين، ويقربونه من حدود المحاكاة، أو بعبارة أصح يدنون ميدانه من ميادين المحاكاة، وممن يرى هذا الرأي الدكتور غنيمي هلال رحمه الله حيث يقول

«أنه لايعد من الأدب المقارن في شيء مايُقصد من موازنات بين كتاب من آداب

مختلفة لم تقم بينهم صلات تاريخية حتى يؤثر أحدهم في الآخر نوعاً من التأثير أو يتأثر به. فمثلاً ألف الكاتب الفرنسي الكبير «ستاندال» ١٧٨٣ ــ ١٨٤٢م كتاباً عنوانه: (راسين وشكسبير). لمقابلة الأصول التقليدية في مسرحيات «راسين» بوجوه الإبداع في مسرحيات «شكسبير» و يتخذ هذه المقابلة وسيلة للإشادة بأصالة شكسبير وبدراسته «القلب الإنساني فيما له من قوانين إنسانية خاصة به، وفيما يقوم أمامها من عقبات» و يثور على القواعد الكلاسيكية التحكمية، منتصراً بذلك للرومانتيكيين.

و يتخذ «راسين» مثالاً للشعراء عبيد القواعد حين يضرب المثل للاتجاهات الفنية التي ينتصر لها من مسرحيات شكسبير، والكتاب بذلك ذو قيمة في فهم الدعوة الرومانتيكية التي اتخذ شكسبير وراسين تعلة للانتصار لها، وذو قيمة كذلك في فهم كاتبه نفسه وماله من ثقافة، ولكنه ليس من الأدب المقارن لافي منهجه، ولا في موضوعه، إذ ليس بين شكسبير وراسين من صلة تاريخية.

والأمر كذلك فيا يعقد مثلا من موازنه بين الشاعر الإنجليزي «ملتن» (١٦٠٦ ــ ١٦٧٤م) وبين أبى العلاء المعري (٣٦٣هـ ــ ٩٧٣م ــ ٤٤٩هـ ــ ١٠٥٧م) لأن كليهما كان أعمى، وأنتج نتاجاً خاضعاً لهذه العاهة، ثم على الأخص لأن لكل منهما آراء متطرفة فيما يخص الدين.

وذلك أن كلا الشاعرين لم يعرف الآخر ولم يتأثر به، فتشابه آرائهما وظروفهما أو مكانتهما الاجتماعية ليست لها قيمة تاريخية».

وعندي أن هذا قول يحد من انتشار الأدب المقارن في الساحة الأدبية ويجعله داخل ميدان محدود.

ثم إن الأدب المقارن حين يوضع في هذه الحد ود فإنه لن يخرج عن مباحث التأثر والتأثير التي تكوّن باباً من أبواب النقد وعلى هذا لا داعي إلى فصله منه.

والقول بأن محاكاة الكتاب والشعراء من نفس اللغة لا تجوز بحجة أن هذا اللون من المحاكاة يفسد اللغة، أو يفضي بها إلى الموت، قول لايجوز أن يأخذ على عمومه، وإنما يجب أن يفصّل القول فيه فالمحاكى إذا قصر محاكاته على ألفاظ النص المحتذى، ولم يلتفت إلى الفكر والصوغ والصبغ والتصوير والتعبير فإنه لن ينتج سوى أعمال ميّته، حتى لو اشتملت

محاكاته على التصوير والتعبير أيضاً، وهما أبرز ميادين التفاوت بين الأدباء. والمسألة التي يجب أن ينظر إليها على أنها أخطر قضية فيما يتصل بموضوع الأدب المقارن هى أن كُتابه يرون أنه لايمكن أن يعمل إلا في آداب تباينت لغُاتُها وأزمنتها، وهذا يعني أن أدب اللغة الواحدة ليس من موضوعات الأدب المقارن مهما اتسعت آفاق أدب تلك اللغة. وإذا كان أساتذة الغرب قد رسموا تلك الحدود للأدب المقارن فإنا غير ملزمين بمتابعتهم إلا فيما نراه صواباً.

ويجب أن لا يفترض في التأثر أن يكون موافقة واتباعاً، بل قد يكون مضاداً إي انه قد ينشأ من وجود رد فعل لدى المتلقى، وهذا أقرب إلى آفاق الإبداع والإبتكار، في حين أن الثاني ادنى إلى التقليد والمحاكاة. ولعل أقرب مثال على التأثر الناتج من رد الفعل مانقرأه في مسرحية كليوباترا لشوقي الذي انفعل عند قراءته صورة كليوباترا فيما كتب الغربيون حيث جعلوها امرأة واهنة العزيمة تعكف على لذاتها ولا تقيم وزناً للحياة من حولها وحين اتصل بها انطونيوس الرجل الغربي الجاد الحازم سحرته بقوة تأثيرها حتى سلبته مقومات شخصيته وخلعت عليه شخصيتها بما فيها من صفات سلبية، وقد أرادوا بذلك غمز المرأة الشرقية التي هى نموذج الإنسان الشرقي فأراد أحمد شوقي رحمه الله أن يبرأ المرأة الشرقية مما حاول الغربيون الصاقه بها.

وهناك أمور مشتركة عند جميع الأجناس البشرية تلتقي فيها في عالم الحسن والشعور والعاطفة والتفكير، والقدر المشترك من هذه هو مصدر التقاء كثيرين من الأدباء والمفكرين على أمر وهو مصدر اتفاقهم عليه من غير أن يكون هناك مؤثِّر ومؤثَّر فيه.

وقد يجوز لنا أن نتخذ من الأسطورة الشعبية مثالاً على ذلك ولتكن أسطورة الكوفيه السحرية والقضيب السحري.

في بلادنا «جزيرة العرب» كنت أسمع وأنا صغير ذلك الذي يملك قضيباً سحرياً لايمس به شيئاً إلا كان كما يريد له أن يكون، والكوفية السحرية التي تحجبه عن الأنظار، ومنذ أكثر من ثلاثين عاماً وقعت في يدى مجموعة قصصية تمثل مختارات من الأدب الإسكندنافي فإذا بي أجد تلك الأسطورة تقدم في عمل قصصي بُنى على هذه الحكاية، حكاية القضيب السحري والكوفيه السحرية، واحتمال وجود التأثر والتأثير بعيداً جداً لأن جزيرة العرب لم تتصل بالعالم الإسكندنافي بل ولا الخارجي بعامة إلا في عهد

الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود الذي بدأ حكمه بفتح الرياض سنة ١٣١٩هـ، والقصة الإسكندنافية كتبت قبل هذا بكثير وقد يرد على الذهن أن ذلك كان من تأثير قصص ألف ليلة وليلة، وهذا محتمل جداً، لولا أن أصول الأسطورة الإسكندنافية بعيدة الجذور في الزمن، وكتاب ألف ليله وليله لم يجد طريقه إلى إسكندنافيا إلا بعد يقظة أوربا.

وإذا كان ميدان الأدب المقارن لدى الغربين هو تلك المظاهر الكلية والجزئية التي طرأت على لغة ما من لغة ما، ثم تحرى التاريخ الذي وفدت فيه، والقنوات التي جرت منها إلى تلك اللغة وفنونها، فإن هذا في الصميم من فن الموازنات عند العرب، بل إن الموازنات تزيد على ذلك، المفاضلة بين العملين، إلا انها تُجيز الموازنة بين الأعمال في اللغة الواحدة كما تُجيزها بين الأعمال في اللغات المختلفة، ووجه النقص الذي يظهر في فن الموازنات أن رجالها لم ينظروا إلى التأثر والتأثير نظرة شاملة، وإنما كانت نظرتهم جزئية شأن النقد عندهم إذ كانت نظرتهم فيه جزئية، وإن كانوا قد لحظوا ذلك التأثير العام وتحدثوا عنه كظاهرة من ظواهر النماذج، وإن لم يقصروا النظر فيه على النواحي الفكرية، بل نظروا فيه إلى الأحوال المعيشية، والاجتماعية، أو سواها من مظاهر التأثر والتأثير في أوسع ميادينه.

أما الأدب فإن لهم فيه ــ إلى جانب الموازنات التي أشرنا إليها سلفاًــ بحوثاً لايجوز إغفالُها، وإن كانت كالموازنات من حيث أن موضوعها أدب أمة واحدة ومن هذه المباحث ما ألّف فيه الكتب المطولة كالسرقات مثلاً.

ثم تتبعهم مظاهر الاحتذاء في أدب الأدباء، كاحتذاء عبد الله بن المقفع، عبد الحميد الكاتب، واحتذاء الحريري بديع الزمان ومنه احتذاء ابن زيدون اساليب البحتري، واحتذاء ابن هانيء اساليب المتنبي، وهكذا نجد أنهم ــ أعني العرب ــ كانوا أسبق إلى وضع أسس النقد المقارن.

ولست أدّعى أخذ الفرنسيين ذلك منهم، وإن كنت لا أستبعد هذا، ولو على الأقل من باب الإيحاء لأن مؤلفات العرب قد قرأت من لدن الغربيين بعامة والفرنسيين بخاصة، ونشر كثير منها، وترجم كثير، وهذه من بدهي المعلومات.

وأخذ أدباء فرنسا من العرب وتأثرهم بهم لاينقص من قدرهم، ولا يضعف شأن

مجهوداتهم وكنا أخذنا عنهم فلم نر حرجاً في الاعتراف بسبقهم، ثم إن تاريخ النقد العربي يدل دلالة قاطعة على أن العرب قد نظروا في آداب الأمم التي سبقتهم فتأثروا بها، وأخذوا ماينـاسب أجناسهم الأدبية منها، وما أعمال الحاتمي، وقدامه بن جعفر عنا ببعيد.

ولا نريد أن يجرنا ذلك إلى الحديث عما أخذ العرب من غيرهم وما أخذه منهم غيرهم، كأخذهم من الفارسين مثلا، وأخذ الفارسين منهم، فنحن لانتحدث عن مظاهر التأثر والتأثير عند العرب أو الفرس، ولانقدم بحوثاً تطبيقية في هذا، وإنما نحاول بيان موقفنا من (الأدب المقارن) تسميته، وموضوعه، وبدايته.

إن كتباً وبحوثاً كتبت في الأدب العربي قديماً، وحديثاً يجب ألا يسقطها أساتذة الأدب المقارن في حسابهم، لكونها تفرض نفسها على هذا الميدان بما ضُمنت من مباحث نظر فيها أصحابها إلى مسألة التأثر والتأثير..

ومن تلك الكتب الموازنة، وكتاب الموازنات في الشعر العربي للدكتور زكي مبارك.

وهنا سؤال أوجهه إلى أساتذة الأدب المقارن وهو :

هل الضابط في ميدان هذا الفن الأمة؟ أم اللغة، أم هما معا؟ فإن كان الأول ــ أي الأمة ــ الواحدة فإنه لايجوز لنا أن نقارن بين ماكتب الهنديون باللغة الأردوية وماكتب إخوانهم باللغة الإنجليزية، أو إحدى اللغات السائدة في الهند.

وإن كان الثاني فإنه يجب ألا نقارن بين آداب الشعوب الناطقة بالإنجليزية كبريطانيا، وأمريكا.

وإن كان الثالث فإن ميدان الأدب المقارن سيكون ضيقاً جداً، إذ يجب أن تخرج منه آداب الشعوب التي تتحدث لغة واحدة، وآداب اللغات التي يتحدث بها شعب واحد، وهذا يعني خروج الشعوب التي تتحدث بالفرنسية، وهي مختلفة الأعراق، والشعوب التي تتحدث الأنجليزية، والشعب الذي يتحدث بلغتين أو لغات متعددة.

البحث الخامس

آل سعود في أشعار الحفظيين وشعراء آخرين

آل سعود في أشعار الحفظيين وشعراء آخرين

لن نتحدث هنا عن الدولة السعودية، ولا عن تاريخها ولا عن شيء من أمرها لسببين:

١ ـ إن كتب التاريخ قد بسطت الحديث عن هذه الدولة، وتداول الناس هذه الكتب، فعرفوا من شأن الدولة السعودية منذ نشأت في منتصف القرن الثاني عشر الهجري إلى هذه الأيام والمستقبل البعيد إن شاء الله مانعني عن مثل هذه العجالات التي تحويها المقالات.

٢ ـ ثم أن الحديث عن الدولة السعودية لو علقنا باسبابه ماترك لسواه مكاناً لاستطابته وانبساطه.

لكن نريد أن نتحدث عن آل سعود في الشعر، وهو موضوع لا أفشي سراً اذا قلت أني قد هيأت منه كتاباً سيجد طريقه إلى أيدي القراء قريباً إن شاء الله.

ولن نتحدث عن نشأة الشعر السعودي ولا عن نهضته ولا عن القديم والجديد فيه، فنحن لانكتب تاريخاً للشعر ولادراسة إلا نقداً فإن لذلك كله مجالاً آخر.

وليس من موضوعنا حصر كل ماقيل من الشعر في آل سعود، فذلك بحر من الشعر لاتحتمله مثل هذه البحوث المقتضية بل هو جدير بمؤلف خاص.

وإنما الهدف من حديثنا هذا رصد تاريخ صلة الشعر بآل سعود ثم الوقوف على شعر جملة من الشعراء.

ولم يحفظ لنا التاريخ شيئاً من الشعر قيل في آل سعود قبل عهد الإمام محمد بن سعود الذي بدأ الإمام محمد بن عبد الوهاب دعوته في زمنه فجمع الله كلمتها على الحق، وأرشد بها الأمة إلى سبيل الرشاد.

وفي الدولة السعودية اشتهرت أسر بالعلم والأدب مثل آل الشيخ في نجد، وآل مبارك

في الإحساء، وآل حفظي في عسير، والذي نحن بصدده هنا، أشعار الحفظين التي ذكروا فيها آل سعود.

وهدفنا من ذلك أمران :

(١) الإسهام في إحياء مآثر أولئك السادة القادة من آل سعود، الذين مكنوا بعد الله لدعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب ــ رحمه الله ــ حتى أتت أوكلها علما وخيراً وصلاحا.

(٢) ثم خدمة أولئك العلماء الذين أسهموا بأقلامهم وفعلهم في شد أزر زعمائهم.

أ ــ لقد كان موقف الإمام محمد بن سعود من الإمام محمد بن عبد الوهاب ودعوته موضع اكبار وتقدير لدى الناس عامة والعلماء بخاصة، من هنا وجدنا العلماء لايتوانون في مدح الإمام محمد بن سعود والثناء عليه والدعوة إلى مناصرته وتأييده...

فن ذلك أرجوزة الشيخ أحمد بن محمد الحفظي التي يقول منها:

والسابقون الأولون السادة … آل سعود الكبراء القادة [١]

هم الغيوث والليوث والشنف … ونصرة الإسلام والشم والأنف

فأقبلوا والناس عنه أدبروا … وعرفوا من حقه ماانكروا

حفوا به كأسد العرائن … وكم وكم لله من ضنائن

وابن سعود كأبى أيوب … محمد الرئبيل والعيسوب

قال اذهبوا فأنتم سيوم … وجند ربي قبله حيزوم

فكم شهدتم معهداً تعرفونه … كما عرف الأقوام باد وحاضر

فلله أيام له ومحاسن … تشبه بالأعياد والأمر ظاهر

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية جمع الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ص ٢٧.

فلا تقنطوا من رحمة الله إنما ... نجني منه والله للخلق قاهر
عسى ولعل الله يأتي بلطفه ... فلابدع فيما قد أتته المقادر
فتشفى لبانات وتقضى مآرب ... وتبتهج فيما تشتهيه النواظر

(ب) وللشيخ محمد بن أحمد الحفظي في الثناء على الإمام عبد العزيز بن محمد آل سعود قصيدة منها قوله:

سلام على من حل نجدا موحدا ... مجدداً دين الله بالرهف الحد[1]
ويدعوا إلى التوحيد ذلك قصده ... فياحبذا التشمير في ذلك القصد
له همه في نصرة الدين والهدى ... بتلك ارتقى اعلى المراتب والمجد
وجاهد في ذات الاله بنفسه ... وامواله قطعا يصدق بالوعد
إمام الهدى عبد العزيز الذي حما ... صفة التوحيد من كدر الضد

ومن أرجوزته التي نظم فيها تاريخ آل سعود يقول في الإمام عبد العزيز نفسه:

وقام فاروق الزمان المؤتمن ... عبد العزيز من ومن ومن[2]
فسار في الناس كسيره الاشج ... ودوخ البر وخاض للشبج
يسوس بالآثار والقرآن ... على طريق العدل والإحسان
يدعو إلى الله بحزب غالب ... مجاهد بالأربع المراتب
ونفسه لله والنفيس ... والصدق للقلوب مغناطيس

(جـ) أما أحمد عبد القادر الحفظي فإنه بعد ثنائه على الإمام الشيخ محمد بن عبد

---

(١) الدرر السنية في الاجوبة النجدية جمع الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ص ٣١ وانظر في اشعار الحفظيين (نفحات من عسير).
(٢) المرجع السابق ص ٣١.

الوهاب، أثنى على دور آل سعود في مناصرة الشيخ وتفانيهم في سبيل الله ومن قوله في الإمام عبد العزيز بن محمد:

فقام وقاموا واستقاموا بحجة ... بحجة قرآن وضرب المواضيا [1]

ولاسيا عبد العزيز فإنه ... هو القائم الفاروق بالعدل قاضيا

الجهبز النحرير والداعي إلى ... باب الإله بحكمة الغفار

هنيت بالظفر المبين على العدا ... فلقد هزمت عساكر الكفار

بصوارم الأسياف تلمع بينهم ... فتراهم صرعى بلامقدار

فلقد نصرت الشرع بعد مماته ... وضياءه في سائر الأقطار

هنيت بالنصر المبين وبالعلى ... يا ابن الكرام وبضعة الأبرار

(د) وفي الإمام سعود بن عبد العزيز يقول الشيخ أحمد بن عبد القادر الحفظي من قصيدة أسلفنا منها قوله في الإمام عبد العزيز قوله:

وان سعودا من مساعيه دام في ... سعود وفي لطف جلى وخافيا [2]

خليفة صدق ناصح الله جهره ... فناصحه والصدق امضى المواضيا

على محكم التنزيل يهدي ويهتدي ... وينصر مظلوماً ويقمع عاصياً

وينهي عن الشرك الذي طم بحره ... ويأمر بالتوحيد قاص ودانيا

تحقق بالأصلين قولا ونية ... وفعلا فطابت للرعايا الراعيا

---

(١) المرجع السابق ص ٣١ وانظر في اشعار المحفظين (نفحات من عسير).

(٢) الدرر السنية في الاجوبة النجدية جمع الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ص ٣٢. وانظر في اشعار الحفظين (نفحات من عسير).

أحاديثه في الهجرتين صحيحة | أسانيدها في الخافقين عواليا
فحدث عن البحر المحيط وقل لمن | تخلف عنه لاكعا والمصاديا
سياسته شرعية واتباعه | لأمر رسول الله في المدح كافيا
ومن حكّم المختار في نفسه وفي | سواه فقد حاز العلا والمعاليا
و ياسعد من أضحى سعود إمامه | فذلك ظل الله في الأرض ساريا
وأصبح في أكناف طيبة نازلا | وللحرم المكي إماما وحاميا
وقام بإحياء المناسك وانتهت | إليه أمور الحج بالقسط وافيا
وجيران بيت الله مد عليهم | عطاء حلالا لامكوس المحابيا
وطهر بيت الله من كل شرك | وللكعبة البيت المحرم كاسيا
وصلى الصلاة الخمس جمعاً بواحد | وأصبح شيطان التفرق خاسيا

(و) وفي الإمام سعود يقول الشيخ محمد بن أحمد الحفظي[1]

وهذا سعود ذو السعاد مساعيا | يجاهد لم يردعه باد وحاضر
ولم يلهه نوم الملوك استراحة | و يقظتهم هم والندامى السوامر
يبيت يجافي جنبه عن فراشه | على صهوات الصافنات يسامر
و يعدو على الكمت العنا حيج ضامر | وإن الجياد المشبعات ضوامر
يجدد دينا قدبدا في غرابة | وعاد غريباً والغريب يسافر
فألفه حتى استقر به النوى | والقى العصا والعسر منه (مياسر)

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية جمع الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ص ٣٨ وانظر في اشعار الحفظين (نفحات من عسير).

ودانـت لـه الأعـراب بـعـد جـفـائـهـا ... ودالـت عـلـى الأمـصـار مـنـه عـسـاكـر
وأقــرى وفــادا وأقــرأ طــالــبــا ... وقــرر تــوحــيــدا وقــرت نــواظــر
وطــهــر ســاحــات المحـبـة بـعـدمـا ... عـراهـا الأذى وهـي الـطـهـور الـطـواهـر
فـحـددهـا حـسـنـا ونـورا ومنهـجـاً ... فـجـوزي بـالحـسنى فـنـعـم الـنـحـائـر
لـه ظـفـر بـالحـرب قـد شـهـدت بـه ... عــدول رمــاح أوســيــوف شــواهــر
فسل عـنـه أهـل الـشـط والـشـام سـلـهـم ... تجـبـك الـبـوادي عنهـمـوا والـبـنـادر
تحـاكـي سـجـايـاه الـكـرام وجـنـدا ... سـجـايـا كـرام فـي الـنـدى لا تـنـاظـر

ولعلك لاحظت أن هؤلاء العلماء الشعراء حرصوا على أن يبرزوا من صفات هؤلاء الأئمة مايتصل بالعلم ونشره لأنهم علماء وبنصرة الدين وإبطال البدع وأعمال الملحدين، ثم يأتي عندهم بعد ذلك دور الصفات النبيلة كالكرم مثلاً، وماذاك إلا لأنهم رأوا بعين العالم مواقف هؤلاء الأبطال في سبيل الدين ووجدوا أنها أولى بالرصد والتسجيل من سواها.

ولهم في ذلك أشعار كثيرة منها أرجوزة للشيخ محمد بن أحمد الحفظي كتبها في رسالة لإمام! حين طلب منه أن يصف آل سعود وزعماء الدعوة له، ومنها:

ذاك الإمــام الــفــارس المــفــضــال ... الــعــالم الــعــلامــه الــعــمــال[1]
وعــنــده مــن عــلماء الــســنــة ... مــن يحــمــل الأســيــاف والأســنــة
مــن خــلــق مــســتــحــسـن كـريم ... عــنــدهــم الــبــعــيــد كــالحــمــيم
وقــد أجــابــتــه الجــمــوع الجــمــه ... والــنصر مــعــقــود بــتــلــك الهــمــه
مــعــظــا شــعــائــر الإســلام ... وهــادمــاً مــشــاعــر الأصــنــام

أما أرجوزته صاغ فيها سيرة آل سعود فإنه فيها يقول عن سيرة الإمام سعود:

---

(١) الدرر السنية في الاجوبة النجدية جمع الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ص ٣٩.

وبـعـده قـام الإمـام الـبـارع — بـأمـر رب الـعـالمين الـوازع[1]
وهو الهزبر الضيغم العدل الولي — سعود منح الرأس قلب الهيكل
كم زع[2] بالقرآن والسلطان — من فارس والروم والزنجان
وفي العراقين له عود — ومصر من صولته مرعود
واليمن الميمون كالحجاز — دوخها بالقهر والمغازي
والحرمين وهي المطهره — قد أصبحت بعدله مطهره
بالرفق يدعوهم وبالتعطف — ومن أبى يطره بالمشرفي
ولم يكن في نزعه من ضعف — وشاهد الواقع فيه يكفي
فلم أر من عبقري يفرى — فريه من ارماء العصر
وهكذا من يبتدي بنفسه — مجاهداً في يومه وأمسه
فإنه يطاع لا محاله — في خارج بيعا بلا إقاله
ونفحات أمره مترجمه — ليظهر الحق وتعلوا الكلمه
وهو الغيور الشهم ليس يرضى — ببيضة الإسلام أن ترضا
لايطلب الدنيا ولا الفسادا — في الأرض والعلو والعنادا
أومذهبا أوذهبا يريد — وإنما مطلوبه التوحيد

وآل الحفظى أسرة اشتهر فيها رجال كثيرون بالعلم، وعرف هؤلاء العلماء بإجادتهم فن النظم وفي نظمهم كثير من اللمحات الشعرية الجميلة التي سنكشف عنها ــ بمشيئة الله ــ في مقام آخر.

---

(١) المرجع السابق ص ٣٩.
(٢) وزع وانظر في اشعار الحفظيين (نفحات من عسير).

الشيخ إبراهيم بن علي :

زين العابدين بن إبراهيم الحفظي من عام ١٣٠٥ إلى ١٣٧٢هـ ولإبراهيم الحفظي في الثناء على الملك عبد العزيز وابنائه قصائد منها قصيدته (عبد العزيز المفدى) وقد نظمها رداً على أحد اليمنيين الذين عرضوا برجال ألمع وسكان ظهران الجنوب وغيرهم من بلاد عسير ومايليها وهى قصيدة حسنة يقول فيها:

كم وطدوا بالمواضى ... دين الإله الحميد[1]

وطوعوا كل عات ... وبعرض وشريد

وشاد للملك صرحا ... مامثله كل طود

عبد العزيز المفدى ... أبو الرجال الأسود

حامى حمى الدين فينا ... بسيفه والجنود

وافي الذمام أبيي ... أمين كل العهود

وله قصيدة أخرى مدح فيها الأمير تركي بن أحمد السديري أمير الجنوب ـ رحمه الله ـ ومنها هذا المقطع الذي يذكر في صدره الأمير تركي ثم يصل الحديث عن الملك عبد العزيز:

به ابتهجت أبها سرورا وأطربت ... بلاد (عسير) و (ألمع) وبنى شهر[2]

فيا أيها المقدام يا نجل (أحمد) ... نعمت بحسن السعى والفوز والبر

هنيئاً لكم فزتم بما لم يفز به ... سواكم لدى سامي السيادة والفخر

وحيد العلا (عبد العزيز) إمامنا ... إمام الهدى بحر الندى مفرد العصر

إمام لشمل الملك والمجد جامع ... وحسن الثنا والذكر في اللف والنشر

ساعيه للعليا ونفعه للورى ... فكم من فضل وكم له من أجر

---

(١) نفحات من عسير جمع محمد بن ابراهيم الحفظي ص ٢٠٦.

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٩.

وهيهات أن أحصى محاسن وصفه ... ومن ذا يحيط أرمل بالعد والحصر
محامد فعل الراشد من فعاله ... وقد كان هذا شأن أسلافه الغر
له ولهم في المجد أعلى مكانة ... فمانهم إلا (إمام) وذو قدر
وأفعالهم وأخبار فضلهم ... فتكفيهم فخرا عن المدح والشعر

الشيخ حسين بن غنام :

وكان الشيخ حسين بن أبي بكر بن غنام من علماء الإحساء نزح إلى الدرعية وتتلمذ على الشيخ الإمام حتى نال حظاً وافراً من العلم وكان قد عرف بإجادة النحو والصرف والعروض قبل أن يفد على الدرعية ولذا جلس لطلاب العلم في فنون العربية والعروض.

وكان إلى علمه شاعراً مجيداً إذا ماقيس بأهل زمانه ، وتوفى رحمه الله بالدرعية عام ١٢٢٥هـ.

ولقد واكب الشعر دوله آل سعود من أيام نشأتها الأولى ومايزال يؤيدها ويجد في مواكب انتصاراتها في كافة الميادين ابتداء بالعسكرية وانتهاء بالعمرانية.

وأحسب أن الشعر في صدر الدولة كان أكثر حفاوة بالانتصارات الدينية والعسكرية وأنه كان أقوى صلة بزعماء الدولة وقادتها، غير انه لم يحفظ لنا منه إلا القليل ودليلنا على ذلك وفرة ما اثبته احد أولئك في احد مؤلفاته ونعني الشيخ المالكي الاحسائي، حسين ابن أبي بكر بن غنام الذي اثبت في تاريخه المسمى (روضة الأفكار والأفهام) من قصائده في مدح الإمامين، عبد العزيز بن محمد وسعود بن عبد العزيز الكثير فلقد ضمنه من القصائد ستا فيها ماينيف عدد أبياتها على ثلاثين ومائة بيت.

وأول هذه القصائد تلك التي نظمها في رثاء من مات من جند الإمام عبد العزيز بن محمد في الموقعة التي كانت بينهم وبين جند (حسن بن هبه الله) النجراني سنة ثماني وسبعين ومائة والف على ارض الحائر.

يقول الشيخ ابن غنام في مطلع القصيدة :

عين جـــودي بـــواكـــف هـــتـــان واســكـي عــبـرة مــن الأجـفـان[1]

وفي آخرها يقول :

صــدقــوا بــه عــلـيــه ووافــوا ومــضــوا مــســرعين لـلـغـفـران
فـأنـيـلـوا الحـياة مع مشتها الجنات والحـــور فـــي رفـيـــع المـكـــان

وانـقـضـى راجـعـا بـخـزي وذال مـن أتـى غـازيـا مـع الخـسـراني

وفي عام ثمانية وسبعين ومائة وألف حاصر ابن عريعر الدرعية حصاراً شديداً فلما فرج الله لأهلها بأن كتب لهم النصر بقيادة الإمام عبد العزيز بن محمد وهزم ابن عريعر وجنده شر هزيمة فرح ابن غنام بهذا النصر ونظم فيه قصيدة طويلة مطلعها :

نـفـوس الـورى إلا قـلـيـل وكـونهـا إلـى الغى لايلقى لدين حنينها[2]

فـسـل ربـك الـتـثـبـيـت اي موحد فأنت عـلـى السـمـحـاء باد يقينها

وبعد ماطمأن قومه مذكراً لهم أنهم على الحق وأن عدوهم في باطل وظلال، أمرهم بالصبر الذي هو زين المرء ونهاهم عن الخوف والجزع مهما اشتدت الأمور لأن الله يتبع الضيق بالفرج السار للمؤمنين ثم أخذ في وصف جيش ابن عريعر والحديث عن نواياه التي أولاها عند ذلك الجيش الباغي القضاء على الإسلام، وماذاك منهم الإظلال أملته الشياطين.

ويمضي ينسج على هذا المنوال إلى أن يقول :

لـقـد زاغـت الأبـصـار ساعة أقبلت بـنـوخـالـد أضـعـانهـا وضـغـينهـا

ولـكـن ولـي الـنـصر تـثـبـت أهلـهـا كما هـو فـي دفـع أعـادي يعينها

فـقـام بهـا عـبـد الـعـزيـز مـشـمـرا وسـاعـده عـنـد الحـروب متينها

(١) (روضة الأفكار والأفهام) للشيخ حسين غنام الطبعة الاولى ١٣٦٨ هـ جـ ٢ ص ٦٧.

(٢) روضة الافكار والافهام للشيخ بن غنام جـ/٢ ص ٧١.

فآبت قلوب الناس من بعد طيشها وقرت عيون واستسر حزينها

وبعد وصف جيش الأمير عبد العزيز بالبسالة والشجاعة ومضاء العزائم والسيوف، ختم القصيدة بقوله:

أبى الله أن تعلو على الدين راية فتربو ضلالات ويسمو مهينها
وأن يقع الفساق في ذلك الحما ويهتك من تلك العوالي حصينها
فلا زالت البيضاء يسمو منارها ويزهو محياها ويصفو معينها
بحكم إمام المسلمين وعدله تحاط نواحيها ويحما عرينها
ولا برح المولى معزا ناصرا سعودا الذي يهوى العلا ويزينها

وفي عام سبعة وثمانين ومائة والف انتصر الجيش الذي قاده الأمير عبد العزيز بن محمد، ففتح الرياض، وأخرج منها عدواً كان من ألد أعداء الدعوة فاستمرت الحرب بينه وبين آل سعود ثلاثين عاماً حتى كتب الله عليه الهزيمة في هذه السنة (١١٨٧هـ) ففر وفلول جيشه إلى الخرج وهلكوا ظمئا إلا قليل.

فقال ابن غنام في ذلك قصيد مطلعها :

كشف الحق ظلمة الأفلاس ومحا الدين زمرة الأرجاس(١)
وأزال الصباح ديجور ليل طالما ساعد الأسىٰ باحتباس

وفيها إعلان بالفرحة التي عمت بهذا الفتح وثناء على أولئك الأبطال الذين تحقق على أيديهم ذلك النصر وبخاصة الأمير عبد العزيز قائد الجيش ومن قوله فيه :

كم بدا من سعود سعود وفتوح ومفخر لأناس
قد علت رتبة الشريعة لما شاد أركانها بأقوىٰ أساس

(١) روضة الافكار والافهام للشيخ بن غنام جـ ٢ ص ٨٦، ٨٧.

وكان ابن فيروز قد نظم قصيدة يشجع فيها ثويني الذي استعدا الأتراك والعراقيين على آل سعود، ومطلع هذه القصيدة :

أنامل كف السعد قد أثبتت خطا ... بأقلام أحكام لنا حررت ضبطا

وكان ذلك في سنة عشر ومائتين والف — فرد عليه ابن غنام بقصيدة صافية قال في مطلعها:

على وجهها الموسوم بالشئم قد خطا ... عروس هوى ممقوتة زارت الشطا[1]

وكان ابن فيروز قد وصف الإمام محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود وعبد العزيز ابن محمد وسعود بن عبد العزيز بأنهم طواغيت.

وكان من رد ابن غنام عليه في هذا قوله :

سمت عصبة التوحيد عما يشينهم ... وعن وصفهم بالكفر لكنه أخطا

أيوصف بالطاغوت من جدد الهدا ... وأحيا أصول الدين والسنن الوسطا

وأعلن بالإسلام والدعوة التي ... لها كشطا المختار رأس العدا كشطا

ومنها :

يكفّر قوما بالكتاب تمسكوا ... وبالهدى والإجماع ماخلفوا شرطا

ويمضي مع هذه القافية العصيه يطوعها لنسج الأبيات في مدح الدعوة وزعمائها، وبيان وجه الحق فيها، ووجه الباطل في سواها حتى يفضى به القول إلى هذا المدح الذي صيغ في أسلوب الدعاء فيقول:

جزا الله عنا الخير أبناء ملة ... بهم عادت النعما وقد شحطت شحطا

لقد رفعت أعلامهم بأميرهم ... وأبناء أسد الحرب بأسهم اسطا

---

(١) روضة الأفكار والأفهام للشيخ حسين من غنام جـ ٢ ص ١٨٩.

بهم أسفرت شمس الدجا بعد جنحها وزال ظلال الشرك من بعد مارطا
ذوو الحزم والتسديد والعزم والنهى وأهل المعالي والفخار بهم ينطا
يذودون عن ورد الدنيا نفوسهم و يسخون في نيل المزايا بهم سفطا
وقد بذلوا في ذا النفوس فأحرزوا به العزيا طوبى لمن أدرك القطا
وقد ولى الإحساء سعود فأسعدت ساعيه أهل الخير فانتظموا سمطا
وأبعد أهل الشرك عنها وأبعدت مذاهبهم فيها وما أبصروا خمطا
وقرر أرباب الوظائف كلهم حرما شاهدوا في كل أوقافهم هبطا
مدارسهم معمورة بعلومهم وماثبطوا عن نشر أحكامهم ثبطا

إلى أن يقول :

عسا الله يعلى في الجنان محمدا و يولى الرضا عبد العزيز الذي وطا
ويحرسه عن كل سوء ونسله و يبقى سعوا في سعود وفي ابطا
أبا عمر هنيت وليهنأ الورىٰ بما نلت والتوحيد نال بك البسطا
إليك القرىٰ والمدن ترنوا عيونها تمناك ترعاها فتملأها قسطا
وترتاح في عليا سعود ونصره وتغبط نجدا والحسا الآن والخطا
فجهز لها المنصور بالبشر تلقه وتغرس إكراما لإقدامه بسطا

وفي عام ١٢١٢هـ وبعد أن قدم سعود بن عبد العزيز الإحساء بعد مقتل ثويني نظم ابن غنام قصيدة يهنىء فيها الإمام عبد العزيز وابنه سعود بذلك النصر مطلعها:

تلألأ نور الحق وانصدع الفجر وديجور ليل الشرك مزقه الظهر(١)

(١) روضة الافكار والافهام جـ ٢ ص ٢٣٧.

وكلها إعلان بالفرحة والاستبشار بذلك النصر الذي كشف الغمة واستنقذ الامة من أيدى اولئك الأعداء الذين أرهقوا البلاد والعباد حتى ضاقت الأرض بأهلها مما تلاقيه من ظلم وفساد وذل واستعباد حتى أنقذها الله منهم بآل سعود الذين أزاحوا الظلام ونشروا الإسلام.

ثم تحدث عن زعيم الدعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب وذكر أن الدعوة باتت ثابتة الأقدام ممتدة الذكر بعد أن مضى عليها خمسون عاماً، ثم أفاض من الثناء عليها وعلى زعيمها حتى أفضى به القول إلى الحديث عن مناصرة آل سعود للإمام وشدهم أزره حتى استطاع نشر دعوته بعد أن تخلى عنه الأهل والأحباب.

نفته العدا لما جفته أقارب ... فألواه بل سواه من خصمه البر
فجاهد حتى اطلع الله بدره ... بآل سعود حين شدله الأزر
فهم أنجم للمهتدين وصارم ... شباه بهام المعتدين له طر
لقد أحرزوا قصب الفخار فأبرزوا ... من الدين مطويا فلاح له نشر
فأضحت بهجر شرعه الحق غضة ... وصوخ بنت الشرك وانقطع البذر
بهدي إمام المسلمين ومهده ... أضاءت نواحيها وبأرجاؤها سفر
تهن بهذا الفتح يا ابن محمد ... فقد تم للدين القويم به فخر
هنيئا لك الفتح الذي فتحت له ... السموات والفردوس وافتخرت هجر
هنيئاً لك الفتح الذي طأطأت له ... جباه الملوك الصيد واتضع الكبر
فهذا هو الفتح الذي بضيائه ... تهدل وجد الدهر وابتسم الثغر
وهذا هو الفتح الذي جل قدره ... فليس بمحص فضله النظم والنثر
فلله فتح طبق الأرض صيته ... وهزت له البلدان وارتعدت مصر
بك الدين ياعبد العزيز مؤيد ... يعززه بالبيض أبناؤك الغر

فـراع جـنـاب الخـلـق وارعـهـم		بـعـدل وإحسان لـكـي يـعـظـم الأجـر
وأحسـن إليهـم واعـف عنهم ولا تطع		بهـم قـول واش جـل مـقـصـوده الـتبر
يـسـارع فـي سـخـط الإلـه تـقـربـا		إلـيـك لـكـي يـدنـوا فـيـنـمو الوفر
ولا تـصـطـفـى للـنـصـح الإ مجـربـا		تـقـيـاً نـقـيـاً لـيـس فـي قـلـبـه وحـر

إلى أن يقول :

أسـاء الأعـادي ظنهـم فـيـك فاعتـدوا		ومـا عـلـمـوا ماينـتـج الـرأي والـفـكـر
فـظـنـوا سـفـاهـا أن حـزمـك راز		وعـزمـك مـعـقـول اليمين بـه حصر
وأنـك وإن بـعـدادلا جـك الـسـرى		وحـدك مـن بـعـد المـضـاءبـه دثـر
وقـد عـرفـوا مـنـك الـشـهـامـة والـدهـا		ومـن بـأسـك المـشـهـور عـنـدهـم الخبر
فـأنـسـاهـم الـشـيـطـان ممـايـعـرفـونـه		لـيـقـطـع منهـم حيـث أغـواهـم الـدبـر

ويمضي في مدح الإمام عبد العزيز ونصحه على هذا النحو الذي أطلنا الوقوف لأنه يريك كيف كان يخاطب العلماء حكامهم العادلين، ويمضي على هذا النحو حتى يفضى به القول إلى الفخر بشعره:

ودونـك مـن خـرد الـقـريـض خـريـدة		يجـل سـنـاهـا أن يمـاثـلـه الـدر
اتـتـك وخمـر الـنـيـة يهـصر عـطـفـهـا		عـسـا أن يرى حـسـن الـقـبـول لهـامـهـر

وابن غنام من شعراء العلماء الذين وقفوا قولهم على الدعوة، وزعمائها يثنون عليهم ويمدحونهم في حياتهم، ثم يبكون عليهم بعد مماتهم، وهم في هذا وذاك يرون الإسلام منطلقهم وهدفهم فيه يحبون و يكرهون ومن أجله يتحدثون و يكتبون ولقد اختار الله آل سعود ان يكونوا حماة هذا الدين فحق على علماء المسلمين نصرهم وتأييدهم وحقت على الناس طاعتهم انقيادا لما أمر به البارى تبارك وتعالى في كتابه العزيز وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام.

ولا بن غنام شعر كثير استشهد بكثير منه المؤلفون مثل الشيخ عثمان بن بشر، صاحب عنوان المجد في تاريخ نجد، وسأذكره مما لم يرد في تاريخ ابن غنام نفسه:

قصيدة نظمها في تهنئة الإمام سعود بن عبد العزيز بمناسبة سفره للحج ومطلعها:

غياهب ليل الشرك ممزقة الفجر	فأصبح دين الحق طالعه الغفر[1]
فياطالب الغفران والعفو والرضا	لقد نزع الفحشاء والبغي والمكر
لنا فتح الرحمن أبواب عفوه	فقال : ادخلوا فيها وعن غيرها غرو

ومما أورده ابن بشر أيضاً من شعر بن غنام قصيدة يرثى فيها الإمام عبد العزيز ابن محمد ويثنى على ابنه الإمام سعود وهى قصيدة طويلة، منها :

فكم قام في الحرب الضروس مجاهدا	يطاعن سن غر الأنام أواغتروا[2]
رمته بقوس البغض كل قبيلة	فحل من الباري على قلبه الصبر
نجاهدهم بالتقوى مع بؤس قومه	وسل عليهم من عشيرته تبر
هو اللوذعي عبد العزيز الذي به	أقر في عدله البدو والحضر
رفيق شفيق عالم متورع	عفيف نظيف لاسؤم ولا ضجر
ثمال اليتامى الحي روض ربيعهم	لهم كفة خصب وإن أجدب الدهر
يعيشون مسرورين في ظل قصرة	فأكرم به حقا ومن ضعه القصر
فإن غاب نجم الجود في أنف الثرى	فقد يذهب الماء المعين به الغور
وإن نبكه فالغيب يبكي لفقده	فقد يبكي الخنساء مفقودها صخر
سقى الله جد ثاهل فيه سحابه	له العفو روض، والسحاب له قطر

(١) عنوان المجد فى تاريخ نجد الشيخ عثمان بن بشر جـ ١ ص ١٢٣.
(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٢٣٤.

وماكان من شخص أبو سعد نجله | فذكراه في الأحياء إن ضمه القبر
فتى سار في طرق المكارم وارتدى | برود التقى والجود من فوقه الفخر
لقد مهد الدين الحنيف بسيفه | وهدم ركن البغى فانهدم الجور
فكم جر أرسال الجياد على العدى | فصاولها في أرض أعدائه أمر
عليها رجال في الملاقات صبر | كأنهم من فوقها أنجم زهر
يحفونه في كل وقت وساعة | ولكنه فيهم ومن بينهم بدر
إذا شن يوما غارة هزبرية | يحل على أعدائه القتل والأسر

ولأحد شعراء عمان قصيدة في الثناء على الإمام سعود بن عبد العزيز، أورد ابن بشر منها في تاريخه ثلاثة أبيات هي :

إذا جزت باب السيف تلقاه فارساً | وإن جزت باب العلم تلقاه عالما[1]
وإن جزت باب الخوف تلقى مخافة | وإن جزت باب السلم تلقى مسالما
وان جزت باب الدين تلقى ديانة | وان جزت باب الحكم تلقى حاكما

رحمة بن جابر :

كان هذا الشاعر من الأمراء والقاده المقدمين لدى الإمام سعود الأول، وقد ولاه إمارة بعض البلاد الشرقية على الخليج كالدمام والخوير، وكان إلى وفائه وإخلاصه شجاعاً باسلاً.

وحين كتب الله على الدولة السعودية الهزيمة وخربت الدرعية نظم في ذلك أشعارا منها قصيدته الداليه التي اثنى فيها على أئمة الدعوة من آل سعود وآل الشيخ ومنها:

وكان بنوه في الطريقة بعده | وأنصارهم أهل الشجاعة والندى[2]

---

(١) عنوان المجد لعثمان بن بشر جـ ١ ص ٢٤٤.
(٢) نفس المرجع جـ ٢ ص ٣٤.

قـيـامـاً بحـمـد الله فـي نصر ديـنـه　　　وقـد حكمـوا فـي المـشـركين الهـنـدا

ثم استقل بتلك البلاد بعد أن تغلب على كثير من منافسيه، وفي عام ١٢٤٢هـ اتحد أعداؤه من بني خالد، وآل عر يعر وآل خليفة واجتمعوا على حربه فقتل في معركة ضارية ساعدتها عليه ظروف وملابسات.

عثمان بن عبد العزيز منصور :

والشيخ عثمان بن منصور أحد علماء سدير الذين امتدت شهرتهم العلمية حتى قصدهم المستفتون من كل مكان.

وللشيخ عثمان بن منصور مؤلفات جيدة من أهمها (شرح كتاب التوحيد) للإمام محمد ابن عبدالوهاب ، وتوجد منه نسختان مخطوطتان في مكتبتى عالمين من علماء بلادنا.

وكان الشيخ عثمان من العلماء الذين يجنوحون إلى نظم الشعر فيما لايعبر فيه عن المشاعر والإحساسات إلا الشعر والذي أثر عنه فيه كان لايعدو ميدان مدح العلماء والأئمة ورثاء من اختاره الله منهم.

ومن أهم مراثيه التي نظمها في رثاء الإمام تركى بن عبد الله، مجدد دولة آل سعود ومؤسس الدور الثاني من الحكم السعودي ـــ فلقد قتل الإمام تركى في يوم الجمعه آخر ذى الحجة ١٢٤٩هـ يقول ابن بشر (وقدر ثاه رحمه الله عدد كثير من الشعراء ولكن ليست على اللفظ العربي فلا تليق بهذا الكتاب).

ثم ذكر رثاء الشيخ ابن منصور له واورد من مرثيته ما أورد وهى قصيدة حسنة حوت إلى رثاء الامام تركى مدح آل سعود والإمام محمد بن عبد الوهاب وأبنائه.

و يقع في القصيدة شيء من الأخطاء، يبد وأنها تحر يف وتصحيف يقول الشيخ عثمان في صدر القصيدة:

أبرق بدا من جانب الشرق يكشف　　　يـذكـر ألافـا وللـد مـع يـنـشـف[1]

---

(١)　عنوان المجد لعثمان بن بشر جـ ٢ ص ٧٦.

وفي القلب للأحزان وشركأنه | مناشر نشار من القلب تشلف
لرزء عظيم حل في ربع ديننا | إمام الهدى فيه القرابين تغلف

وفي آخرها يقول :

اتاح لنا ربي الإله بفضله | عن الفتنة السودا إماما يؤلف
إمام الهدى تركي لله دره | على الدين قواما لمن يتعسف

السيد عبد الجليل بن السيد ياسين :

والسيد عبد الجليل شاعر بحريني ولد بالبصرة عام ١١٩٠هـ وتوفى بالكويت عام ١٢٧٠هـ ذكر ابن بشر أنه مدح الإمام فيصل بقصائد كثيرة بعضها فصيح وبعضها عامي، وأثبت له في تاريخه قصيدة طويلة نظمها في مدح الإمام فيصل بعد عودته من مصر، وذكر الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف محرق (عنوان المجد) أنها مثبتة في ديوان الشاعر المطبوع ولم أره ولم يذكر الشيخ عبد الرحمن وجود قصائد اخرى في ديوان، كمالم ينف وجود شيء، فلعل فرصة تتاح للاطلاع عليه.

ويبدو من هذه القصيدة التي أوردها ابن بشر أن الشاعر السيد عبد الجليل على جانب كبير من إجادة الفن الشعري ومن القدرة على جمع مايتمدح به من جميل الصفات، وجليل الخلال في عقد من الشعر نضير يزين سيرة الممدوح، على ان ماصاغه في مدح الامام فيصل لم يكن سوى صوغ جميل لما عرف به الإمام من سجايا وخلال.

ولقد افتتح قصيدته هذه بقوله :

لرب العلى أهل الثنا وافر الحمد | على نعم جلت عن الحصر والعد[1]

ثم اخذ يتنقل في صفات الإمام ومامن الله به على البلاد والعباد في عهده من أمن وطمأنينة واستقرار، وتمكين لأ وامر الشرع ونواهيه. ولقد أعجبني جمعه صفتي البسط والقبض المحمودين ليمين الإمام وذلك في قوله:

(١) عنوان المجد لعثمان بن بشر جـ ٢ ص ١٣٧.

لـه راحـة في الجود تـغـنـى عن الحيـا إذا بـخـلـت أيدى الكـرام عـن الرفـد
نـفـى الـعـدم عن سوح الموالين بذلـه فـاحـل فـي أرجائـهـم عـارض الجـهـد
مـعـودة بـسـطـا سوى قبضـهـا عـلى أعـنـة قـب الأعـوجـيـات والجـرد
كـذا قـبـضـهـا يـومـا بـقـائم عـضـبـه إذا اسود لـيـل الـنـقـع وابيض ذو الحد
يـكـربـه يـوم الـوغـى كـرعـا شـق وقـدبـات من وصل الـغـواني عـلى وعد

وفي آخر القصيدة يبث إلى الإمام الشكوى مما أصاب البلاد والعباد قبل أن يمن الله بعودته وتمكينه فيقول:

وأنهـى الـيـك الحـال مذغبـت غالـنـا بـغـيـبـتـك الـدهـر الـعـبوس عـلـى عـمـد
حـوادث جـاءتـنـا بـكـل مـلـمـة وأيـسـرهـا يـلـهـى الـوفـود عـن الـود
جـلاء وتـنـكـيـد وغـرم وذلـة ولانـاصر لـلـحـق ذو نخـوة يجدي
وقـد أوحشت مـنـا الـديـار ونـالـنـا من الـبـؤس مالا يـلـتـقـى اللحـم بالجلد
وحـسـبـك مـانـلـقـاه مـن ألم الأذى مفارقة الأوطـان والأهل عـن قـصـد

وفي الإمام سعود يقول عبد الجليل بن السيد ياسين :

بـعـون الله رب الـعـرش جـل ثـنـاؤه وتـأيـيـد تـاج الملـوك الـقـمـاقـم
سـعـود أدام الله أيام سـعـده وكـان لـه الإقـبـال خير مـلازم
إمام الهدى بحر الـنـدى من سقى العدا كـؤوس الردى حتى اهتدى كـل راغـم
أخـوهمة يـسـتـصـغـر الخـطب عـنـدهـا وتـعـلـو عـلى هام الـسـهـى والـنـعـائم
إذا نـزل الأمـر الـفـظـيـع رأيـتـه هـوضـا بـأعـبـائـه بـهـمـة حـازم
لـه عـزمـات تـتـقـى الأسـد بـأسـهـا بهـا الله عـنـا زاح هـول الـغـظـائم

إمـام حـوى مجـدا وعـز مـنـاقـب فـلـيـس لـه فـي فضـلـه من مزاحـم
إذا رمـت عـلما فـهـو فـي العـلـم لجة تـدفـق بـالـدر الـنـفـيـس لـنـاظـم
وإن رمت جـودا فـهـو كـالـغيـث للورى إذا اخـلـفـت ايـدى الـسحـاب الراوكـم
ورأى سـديـد يـسـتـضـاء بـنـوره إذا عـم أمـر الـمـعـضـلات الـكـوالم
وحـلـم رزيـن لايجـارى بـبـعـضـه ألـيـس محـاكـى الـراسـيـات بـواهـم
وطـاع لـه عـرب الـقـبـائـل كـلـهـا وإنـا لـنـرجـو الله طـوع الأعـاجـم

الشيخ أحمد بن إبراهيم بن عيسى :

الشيخ احمد بن ابراهيم بن عيسى، أحد علماء شقرا المشهورين ولد عام ١٢٥٣هـ وتوفي عام ١٣٢٧هـ، تولى القضاء في سدير قبيل وفاته وعزل منه.

وكان كسائر علماء نجد إخلاصاً لآل سعود، وبذل المستطاع في النصح والعون والتوجيه.

وحين منى آل سعود بتفرق الكلمة فتمزق سلطانهم، كتب الشيخ قصيدة (١) إلى الإمام عبد الله بن فيصل يحثه فيها على نبذ الخلافات والعمل على جمع الكلمة ويذكره وزعماء آل سعود بماضيهم المجيد ويخص بالذكر الإمام فيصل بن تركي، ويحفز هممهم بتصوير حالهم تصويراً مؤثراً أراد من ورائه ان يكون حافزا لهم على استعادة مجدهم وسلطانهم، ثم يعود في آخرها فيحسهم ويعزيهم بمايشبه الثناء والمديح وذلك في قوله:

أيا مفخر العوجا (٢) ذوي البأس والندى أجـيـبـوا جمـيـعـا مـسـرعين وبـادروا
عـلـى الله ذى الـرحمـن جمـعـا تـوكـلـوا إذ يـقـوا الـعـدى كـأس الردى وتـوازروا

---

(١) عقد الدرر ــ فيما وقع في نجد من الحوادث في اخر القرن الثالث عشر وأول الرابع عشر للشيخ ابراهيم بن عيسى ص ٩٧.

(٢) العوجاء، فيما يروى فرس لاحد فرسان آل سعود اشتهرت بطولها وخفتها في الكر والفر، وفي احد انتصاراتهم قال رجل من خصومهم (انتصر أهل العوجاء) يعنى الفرس فذهبت فيهم مذهب المثل.

أجيبوا جميعاً مسرعين إلى الهدى فليس بكم إلا القلا والتشاجر
وأجدادكم أهل النباهة والعلا ألا فاقتفوا تلك الجهود الغوابر
فكم لهم يوم به الجو مظلم وقد نشرت للحق فيه شعائر
وجدكم الأعلى لدى حسومه الوغى به قطعت للمعتدين دوابر
وكم لكم من فاتك تعرفونه أوائلكم معروفة وأواخر
فما فارس الشهبا وما الحارث الذي أباد لظاها والرماح شواجر
وإن ذكرت أركانكم ورؤسكم فإن أباتركى ليس بغادر

البحث السادس

الإمام فيصل بن تركي

في شعر الشيخ الشاعر أحمد بن مشرف

لم نجد من الشعراء بعد الشيخ حسين بن غنام من عُنى بأحداث الدولة السعودية مثل عناية الشيخ ابن مشرف، ذلك العالم الشاعر الذي أخلص في سره وعلنه للدعوة وزعمائها، فنظم كثيراً من شعره في مدحهم، والدفاع عنهم، والرد على أعداء الدعوة، وله في ذلك ديوان طبع ثلاث مرات ولكنه لم يجد عناية من الباحثين، كما أن الناشرين لم يحسنوا في إبراز محاسن هذا الديوان، كما لم يحسنوا في إرشاد القارىء إلى محتوياته عن طريق ثبت منظم للقصائد.

أقول ذلك لأني حين استعنت بثبت محتويات الطبعة الثالثة لم أجد فيه نصاً على قصائد الشاعر في الإمام فيصل غير قصيدتين، ولو لم أكن قد قرأت الديوان من قبل وعلمت أن فيه الكثير عن الإمام فيصل لصدقت «الثبت» ولم أورد له هنا غير تينك القصيدتين.

من هنا كان عليَّ أن أتصفح الديوان صفحة صفحة، وهذا ما فعلت، فخرجت من ذلك بست وعشرين قصيدة في الإمام فيصل، رحمه الله.

ونتيجة لذلك عزمت بمشيئة الله أن أنظمه في المستقبل إن شاء الله وأخرجه بعد التنقيح والتعليق إخراجاً جديداً ييسر الاستفادة من هذا السفر الجليل.

ولقد كان ابن مشرف رحمه الله يقيم في الاحساء، ولكنه كان يلاحق أخبار الإمام وانتصاراته ملاحقة المحب لنهجه وسيرته؛ لأنه رأى فيه ـــ كما هو الواقع ـــ الرجل الأمثل لقيادة الأمة والنجاة بها من حياة الفوضى والاضطراب اللذين حلا بالبلاد بعد عهد الدولة السعودية الأولى، وذلك بعد أن فتح له والده الإمام تركى الطريق.

من هنا وجدنا ابن مشرف يوالى نظم القصائد في الإمام فيصل وإرسالها إليه في الرياض، إذا لم يتيسر له السفر إليه.

وأولى قصائده في الإمام نظمها في عام ١٢٤٥هـ وآخرها في رثائه رحمه الله عام ١٢٨٣هـ.

وكان ابن مشرف في تلك القصائد كما كان في جميع شعره يجعل للدين المرتبة الأولى في الاهتمام، وهذا يفسر لنا سر اهتمام هذا العالم الشاعر بالإمام فيصل بن تركى، فهو ـــ

أعنـي الإمام ـ رجل صالح تقى، وإمام عادل لم يسفك دما حراماً بشهادة المؤرخين والعلماء ورجل كريم مفضال، وبخاصة على المحتاجين من فقراء وأرامل وأيتام وأشباههم، وفارس شجاع مقدام لم تهزم له راية ولم ينب له حسام، ثم هو عالم جليل له يد في التفسير والحديث والفقه والسير والتاريخ، فلا بدع أن خصه ابن مشرف بخرائد شعره وعيون نظمه دون سائر الامراء الذين كان يستطيع أن يستدر هباتهم ومنحهم لو كان من طلاب المال أو الجاه، ولكنه عالم تقى لايمدح ولا يذم إلا في الله، فرحم الله ابن مشرف وجزاه خير الجزاء.

قصائد ابن المشرف في الإمام

وأقدم ما عثرنا عليه من قصائد في الإمام (اللامية) التي نظمها في مناسبة استنقاذ الإحساء عام ١٢٤٥هـ ومنها

والمال يربو لمن ربى رعيته بعدله ونفى للظلم أغلالا[١]

وفي الثناء على ذلك الفتح، وبيان أثره الحميد على (الإحسا) يقول:

واه لها وقعة من أفقها طلعت شمس الهدى فمحت للشرك أطلالا
فتح به فتحت للدين أعينه فأبصرت بعد دمع طالما سالا
فتح به فتح الرحمن أفئدة غلفا أدار عليها الرين أقفالا
فتح به استبشرت هجر وقد فخرت لما ملكت بها مدنا وأعمالا
أثواب عدلك قد ألبستها جددا من بعد أن خلعت للظلم أسمالا
فيها بثثت أمور العدل فانتشرت وحكم الشرع أقوالا وأفعالا
فأصبحت بك هجر كالعروس زهت بحليها، لم تذر شنفا وخلخالا

(١) ديوان ابن مشرف الطبعة الثالثة، مطبعة السنة المحمدية ص: ٨٦.

ماست من التيه واختالت وحق لها ... بـزينـة الـعدل أن تـزهـو وتختـالا

تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيباً بماء فعاد بعد أبوالا

فأحمد الهك إذ ولاك أنعمه ... واشكره مادمت، تعظيما وإجلالا

وهاك منى قريضا قد حوى دُرَرا ... ما ان ترى مثلها في الحسن أمثالا

جهد المقل وقد أهداه معتذرا ... لأخيل عندى أهديها ولا مالا

وفي عام ١٢٥٠هـ أخذ الإمام فيصل الثأر في أبيه من قاتله ابن عمه مشارى بن عبدالرحمن، فنظم ابن مشرف في ذلك قصيدة (لامية) أيضاً بدأها بالحديث عن البذل والجود مشيرا فيها إلى أن الحاكم الحازم هو ذلك الذي يكرم جنوده في الرخاء والشدة على حد سواء. ولعل حالا لحظها ابن مشرف في سياسة مشارى أو سواء فأملت عليه مثل هذا الحديث الذي ساقه مساق النصح للإمام فيصل، ثم نظم مايشبه الحكاية لحكم مشارى ثم قضاء الإمام عليه، ومن ذلك قوله:

ما راعك الخطب الذي قد شابهت ... أيامه ظلمات ليل ألْيَل[1]

لكن جليت ظلامه بلوامع ... وبسهم عزم كالشهاب المرسل

سيان حالك في المسرة والأسى ... جلدا، وذا شأن اللبيب الأكمل

ما جاش جاشك في الحوادث إذ دهت ... في فتنة تغلى كغلى المرجل

أذكى الجهول ضرامها لسفاهة ... كي يستضيء بنورها فبها صلى

قطع الذي أمر الاله بوصله ... فلأجل ذا أسبابه لم توصل

وجنى على الإسلام شر جناية ... فأقر عين أخى النفاق المبطل

فأحل منتهكا لحرمة مسلم ... ملك، فعوقب بالعقاب الأعجل

(١) ديوان ابن مشرف : ص : ٨٨.

طلب العلو ببغيه وبظلمه ... جهلا فرد إلى الحضيض الأسفل
ولأجل نصرة نفسه بذل القوى ... لكن من خذل المهيمن يخذل
حتى إذا ملك الخزائن واستوى ... جهرا على القصر المشيد الأطول
ملأ الإله فؤاده وصحابه ... رعبا، وصاح به القضاء الأنزل
لاتحسب الملك القصور وما حوت ... من آلة للحرب أو متمول
بل مالك الملك الإله وإنه ... جعل الخلافة في الإمام الأعدل
جمع الإله له القلوب فأجمعت ... كل النفوس على إمامة فيصل
وانقاد كل المسلمين لأمره ... طوعا وتلك مواهب المتفضل
حتى إذا حدق الخميس بمن بغى ... حنقا وجد به الذي لم يهزل
عض على طرف البنان، وقال من ... فرط الأسى : ياليتنى لم أفعل
فهناك أيقن أن أنجم سعده ... أفلت وطالع نحسه لم يأفل

وبعد فراغه من تصوير الحال الذميمة التى صار إليها مشارى وأعوانه قدم وافرا من النصح للإمام فيصل.

وفي عام ١٢٦٣هـ أزمع الشاعر الرحيل إلى الرياض حيث الإمام فيصل فنظم قصيدة في مدحه، لكنك تحس الاستجداء في كل بيت من أبياتها.

لقد بدأ الشاعر قصيدته بالشكوى من الحادثات والنوائب، والزمن الذي يذل العالم ويعز الجاهل، ثم من عيشه المنغص، الا أن هذه عادة الدنيا تهين أرباب النهى وتكرم الأراذل والسفهاء، ثم عاب الدنيا بكونها تعز عند الإقبال وتذل عند الإدبار؛ فهى لا أمان لها وهكذا يمضي حتى يقول:

لبست لها ثوب التجلد منشدا ... إذا لم يسالمك الزمان فحارب[1]

(١) ديوان ابن مشرف ص : ٤٤.

وساءلت : هلى في دهرنا من مساعد ... على جبر مطلوب وإسعاف طالب
فلم أر إلا الالمعى أخا الندى ... إمام الهدى نسل الكرام الأطايب
كريم المساعى فيصل من يراعه ... على طرسه يحكى هتون السحائب

ثم يصف رحلته إلى الرياض وما لقيه فيها من عناء، إذا أفضى به المسير إلى حيث الإمام ارتاح وارتاحت مطاياه، ثم خاطب الإمام بما هو أهل له من كرم وشجاعة وعلو همة، وأن الآتين إليه يرجعون وقد ملئت حقائبهم، بعد أن كانت فارغة قبل الوفود عليه.

وفي العام نفسه ١٢٦٣هـ نظم قصيدة أخرى لم يشر إلى سببها غير أنها مدح للإمام فيصل وثناء عليه بمثل ما حوته القصيدة السالفة، ومطلع هذه القصيدة :

ليال المنى جادت علينا بأسعد ... لدن جمعتنا بالإمام المسدد (١)
حليف المعالى «فيصل» من سمت به ... مناقبه فوق الثريا وفرقد
تفرع عن روح المكارم وانتمى ... من الحسب السامى إلى خير محتد
كريم السجايا ماجد من أماجد ... بنوا في المعالى كل فخر وسؤدد
ولكنه أضحى باعلا أرومة ... يقصر عن إدراكها كل سيد
إمام الهدى جالى الصدى منهل الندى ... ومردى العدا بالمشرفى المهند

وفي هذا العام أيضاً ١٢٦٣هـ رحل الشاعر بقصيدة أخرى إلى الإمام فيصل وليس فيها من جديد تمتاز به عن سابقتيها سوى أن الشاعر صحب الإمام في جولة بإقليم الخرج صورها بقوله :

سبحان من قدر الأشياء سبحانا ... قضى وقدر مايجرى وما كانا(٢)
قضى بألطافه الحسنى ورحمته ... أنا نسير من الإحساء ركبانا

---

(١) ديوان ابن مشرف ص : ٦٤.
(٢) ديوان مشرف ص : ١٠٤.

نـؤم حـاكـم نجـد فـي ريـاض نـدى　　　تـسـتـنـبـت الجـود لا شـوكـا وسـعـدانـا
حـتـى إذا سـار نحـو الخـرج محـدقـة　　　بـه الـنـجـائـب مـع خـيـل وفـرسـانـا
سـرنـا بـصـحـبـتـه أنـسـا بـه فـغـدا　　　يـولـى الأرامـل والأيـتـام إحـسـانـا
جـاز اليـمـامـة فـاعـتـاشـت أرامـلـهـا　　　مـن نـيـلـه وكـسـا مـن كـان عـريـانـا
ومـر بـالـقـريـة الأخـرى فـحـوَّهـا　　　نـعـما، وبثَّ العطا في أهل نعجانا
حـتـى أتـى الـدلم المـعـروف معـتـبـرا　　　بمـا جـرى، محـدثـا لله شـكـرانـا
فـجـاد بـالـوابـل الهـطـال راحـتـه　　　عـلـى بـقـاع دهـاهـا الجـدب أزمـانـا

وفي عام ١٢٦٩هـ بعث عائض بن مرعى أمير عسير إلى الإمام فيصل هدية أرفقها بقصيدة نظمها الشيخ (علي بن الحسين الحفظى) قاضي عسير فخر فيها بقومه وأيامهم.

فأجابه ابن مشرف بقصيدة هى من جيد نظمه وإن لم تكن أجوده افتتحها بنسيب قضى فيه ١٦ بيتاً افتتحه بقوله :

بـشير سـعـاد جـاء نحـوك فـاسـعـد　　　وقـد عـدت وصـلاً فـأوفـت بمـوعـد[1]

وختمه بأبيات حوت حسن تخلص جميل :

فـلـو بـرزت يـومـا لـغـيـلان لم يهـم　　　بمـى ولم يـبـد الـقـريـض لمـنـشـد
ولـو لحـت بـالـطـرف طـرفـة مابـكـى　　　لخـولـة اطـلالا بـبـرقـة ثـهـمـد
لـقـد أصـبـحـت فـي الـغـانـيـات فـريـدة　　　كما انـفـرد الـوالـى بحـزم وسـؤدد
حـلـيـف المـعـالى «فـيـصـل» ناصر الهدى　　　مـذيـق الـعـدى كـأس الردى بـالمهـنـد

ثم أفاض في مدح الإمام فيصل وأثنى على أبائه بمواقفهم الجليلة وبخاصة تأييدهم

(١) ديوان ابن مشرف ص : ٦١.

ونصرتهم للإمام محمد بن عبد الوهاب، وأثنى عليهم وعليه بما عرفوا به جميعا من شجاعة ونبل أخلاق وتفان في نصرة الدين الحنيف بالدعوة والمؤلفات ثم السيوف.

ثم انتقل إلى الثناء على الشيخ الحفظى والأمير عائض ثم أجداده وقومه، ومما قاله في ذلك :

ولا تنس ذا الحى اليمانى إنه ... لشيعة أهل الحق بالحق مقتدى
قبائل من همدان أو من شنوءه ... من الأزد اتباع الرئيس المسود
هموا قد حموا للدين إذ فل عضبه ... وبدد منه الشمل كل مبدد
فهم فئة للمسلمين ومعقل ... وكهف منيع للشريد المطرد
سما للعلى حقا (على) ولم يزل ... يروح بأسباب الجهاد ويغتدى

ومما تحسن الإشارة إليه هنا أن الشيخ ابن مشرف يذهب في مطالع القصيدة (النسيب) مذهب الأقدمين، وهو نهج سلكه شعراء عصره في مطالع قصيدهم كالبارودى في مصر مثلاً، ثم الذين أتوا من بعد ابن مشرف.

وفي عام ١٢٧٥هـ نظم ابن مشرف في الإمام فيصل أربع قصائد نشير إليها حسب ترتيبها في الديوان، وإن كنا لانرتاح إلى صنيع مرتبه لأنه لم يلزم فيها نسقا معينا، بل إن نسقه نموذج للفوضى كما سنوضحه لك في غير هذا المقام.

وأولى هذه القصائد الأربع نظمها في استنهاض الإمام فيصل لتأديب الأعراب الذين عاثوا في الإحساء فساداً، وقد بدأها بالنسيب كسابقتها، وكان تخلصه منه بقوله :

أنا في ربى نجد وأنت ببلدة ... أحاطت بها الأعداء من كل جانب[1]
يغيرون في أطرافها وسروحها ... جهاراً ولا يخشون سوطا لضارب
فكم قعدوا للمسلمين بمرصد ... وكم أفسدوا في سبلها بالنهائب

(١) ديوان ابن مشرف ص ٤٦.

وبعد أبيات ذم فيها الأعراب وصنيعهم، وغفلة أرباب الأمر في الإحساء عنهم قال :

فلا دين إلا بالجهاد قوامه ... ولا أمن إلا بعد سلّ القواضب
ولا ملك حتى تخضب البيض بالدما ... من الهام في أطرافه والجوانب
ولا مجد إلا بالشجاعة والندى ... وجر العوالى فوق مجرى السلاهب
فقل لإمام المسلمين وسر له ... بنفسك، أو أبلغه مع كل راكب
وأنشده إن أحسست منه تثاقلا ... إذا لم يسالمك الزمان فحارب

ثم قضى باقى القصيدة في حث وإغراء للإمام بالجهاد وتذكيره بأن جماع سبل العز في الشجاعة والكرم، وختم قصيدته بفخره بنفسه وشعره، وهذه سنة سار عليها في جل ختام قصيده، يقول في ختام هذه القصيدة :

ودونك نظما ينهض الشهم للعلا ... ويدعو إلى حسن الثنا والمناقب
بدا من أديب كالجمان قريضه ... طبيب زمان عارف بالتجارب
إذا قال قولا أنشد الدهر نظمه ... وغنى به أهل الحجى والمناصب

والقصيدة الأخرى التي نظمها في الإمام هذا العام (١٢٧٥هـ) كان يستنهضه فيها لتأديب الأعراب الذين لايكبح جماح من عصا الدين منهم إلا السيف، وقد بسط هذا المعنى في قصيدته التي بدأها بالنسيب وثنى بوصف أحوال الأعراب في حال عصيانهم وما يؤول بهم إليه هذا العصيان، ثم مضى إلى مدح الإمام بالجود والكرم والشجاعة في مثل قوله :

وأما إمام المسلمين فإنه ... لمسعر حرب بالمساكين يرأف(١)
صفوحاً عن الجانى وان كان مجرماً ... سؤولا عن العانى به يتلطف
وينصر أهل الدين والعلم والحجى ... ويكرمهم بالمكرمات ويتحف

---

(١) ديوان ابن مشرف ص ٨٣.

مطايـاه في غـزو العـدو مشيحه عطايـاه تـزرى بـالـكـنـوز وتجحف
هـو الـبـحـر ينتـاب العطاش وورده وكـل امـرىء يـروى المـزاد و يـغـرف
فـأسـيـافه من خصمه ترعف الدما وأقـلامـه بـالـبـذل والجـود تـرعـف

أما ثـالـث قـصيـدة نـظـمها في الإمام هذا العام فإنها فائية أيضاً، افتتحها بمدح الجود والكرم، ثم جرد من نفسه لائمة تلومه على عدم طلب المال وتقول له إن الشعر شيء لا جدوى من ورائه، فيرد عليها بأنه ظهر من يجزى على القصيدة بخير الجزاء.

يـارب قـائـلـة يـومـا وقـد عـذلـت مـالى أراك بـنـظـم الـشـعـر ذا كلف[1]
والـدهـر أبـنـاؤه بـالمـال قـد بـخـلوا فـهـم يـرون الـنـدى ضربا من السَّرف
كـأنمـا قـد تـواصـوا في الـطـبـاع على مـنـع الحـقـوق وشـد الـعـقـد بـالحـلـف
مـا لـلـقـريـض إذا أهـديـتـه ثـمـن ولـو نـظـمـت لهـم دُرًّا مـن الـصـدف
قلت ــ ابشرى فـلـقـد جـاد الزمان لنا بـعـارض جـاد بـالأمـوال والـتـحـف
أمـامـنـا الـنـدب مـيـمـون الـنـقـيـبـة من سـاسـى الرعـيـة بالإحـسـان والـنـصـف
بـنـى الأمور عـلى ساس الـتـقـى فرست والـغير يـبـنـى عـلى أوهـى شـفـا جرف
سما بـهـمـتـه نحـو الـعـلا فـعـلا حتى استـوى فـوق هـام المجد والـشـرف
أنـدى الـبـريـة كـفـا وهـو أشجع من قـد هـز عـطـفيه بين الـبـيـض والجحف
الـعـفـو والحـلـم والإحـسـان شيمـتـه لاخير فـي الـطـيـش والآمـال والـعـنـف
أخـى مـكـارم عـن مـعـن بـن زائـدة تـروى وعـن فـارس الهـيـجـا أبـى دلـف

أما القصيدة الرابعة والأخيرة فيما نظم هذا العام فيبدو أنه وفد بها على الإمام فيصل،

---

(١) ديوان ابن مشرف ص ٨٤.

ولا جديد فيها سوى أنه في النسيب الذي صدرت به ساق الحديث مساق حوار مع صاحبته المتخيلة (سلمى) ومن ذلك قوله :

طرقنا أهلها ليلا فقالت ... من الآتى وأهلونا نياما [1]
فقلت لها : محب جاء ضيفا ... فلا تجفى محبا مستهاما
فقالت : كيف زرت ودون وصلى ... حروب نارها تذكى الضراما
وقومى أشرعوا دونى رماحا ... وسلوا البيض وانتشلوا السهاما
فقلت: أما سمعتى أو شعرتى ... بأن إمامنا أبدى الكماما
تبدل بالثياب جلود نمر ... وسل على أولى الظلم الحساما
فصار الذئب للأغنام سلما ... وصاحب في الفلا النعم النعاما
إمام للهدى يدعو البرايا ... ويبعث للعدى جيشا لهاما

وفي عام ١٢٧٦هـ نظم ابن مشرف قصيدتين في الإمام، فأما القصيدة الأولى فكانت في تهنئته بانتصار الجيش الذي قاده ابنه عبدالله لتأديب بعض الأعراب، وقد افتتح القصيدة بحمد الله على نعمه التي من جليلها هذا النصر الذي استبشرت به نجد والخط وهجر.

لله الحمد اللهم ما نزل القطر ... وما نسخ الديجور من ليلنا الفجر [2]
وما هبت النكبا رخاء وزعزعا ... على نعم لا يستطاع لها حصر
فمن ذلك الفتح المبين الذي له ... تهلل وجه الدين وابتسم الثغر
تفتح أبواب السماء لمثله ... ويعلوا بسيط الأرض أثوابها الخضر

---

(١) ديوان ابن مشرف ص ٩٥.

(٢) ديوان ابن مشرف ص ٦٦.

فنـاهـيـك مـن فـتـح بـه أمـن الـفـلا وأسـفـرت الـبـلـدان وابتهـج الحضر

تـسـامـى بـه نجـد إلـى ذروة الـعـلا وأسـفـر وجـه الخـط وافـتـخـرت هـجـر

لـقـد سـرنـا مـا جـاءنـا مـن بـشـارة فـزالـت هـموم الـنـفـس وانـشـرح الـصـدر

لـدن قـيـل عـبـدالله أقـبـل عـاديـا يـقـود أسـودا فـي الحـروب لهـا زأر

رئـيـس بـه سيما الخـلافـة قـد بـدت وفـي وجـهـه الإقبال والـعـز والنصر

ولعلك تلحظ أن في هذه القصيدة ظلاً واضحاً لإحدى قصائد أبى تمام في رثاء الطوسي التي منها قوله :

تـردى ثـيـاب المـوت حمـرا فـا دجـى لهـا الليـل إلا وهـى مـن سـنـدس خضر

واحتذاء ابن مشرف أشعار الأقدمين، وبخاصة شعر الفحول كأبى تمام والمتنبى واضح في شعره، لكنه احتذاء لم يسلب الشاعر شخصيته ولم يحول شعره إلى صدى لأشعار الآخرين، بل ترك لابن مشرف شاعر القرن الثالث عشر الهجرى بالجزيرة طابعه وسماته، وإن قصر في ميدان الصوغ عن شأو أولئك الفحول.

أما ثانى قصيدة قالها في الإمام هذا العام فكانت تحريضاً على الجهاد، وما سمعت هذه القصيدة إلا استحسنت سماعها واستعدته، ولست أدرى لماذا تذكرنى بقصيدة لأحمد شوقى، وذلك الفحل الذي ولد بعد عام من وفاة ابن مشرف. أما قصيدة شوقى فهى تلك التي يقول في مطلعها :

هـل تـيَّـم الـبـان فـؤاد الحـمـام فـنـاح فـاسـتـبـكـى جـفـون الـغـمـام (١)

يهـزه الأيـك إلـى إلـفـه هـزَّ الـفـراش المـدنـف المـسـتـهـام

واسمح لى أيها القارىء بأن أستبد بوقتك، وأفرض عليك ذوقى، فربما سعدت بالتأثير عليك واستصحابك مع ابن مشرف في هذا المطلع النسيبى الجميل الذي تتجلى فيه

---

(١) الشوقيات جـ ٢ ص ١٣٦.

شاعرية ابن مشرف دون ستار من التقليد أو التكلف؛ لأن الشاعر فيما يبدو قد انفعل بالحدث انفعالاً أطلقه من إسار التقليد لينطلق في أفق الابداع في الصوغ والتصوير :

ما هتف الورق وغنا الحمام ... أو غرد القمرى جنح الظلام [1]

أو هب للصبح نسيم الصبا ... إلا صبا القلب وعز المرام

بهكنة تحوى صنوف البها ... كأنها في الحسن بدر التمام

مياسة الأعطاف من ظلمها ... تسقى محبيها كؤوس المدام

قد زارني في هجعة طيفها ... من بعد أن نام كثير الأنام

فقلت في الأعتاب ما الجفا؟ ... ان الوفا بالعهد دين الكرام

وما الذي حلل في شرعكم ... هجران ذى ود بهجر أقام

قالت خذ العذر فمن بيننا ... قد حال أوباش جفاة طغام

قوم من الأعراب من جهلهم ... قد خرقوا الدين وداسو الكمام

وقطعوا السبل وعاثوا بها ... وحللوا سفك الدماء الحرام

عادات سوء رضعوا ثديها ... فاستصعبوا بعد الرضاع الفطام

والذئب قد يعدو على غرة ... في غنم الراعى لها إذ ينام

والنار بالزندين ابراؤها ... وأول الحرب قبيح الكلام

فقلت : لاتخشى ولا تحذرى ... ما صاحب السيف يمين الامام

وما تجلت للهدى شمسه ... إلا انجلى عنها دخان القتام

أتحسبين الجبن من طبعه؟ ... لا والذي يحيى رميم العظام

---

(١) ديوانه ص٩٩

فــإن تــأنــى فــلــه عــزمــه   وهــكــذا شــأن الــرئــيس الهــمـام
لــكــن ســلــى الله مــغــيــث الــورى   أن يحــيــى الأرض بــوبــل الــغــمــام
فــتــســرح الأنــعــام فــي نــبــتــه   ويــبــعــث الــوالــى بجــيــش الهمام
فــيــه جــيــاد الخــيــل مجــنــوبــة   مــن كــل قــبــا ألجــمــت بــاللجــام
تحــمــل لــلــحــرب أســود الــشــرى   والــبــيــض والــســمــر وزرق الــســهــام
قــد طــال صــوم الخــيــل فــي طــيــلــهــا   فــاشــتــاقــت الــيــوم لــتــرك الــصــيــام
تــعــدو مــع الــرايــات مــنــشــورة   عــلــى الإمــام الــشــهــم وابــن الإمــام
وعــصــبــة مــن قــومــهــم قــد نــشــوا   فــي نــصــرة الــديــن ورعــي الــذمــام
يــا راكــبــا مــن أرض هــجــر ضــحــى   إن رمــت نجــدا فــالــريــاض الإمــام

ثم يقضى باقى القصيدة في مدح الإمام وبيان أن الجهاد ماسن إلا ليقيم ما اعوج من أحوال الخارجين، ثم يفخر بشعره، ويختم بالصلاة على النبى صلىٰ الله عليه وسلم كشأنه في جميع شعره.

وفي شوال ١٢٧٧هـ نظم الشاعر تهنئة للإمام بانتصار جيشه على فلول الأعراب بالإحساء، وافتتح القصيدة بحمد الله وشكره، والثناء عليه بما هو أهله من إنعام وإكرام لعباده الصالحين.

وهذا منهج في مطالع القصائد عند ابن مشرف كأن يراوح بينه وبين النسيب ومنه قوله :

لــك الحــمــد اللــهــم يــا خير نــاصر   لــديــن الهــدى مــالاح نجــم لــنــاظر(١)

(١) ديوان ابن مشرف ص ٦٨.

وما انغلق الإصباح من مطلع الضيا فجل وجلى حالكات الدياجر
لك الحمد ماهب النسيم من الصبا وما انهل ودق المعصرات المواطر
على الفتح والنصر العزيز الذي سما فقرت به منا جميع النواظر
وإظهار دين قد وعدت ظهوره على الدين طرا في جميع الجزائر
وعدت فانجزت الوعود ولم تزل معزا لأرباب التقى والبصائر
لك الحمد مولانا على نصر حزبنا على كل باغ في البلاد وفاجر

وبعد حديث عن نكث الأعراب للعهود ومقابلتهم إحسان الإمام بالاساءة كصنيع مجير أم عامر انتقل إلى تهنئة الإمام وابنه بهذين العيدين، عيد الانتصار على فلول الأعراب وعيد الفطر بعد نعمة الصيام.

تفوه بمدح للإمام ونجله ومعشره أهل العلا والمفاخر
كفاه من المجد المؤثل ما انتمى إليه من العليا وطيب العناصر
فشكراً إمام المسلمين لما جرى وهل تثبت النعماء إلا لشاكر؟
فهنيت بالعيدين بالفتح أولا وعيد كمال الصوم إحدى الشعائر
وشكر الأيادى بالنواصى والتقى بترك المناهى وامتثال الأوامر
صبرت فنلت النصر بالصبر والمنى وما انقادت الآمال إلا لصابر

وفي عام ١٢٧٨هـ نظم الشاعر ابن مشرف في الإمام فيصل ثلاث قصائد، فأما أولاها فيبدو أنه نظمها حين أزمع الرحيل إلى الرياض حيث الإمام وقد افتتحها بالحديث عن نيته تلك. وهذا مذهب ثالث في مطالع ابن مشرف كان ينزع إليه حينا ومنه قوله في هذه القصيدة :

إذا أنت أجمعت المسير لتنجدا | فلا تعد قصرا في الرياض مشيدا[1]
بناه إمام المسلمين ولم يزل | يؤسس ما يبنى على الدين والهدى
ترى حوله الأضياف تلتمس القرى | وقوما يريدون المكارم والندى
فيرجع كل نائلا ما يرومه | من العدل والإحسان والفضل والجدا
كريما يرى للمعتفين إذا أتوا | ومن يطلب المعروف حقا مؤكدا
تعود بسط الكف طبعا، وانما | لكل امرىء من دهره ما تعودا

أما القصيدة الثانية في عام ١٢٧٨هـ فيبدو من أبياتها أنها تهنئة بانتصار حققه جيش الإمام فيصل بقيادة ابنه عبدالله بدليل مثل قوله فيها :

فكم نعمة أوليتنا بعد نعمة | وفتح به قد صح من كان أرمدا[2]

وكان ابن مشرف يلقب فيصل بن تركى (بالإمام)، ولكنه في هذه القصيدة يجمع له (الملك، الإمام) وذلك في قوله :

ونسأله التوفيق للشكر إنه | يكون لنعماء الإله مقيدا
على أن هدانا ثم ألف بيننا | بملك إمام، واجتماع على الهدى
إماما به الرحمن أمَّن سبلنا | وكف يدي من كان في الأرض مفسدا
وقوَّم أركان الشريعة ناصرا | بسُمْر القنا والبيض سنة أحمد

أما القصيدة الثالثة في هذا العام ١٢٧٨هـ فإن الشاعر يفتتحها بنسيب يمدح فيه نفسه متذكرا عهد سلمى في أيام الشباب واقفا على أطلال منازلها، شاكيا من هجرها حين شاب رأسه، ولكنه يخلص من هذا النسيب إلى الفخر بنسبه التميمى، ثم ذكر نسب ممدوحه بعد الفخر مصادقه الإمام :

---

(١) ديوان ابن مشرف ص ٥٤.

(٢) ديوان ابن مشرف ص ٥٦.

فما بالها تصبر إلى كل يافع ... وتهجر شيخا والداه تميم؟ (١)
إمام حوى كل المكارم والعلا ... وطاب له في العالمين أروم
له نسب في وائل بن ربيعة ... نماه إلى أعلى الفخار صميم
تفرع من صيد الملوك الذين هم ... لهم مكرمات جمة وحلوم

ثم يقضي القصيدة في مدح الإمام، ووصف رحلته إليه ثم الفخر بشعره.

وفي عام ١٢٧٩هـ وفي (عنيزة) انتصر جيش الإمام فيصل بقيادة ابنه عبدالله فهنأه ابن مشرف بقصيدة مطلعها :

سبحان من عقد الأمور وحلها ... وأعز شرعة أحمد وأجلها(٢)
وقضى على فئة عتت عن أمره ... بهوانه فأهانها وأذلها
كفرت بأنعم ربها فأذاقها ... بأس الحروب فلا أقول لعلها

ثم قضى القصيدة في مدح الإمام ثم الفخر بشعره.

وفي عام ١٢٨٠هـ نظم ابن مشرف في مدح الإمام فيصل ثلاث قصائد الأولى لم نجد فيها مايدل على مناسبة ما، بدأها بنسيب تأثر فيه بقول الشاعر العباسي في قصيدته التي يقول فيها :

قل للمليحة في الخمار الأسود ... ماذا فعلت بزاهد متعبد

ومطلع نسيب ابن مشرف

قل للمليحة في القميص الأحمر ... ماذا فعلت بعابد مستبصر(٣)

(١) ديوان ابن مشرف ص ٩٦.
(٢) ديوان ابن مشرف ص ١٠٥.
(٣) ديوان ابن مشرف ص ٧١.

ويخلص من هذا النسيب إلى مدح الإمام بقوله :

لا تتلفي بالصد مهجة مغرم فيصيب قومك سطوة من قسور
من فيصل ملك الجزيرة من سما للمجد حتى حل فوق المشترى
نصر الهدى وحوى الشجاعة والندى ليث وغيث للمقل المعسر

ويقضي باقي القصيدة في مدح الإمام فيصل. لكنه في هذه يمدحه بموقف أبائه من الإمام محمد بن عبدالوهاب ونصرهم له، ودفاعهم عن دعوته، والعمل على نشرها رحمه الله جميعا وجزاهم عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

أما القصيدة الثالثة في عام ١٢٨٠هـ فقد قصد بها الإمام فيصل في الرياض ومطلعها:

لقد لاح سعد النيران الطوالع وغابت نحوس من جميع المطالع [١]

أما في عام ١٢٨١هـ فإن الشاعر ينظم في مدح الإمام قصيدتين :

الأولى لم تتضمن سببا كما لم تخرج عن سابقاتها إلا بأبيات فيها ذم لأهل العصر ثم فخر الشاعر بكونه سلاحا من أسلحة الإمام يهاجم أعداءه وينصر أصفياءه

فأهل العصر مثل الطير طبعا بخفتها وأحلام السعال [٢]
فإن جربت أكثرهم تجدهم على صنفين : ختال وقال
علامات النفاق بهم تراها ثلاث هن من شر الخلال
خيانتهم وإخلاف لوعد وكثرة كذبهم عند المقال
فسل على البوادى سيف عزم وقاتلهم على منع العقال

(١) ديوان ابن مشرف ص ٧٧.

(٢) ديوان ابن مشرف ص ٩٢.

وأدبهم إذا انتهبوا وعاشوا　　بحد المرهفات وبالنكال

وإني من سيوفك لست أنبو　　أنافح من قلاك ولا أبالي

وأنسج في علاك برود مدح　　وادراعا تقي وقع النصال

فإن فقت الملوك وأنت منهم　　فإن المسك بعض دم الغزال

أما القصيدة الثانية فيبدو أن الشاعر أراد فيها أن يشيد بالأمن والاستقرار والعدل والطمأنينة التي عمت وسادت في أيام الإمام فيصل رحمه الله، ومطلع هذه القصيدة :

بعدل ولاة الأمر ترسو دعائمه　　وتأمن في قفر الفلاة سوائمه (١)

وهناك قصيدتان خلتا مما يحدد زمن نظمها؛ فأما أولادهما فقد خلت أيضاً من ذكر لسبب نظمها، وغير أن موضوعها في مدح الإمام ومطلعها :

على الدوح قد غنى الحمام وغردا　　فجاوبه السدم المعنى وأسعدا (٢)

وفي أبياتها مايدل على أنه احتذى فيها قصيدة أبى الطيب المتنبى في مدح سيف الدولة الحمدانى وهى التي مطلعها :

لكل امرىء من دهره ما تعودا　　وعادة سيف الدولة الطعن في العدا

أما ما يظهر فيه الاحتذاء عند ابن مشرف فقوله

تعودت بسط الكف طبعا وانما　　لكل امرىء من دهره ما تعودا

وهو تضمين حسن.

أما القصيدة الثانية فقد نظمها الشاعر عندما أمر الإمام فيصل بمصادرة نخيل بعض الخارجين واستعطفه فيها، ومن هنا جاءت القصيدة ذكرا لأعمال الإمام واقرار بفضله وثناء على ما منَّ الله به على البلاد في عهده من أمن وطمأنينة واستقرار ومطلع هذه القصيدة :

---

(١) ديوان ابن مشرف ص ٩٨.

(٢) ديوان ابن مشرف ص ٥٢.

تبكى الحساء بدمع سافح جارى   من أجل خطب جسيم حادث جارى(١)

وفي عام ١٢٨٢هـ توفي الإمام فيصل بن تركى رحمه الله فرثاه ابن مشرف بقصيدتين الأولى في سنة وفاته، والثانية في العام الذي بعده.

و يدلنا هذا على بالغ الأثر الذي تركته وفاة الإمام في نفس الشاعر، وإلا فما الذي يدفعه إلى تجديد الرثاء بعد عام؟

فأما القصيدة الأولى التي نظمها في عام ١٢٨٢هـ فقد افتتحها بقوله :

على فيصل بحر الندى والمكارم   بكينا بدمع مثل صوب الغمائم(٢)

والقصيدة كلها ذكر للصفات التي كان يمدح بها الإمام في حياته، ثم الثناء على خلفه ابنه (عبدالله).

ونستطيع أن نقول إن ابن مشرف لم ينفعل بالحدث ولم تستجب له مشاعره واحساساته الأمر الذي أملى عليه فيها مثل قوله :

فدونك أبياتا حوت كل مدحة   فأضحت كمثل الدر في سلك ناظم

وقد يقال إن أهم فارق بين شعر المدح والرثاء، أن الأول مدح للأحياء والثاني مدح للموتى، غير أن لكل منهما خصائصه وسماته ولم يتضح في هذه القصيدة من خصائص الرثاء سوى المطلع، على ضعف فيه.

أما ثانية قصيدته في رثاء الإمام فتلك التي نظمها في عام ١٢٨٣هـ ومطلعها :

أتقبل عذر الصب، أم انت عاذله   بذكرى حبيب عنه شطت منازله؟(٣)

والحق أن هذه القصيدة ليست من الرثاء في شيء وانما هي قصيدة نظمت في مدح ثلاثة: الإمام عبدالله بن فيصل، والشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن، ووالده عبدالرحمن.

---

(١) ديوان ابن مشرف ص ٦٥.

(٢) ديوان ابن مشرف ص ١٠٢.

(٣) ديوان ابن مشرف ص ٩٢.

ثم أن القصيدة بدأت بالنسيب وهو لا يلائم الرثاء، وبخاصة أن فيه مثل قوله :

غــزال حــوى كــل المحــاســن والبهــا يــغــازلــنــى بــعــد الــعــشــا وأغــازلــه

فلعل الشاعر اتخذ من الرثاء عنواناً لها تودداً إلى قلب الإمام عبدالله وتقربا إليه، والله أعلم.

وخلاصة القول في شعر هذا الشاعر :

أن ابن مشرف في شعره يجنح إلى المعارضة والمحاكاة، ولعل أهم الأسباب في ذلك :

أ ــ أنه ظهر في عصر قل فيه الشعراء، أو قُل ندر فيه إقبال المثقفين على الشعر، غير أن ابن مشرف نزع إلى تقليد الفحول السابقين كأبى تمام والمتنبى، ولذا فإنه يعد أول رائد من رواد الشعر الحديث في جزيرة العرب.

ب ــ أن ابن مشرف، انطلاقاً من تأثره بالسابقين عُنى بالنسيب في مطالع قصائده لكنه نسيب محتشم خال من التبذل.

جـ ــ وابن مشرف كثير العناية بالمطلع، وحسن التخلص، أما مقاطعه فإنها صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

د ــ وهو في مدحه يُعنى بصفات المدح التي أكثر الشعراء من استخدامها في المديح، لكنه نزع عن الحسيات كالصفات الجسمية، واتجه إلى المعنويات كالتقى، والعفاف، والعلم، والكرم، والشجاعة، والحب والنسب وكرم النجار.

هـ ــ وهو في مدحه الإمام فيصل يحرص على وصفه بالإمام، وقد يصفه بالوالى أو الملك.

و ــ ومما يحرص عليه ابن مشرف أيضاً الفخر بشعره وأن قصائده من حسان القصائد ولا تكاد تجد قصيدة إلا وفي ختامها فخر بشعره.

ز ــ وتحس في شعر ابن مشرف شيئاً من الالحاح في الطلب، ولذا فإنه يمكن إلحاقه بشعراء التكسب، لكن لايجوز حمل جميع شعر الرجل على هذا المحمل، ذلك أن جله ذو أهداف سامية كالدعوة إلى رفع الظلم ودفع الباغين والقضاء عليهم، والحث على العدل وما إلى ذلك مما دل عليه كثير مما أوردنا من شعره، كالقصص والحكم ونظم مسائل الدين والتاريخ، ثم الردود الداخلة في باب الهجاء والمناقضات فإن لنا حديثاً مستقلاً عنها إن شاء الله.

البحث السابع

الملك عبد العزيز في شعر ابن عثيمين

مقدمة :

يعد الملك عبد العزيز بن عبدالرحمن آل فيصل رحمه الله الشخصية الأولى التي استقطب الإعجاب بها شعراء العصر الحديث، إذ نظم الشعر في مدحه جل الشعراء حتى إنك لو جمعت عناوين أشعارهم لكونت سجلاً ضخماً لأحداث حياته رحمه الله. ولقد اشترك في مدحه شعراء العرب في الجزيرة والشام ومصر والعراق وغيرها، حتى الذين ضنوا بمدحهم على زعماء بلادهم إلا نادراً ابتدروا النظم في مدح الملك عبد العزيز ومن هؤلاء عباس محمود العقاد الذي مدح الملك عبد العزيز بقصيدة قال منها على غير ترتيب :

أسد العرين يخوض غيل الماء	يا بحر راضك قاهر الصحراء
حياك باديها وحاضرها معا	فاغنم تحية يومه الوضاء
يوم من البشرى يردد ذكره	ركب السفين وجيرة البيداء
عش يا طويل العمر عيش معمر	تحيا به أمم من الأحياء
ما خص طالعك الرياض بيمنه	بل قاض من عمم على الأرجاء
حق المواطن حين يذكر عهده	في الحمد والتبريك حق سواء
لا غرو نذكره ونهتف باسمه	في هذه الآفاق والأجواء

ولقد شرعت في إعداد بحث عنوانه (الشعر في موكب آل سعود) نشر منه مانشر في مجلة مركز البحوث بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وكان من السهل اليسير أن ألملم أطراف الموضوع في العهدين السعوديين الأول والثاني، أما في العهد الحديث فإن جمع ما قيل فيه من الصعوبة بمكان بسبب وفرته وكثرته، وتعدد الشعراء من داخل البلاد وخارجها.

ولما كان أهم هؤلاء الشعراء من حيث وفرة الانتاج وكثرة ما نظم منه في الملك عبد العزيز هم خمسة :

١) محمد بن عبد الله بن عثيمين.
٢) محمد بن عبد الله بن بليهد.

٣) أحمد ابراهيم الغزاوى. ٤) خالد الفرج.

٥) بولس سلامة.

فإنا سنختار منهم أسبقهم نظماً في حياة الملك عبد العزيز وهو محمد بن عثيمين فأما ابن بليهد فقد سبق لنا أحاديث عن هذا الموضوع في كتابنا عنه. وأما أحمد إبراهيم الغزاوي فله حديث منفصل إن شاء الله ومثله خالد الفرج، أما بولس سلامة، وملحمة عيد الرياض التي نظمها في سيرة الملك عبد العزيز فسبق لنا حديث عنها في مجلة الحرس الوطني.

الملك عبد العزيز في شعر ابن عثيمين

لم يكن ابن عثيمين أول شاعر مدح الملك عبد العزيز، ولكنه أقدم المكثرين الخمسة الذين أشرنا إليهم سلفا، ذلك أنه بدأ النظم في مدح الملك عبد العزيز في سنة ١٣٣١هـ حين فتح الملك عبد العزيز بلاد الأحساء وأخرج منها جنود الأتراك، وبذلك إنضمت إلى بلاد نجد مضيفة قوة إلى قوة.

وكان ابن عثيمين آنذاك في الخليج، إذ كانت ظروف المعيشة تنقله من الرياض إلى عمان ومنها إلى قطر ثم البحرين.

ومع كونه قد نال حظوة لدى أمراء قطر والبحرين ونظم في أميريها كثيراً من شعره، إلا أنه حين فتح الملك عبد العزيز الأحساء أقبل عليه، وانقطع إليه، وترك بلاد الخليج ليستقر في بلدة أبيه حوطة بني تميم، ولم يكن من تميم ولكن أحد أجداده قد ترك بلدته وادي الدواسر واستقر في الحوطه. فابن عثيمين إذن دوسري.

والقصيدة الأولى التي مدح بها الملك عبد العزيز هى (العز والمجد) وهي بائية نسجها على نول أبي تمام في بائيته التي مدح بها الخليفة العباسي المعتصم حين فتح عمورية ووصف فيها الفتح، وما نال البلاد المفتوحة وهى التي مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

أما قصيدة ابن عثيمين فهي التي تقول في مطلعها :

العز والمجد في الهندية القضب — لا في الرسائل والتنميق للخطب
تقضي المواضي فيمضي حكمها أمما — إن خالج الشك رأي الحاذق الأرب
وليس يبني العلا إلا ندى ووغى — هما المعارج للأسنى من الرتب
ومشمعل أخو عزم يشيعه — قلب صروم إذا ماهم لم يهب
لله طلاب أوتار أعد لها — سيرا حثيثاً بعزم غير مؤتشب
ذاك الإمام الذي كادت عزائمه — تسمو به فوق هام النسر والقطب
عبد العزيز الذي ذلت لسطوته — شوس الجبابر من عجم ومن عرب

وهي قصيدة رائعة تقف في صف القصيدة المحتذاة.

وفي عام ١٣٣٧هـ نظم ابن عثيمين قصيدته (عج بي على الربع) وهي إحدى روائع ابن عثيمين بل إحدى عيون الشعر العربي، أدرك ناظمها أهميتها ومكانتها في تاريخ الشعر العربي فعمد إلى شرحها في ٦٩ صفحة من صفحات الديوان مع أن عدد أبياتها ٥٣ بيتاً افتتحها بالنسيب :

عج بي على الربع حيث الرند والبان — وإن نأى عنه أحباب وجيران

ومنها في مدح الملك عبد العزيز :

لكنَّ أوراهم زندا وأسمحهم — كفا وأشجعهم إن جال أقران
عبد العزيز الذي نالت به شرفا — بنو نزار وعزت منه قحطان
مقدم في المعالي ذكره ابدا — كما يقدم باسم الله عنوان
ملك تجسد في أثناء بردته — غيث وليث وإعطاء وحرمان
خبيئة الله في ذا الوقت أظهرها — وللمهيمن في تأخيرها شان
ودعوة وجبت للمسلمين به — أما ترى عمهم أمن وإيمان

وكانت مناسبتها انتصار جيش الملك عبد العزيز في موقعة تربة. وكان ابن عثيمين يراوح ــ في مطالع قصائده ــ بين النسيب، واطراحه ومنه مطلع قصيدته الثالثة التي نظمها في الملك عبد العزيز عام ١٣٣٩هـ حيث يقول :

تلألأت بك للإسلام أنوار كما جرت بك للإسعاد أقدار

إن الذي قدر الأشيا بحكمته لما يريد من الخيرات يختار

وفي سنة ١٣٣٩هـ أيضاً نظم في الملك عبد العزيز قصيدة أخرى لم ينسب فيها، ولم يبتدر غرضه وإنما مهد لذلك بمقدمة فيها حديث عن تشوقه إلى الملك عبد العزيز وفيها وصف للقفار والمفازات التي تحول بينه وبين موطنه إذ كان حين نظم هذه القصيدة في قطر كما ذكر ذلك في مقدمة القصيدة التي منها قوله :

(لما كانت في قطر، رأيت برقاً نجدياً، وسحاباً كنهورا غربيا، فذكرني مآثر الملك الجواد وحضرته التي هي مجمع الحاضر والباد، أعنى حضرة إمام المسلمين وحامي حوزة الدين، عبد العزيز بن الإمام عبد الرحمن آل فيصل)

وفي هذه القصيدة ــ كما في غيرها ــ اشادة بالملك عبد العزيز وأفعاله وإنه الإمام الذي تجب مبايعته، وعلى ذلك استدل ــ في القصيدة ــ بنصوص شرعية أشار إليها إشارات صريحة.

ويبدو أنه كان يشير في هذه القصيدة إلى بعض المخالفين للملك عبد العزيز في تلك الأيام بل نص على بعضهم في بعض أبياته، ودعاهم إلى البيعة والسمع والطاعة، ثم توعدهم إن هم أبوا ذلك.

ومن هذه القصيدة قوله في الملك عبد العزيز :

هو النعمة الكبرى من الله للورى ورحمته والله جل الموفق

به الله أعطاهم حياة جديدة وهم قبله أيدي سبا قد تمزقوا

قوام لهم في دينهم ومعاشهم إلى الحق يهديهم وبالحق ينطق

فمن يعتصم منه بحبل وذمة وإلا من الدين الحنيفي يمرق

وفي سنة ١٣٣٩هـ أيضاً انتصر الملك عبد العزيز على بعض أولئك الذين أشار اليهم ابن عيثمين في قصيدته السالفة، فنظم الشاعر هذه القصيدة التي أشار في بعض أبياتها إلى الإمامين محمد بن عبدالوهاب ومحمد بن سعود ثم قال مخاطباً الملك عبد العزيز :

أتى بك الله غوثا للعباد ولا بلاد غيثا هنيئا بعد ماجدبوا

فظلت تنسخ آيات الضلال بما يقضي به النص لا زور ولا كذب

حتى استقامت قناة الدين واعتدلت فالحمد لله لاريب ولاريب

وكم مكارم اخلاق أتيت بها يرضى بها في الجثى آباؤك النجب

وحين شفي الملك عبد العزيز من مرض ألم به سنة ١٣٤٠هـ هنأه الشاعر وهنأ المسلمين بشفائه في قصيدة مطلعها :

لله في كل مايجرى به القدر لطف تحاربه الأفهام والفكر

وحين فتح الملك عبد العزيز حائل ١٣٤٠هـ سر ابن عثيمين بهذا فقال فيه قصيدة مطلعها :

تهلل وجه الدين وابتسم النصر فمن كان ذا نذر فقد وجب النذر

وفي أحد أبياتها علل تأخير فتح حائل تعليلاً شرعياً حسنا وهو قوله :

وإنا على وعد من الله صادق وتأخيره إياه كي يعظم الأجر

وفي الغرض نفسه والعام ذاته نظم الشاعر قصيدة أخرى يمدح فيها الملك عبد العزيز وكأنك تسمع فيها صوت أبي الطيب المتنبي ينشد سيف الدولة، يقول ابن عثيمين في هذه القصيدة :

منال العلى إلا عليك محرم وكل مديح في سؤاك يذمم

ولا مجد إلا قد حويت أجله ولا فضل إلا أنت فيه المقدم

ومن يعتقد غير الذي جاء نصه   لكم في كتاب الله لاشك يأثم

وفي سنة ١٣٤١هـ وفي أثر أحد انتصارات جيش الملك عبد العزيز قال قصيدته (بلوغ الأماني) وهي من حيث القوة والجزالة والفخامة تشاكل سابقتها ومنها قوله في وصف الملك عبد العزيز :

حليف سُرىً لايثلم الليل عزمه   إذا همَّ ألغى حادثات العواقب
إذا نية أوفت به الشرق طوحت   به نية أخرى لأقصى المغارب
وذاك قريع الدهر إن مات لم يلم   وإن عاش أضحى في سنى المراتب
أقول لطلاب المعالي تأخروا   فقد طمحت عنكم لأكرم خاطب
لأروع من عليا ربيعة أحكمت   تجاربه من قبل حين التجارب
قعدتم ولم يقعد ونمتم ولم ينم   يساور همّا كاضطراب اللهائب
وما نال هذا الملك حتى تحطمت   صدور العوالي في صدور الكتائب

وفي السنة عينها نظم الشاعر في مدح الملك عبد العزيز قصيدة يفتتحها بنسيب رقيق يذكرك رقة غزل ابن زيدون ومن هذا المطلع قوله:

ياغائبين وفي قلبي تصورهم   ونازحين وذكراهم تناجيني

وخلص من النسيب إلى مدح الملك عبد العزيز بالكرم والعفو وفي ذلك يقول :

أني أويت من العليا إلى حرم   قبل الإناخة بالبشرى يحييني
ينتابه الناس أفواجا كأنهم   جاءوا لنسك على صهب العثانين
ترى الملوك قياما عند سدته   وتنظر ابن سبيل وابن مسكين
ذا يطلب العفو من عقبى جريرته   وذا يؤمل فضلا غير ممنون
نزلت منه إلى جم فواضله   عبد العزيز ثمال المستميحين

وفي سنة ١٣٤١هـ ـ أيضاً ـ نظم قصيدة عينية رائعة قال فيها مبتدئاً مدح الملك عبد العزيز بعد نسيب طويل جميل

إلـى مـلـك يـنـبـي تهـلل وجـهـه   لمـن أمـه أن الأمـانـي تـطـاوعـه

وتمكن الملك عبد العزيز من ضم مكة المكرمة إلى ملكه فابتهج الناس بذلك وكان ابن عثيمين فيمن ابتهج فكتب قصيدة دالية جميلة أشار فيها إلى أن ذلك النصر إنما كان بقدر من الله الذي اختار الملك عبد العزيز لولاية بيته وخدمة قصائده وفي مطلعها يقول :

أعـد عـلـيَ حـديـث المـنـحـنى أعِدِ   فـقـد ذكـرت فـشـنـف مـسـمـعى وزدِ

ثم نظم في الغرض، والموضوع نفسيهما قصيدة أخرى أكد فيها ما قاله في القصيدة الأولى من أن الملك عبد العزيز خير من يقوم بأمر المسلمين في زمانه. وسلمت المدينة المنورة بعد أن سبقتها مكة المكرمة وجدة فنظم ابن عثيمين احدى روائعه (سفر الزمان) وفي مقدمتها أشار إلى أن بعض الشعراء قد سبقوه إلى هذا الميدان كما صنع ذلك في مقدمة قصيدته في فتح مكة ولعله بهاتين الاشاراتين يعني ابن بليهد الذي كان يرصد أحداث سيرة الملك عبد العزيز في شعره ابتداء بانتصار تربة سنة ١٣٣٧هـ ذلك الذي أنطقه بالشعر الفصيح أول مرة.

وفي مطلع قصيدة ابن عثيمين هذه يقول :

سـفـر الـزمـان بـغـرة المـسـتـبشر   وكـسـي شـبـابـا بـعـد ذاك المـكبر

وتـأرجـت أرجـاؤه بـشـذائـه   حـتـى لخـلـنـا الـترب شـيـب بـعنبر

وتألقت فـي طـيـبـة سـرج الهـدى   مـابين روضـة سـيـدي والمـنـبر

ويمدح الملك عبد العزيز سنة ١٣٤٥هـ ولكنه يطيل في المقدمة التي بدأ فيها متشوقاً إلى البيت الحرام

نـؤم بهـا الـبـيـت الحـرام لـعـلـه   يحـط بـه وزر هـنـاك ثـقـيـل

ويمدح الملك عبد العزيز سنة ١٣٤٦هـ فيشير في لاميته الرائعه التي بكى في مطلعها بالى الاطلال، وذرف الدموع في مدارج الأظعان إلى أن بلغ في يفاع شبابه مالم يبلغه الرجال :

سما للمعالي وهو في سن يافع ... فأدرك أعلاها وما شق بازله

وفي السنة نفسها عاد الملك عبد العزيز من الحجاز إلى نجد فاستقبله ابن عثيمين بميميته :

قدوم حكى وشي الربيع المنمنا ... وأرّج أوج الكون لما تنسما

وفي سنة ١٣٤٧هـ تمكن الملك عبد العزيز من القضاء على فتنة أوشكت أن تعبث بما ربحته البلاد من أمن واستقرار وطمأنينة على يد الملك عبد العزيز فقال ابن عثيمين في أثر ذلك الانتصار في موقعه (السبلة) قصيدة جميلة افتتحها بقوله :

أبى الله إلا أن تكون لك العقبى ... ستملك شرق الأرض بالله والغربا

أرادوا شقاق المسلمين شقاوة ... فصب الشقا ربي على أهله صبا

هم أضرموا نارا فكانوا وقودها ... وهم جردوا سيفا فكانوا به ضربا

دعاهم إلى الأمر الرشيد إمامهم ... وقال هلموا للكتاب وللعتبى

وما كان من وهن ولكن تحننا ... عليهم رجا أن تمحو التوبة الذنبا

وكانت قصائد ابن عثيمين تنشر في صحيفة أم القرى غب إنشائها بين يدي الملك عبد العزيز ومن تلك القصائد ما أشادت به أم القرى أشادة خاصة وهي قصيدته (أجل إنه ربع الحبيب) ومطلعها :

أجل إنه ربع الحبيب فسلم ... وقف نتبين ظاعنا من مخيّم

وكنت قد نظمت قصيدة قبل أن أقرأ قصيدة ابن عثيمين فكان مطلعها:

أجل إنه ربع الحبيب فسلما ... وجودا بندب يمزج الدمع بالدما

فوجدتني أكثر ارتياحا إلى الحكم بتوارد الخواطر على مايشبه هذا. وفي سنة ١٣٤٨هـ نظم الشاعر قصيدة ذكر في المقدمة انها بمناسبة انتصار سارّ ولم يذكر إلا أنه على أناس استعانوا بالنصارى على محاربة الملك عبد العزيز وهي القصيدة التي مطلعها :

أفادك مجد الدهر صدق العزائم ... وبلغك العليا شفار الصوارم

وقد يفد ابن العثيمين على الملك عبد العزيز لينشد بلا مناسبة ومن هذا قصيدته (هي الربوع) وفيها يمدحه بأنه ري الأماني وزينة الدنيا :

يروي عطاش الأماني فيض نائله ... إذا اشتكت من صدى عدم واقتار

ملك تجملت الدنيا بطلعته ... وأسفر الكون عنه أي اسفار

وفي عام ١٣٥٣هـ في أيام الحج كان الملك عبد العزيز يطوف بالكعبة ومن خلفه ولي عهده سعود، فهجم ثلاثة من الزيدية يريدون قتله فصد الملك سعود رحمه الله بجسمه أسلحتهم دون أبيه فنظم الشعراء في ذلك، ومنهم ابن عثيمين ومن الطريف أن يلتقى ابن عثيمين وابن بليهد على قافية الراء وإن اختلفت الحركة وليس هذا مجال الموازنة ولكن ابن العثيمين استطاع أن يلخص نشأة مذهب الزيدية في خمسة أبيات وعنوان قصيدته هذه (لله في الأرض ألطاف).

أما قصيدته (قد بلغتك المهارى منتهى الأمل) فإنها آخر مانظم في مدح الملك عبد العزيز ولم ينظم بعدها سوى قصيدة في التهنئة.

وقصيدة التهنئة التي نظمها كانت بمناسبة عودة نجليه الأميرين سعود ومحمد من الخارج وهى التي مطلعها :

يهنيك يا عصمة الدنيا مع الدين ... قدوم أبنائك الغر الميامين

وقد يقول قائل لماذا غدت القصيدة (٢٣) آخر قصيدة في المدح...؟

ولعل مما لايخفى أنهم عدوا التهنئة بابا من أبواب أغراض الشعر وإن كانت في حقيقتها مدحا ولو أنا الحقنا كل ثناء بغرض المدح لوجب أن نلحق مثلا :

أ ــ الرثاء لأنه على ثناء المرثى.

ب ــ والغزل لأنه ثناء على المحبوب.

جـ ــ وكثير من الوصف لأنه ثناء على الموصوف وهكذا.

ومما يحسن التنبيه عليه أن ماضمه الديوان لم يكن كل ما قال الشاعر فمن المؤكد أن كثيراً من شعره قد ذهب وضاع أو على الأقل لم يعثر عليه بعد، والدليل على ذلك أمران :

أ ــ ان جميع ماضمه الديوان كان مما نظم بعد سن الخمسين، لأن أسبق قصيدة فيه كانت سنة ١٣٢٣هـ.

ب ــ ثم إنه لم يجمع شعره ولم يوله عناية وإنما جمعه الشيخ سعد بن رويشد وبعد وفاة الشاعر بزمن.

ففاته كثير من نظم الشاعر، ولا يزال يضيف مايعثر عليه فيما يجد من طبعات وقد حوتُ الطبعة الثالثة قصيدة ومقطوعة لم تكن فيما سبق.

وإذن فمن المحتمل جداً أن يكون الشاعر قد نظم في الملك عبد العزيز أكثر من ٢٤ قصيدة، ولقد كان منهج الشاعر في مدح الملك عبد العزيز متمثلاً في العناية بأعماله الجليلة وخلاله الجميلة، ثم ما حقق الله لهذه البلاد على يده من أمن واستقرار وطمأنينه بعد أن آلف الأشتات، وجمع شمل الأخوة، وقضى على الفتن والاضطرابات والمنازعات ففتح الله بأعماله على هذه البلاد أبواب الخير، إلى ما مكن الله به أوامر الدين وشريعة الإسلام من القيام بدورها في تنظيم حياة أبناء هذه البلاد في أولاهم وأخراهم، ثم القيام بخدمة المسلمين بعامة من طريقين :

الأول : تمكينهم من حج بيت الله الحرام آمنين مطمئنين مخدومين.

الثاني : ماتقدمه من عون مادي ومعنوى لجميع المسلمين في شتى أنحاء المعمورة إلى ما تقدمه من خدمة إنسانية لغير المسلمين ممن لم يكونوا حربا على الإسلام أو عونا لأعدائه.

ولقد سار أبناء الملك عبد العزيز على نهجه وترسموا خطاه ومازالوا يسيرون ويترسمون بل ويضيفون من جليل الأعمال ما يكتب له في سجل المحامد في الدنيا والآخرة وفقهم الله وأيدهم وأخذ بأيديهم دائما في السبيل الأمثل إن شاء الله.

البحث الثامن

الجبرتي

وأخبار الدولة السعودية الأولى

التعريف بالجبرتى :

هوعبد الرحمن بن حسن بن إبراهيم بن حسن بن علي بن محمد بن عبد الرحمن الجبرتى الزيلعي العقيلى، المصري، الحنفى.

كان أبوه الحسن من علماء مصر المشهورين في جميع العلوم المعروفة في زمانه وبخاصة علوم الشريعة والطب والفلك والرياضيات ولعل هذه الأسرة كانت اسرة علم ذلك أن عبد الرحمن كان عالماً وكذا كان أبوه حسن وجده.

ولد عبد الرحمن الجبرتى بالقاهرة سنة ١١٦٧هـ وبها نشأ مترفا في ظل ثروة أبيه ولم يصرفه الغنى والجاه والمركز الاجتماعى عن الاقبال على العلم بل وجدناه يبحث ويؤلف في مختلف الفنون كالفلك والطب والتاريخ، وقد ذكر له عمر رضا كحالة أربعة كتب أهمها (تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار) ثم (مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس)، (وتقويم الكواكب السبعة)، (ومختصر تذكرة داود الانطاكي).

والجبرتى معدود في المقدمة من علماء الأزهر في عصره، وقد ولي قضاء مصر في عهد محمد على كما كان من رجال الديوان أيام الحملة الفرنسية ولعله كان يجاملهم ظاهرا لأن حقيقة أقواله في كتبه تدل على بغضه لهم، وتلمس سبل الخلاص منهم بطردهم.

قتل ابنه فبكاه طويلاً حتى كف بصره، وكان يجلس لطلاب العلم إلى أن توفى مخنوقاً في احدي ليالي رمضان في طريق شبرا سنة ١٢٤٠هـ تقريباً وهذا يعني أنه قد عاش أواخر القرن الثاني عشر وصدر الثالث عشر وهي فترة شهدت من تغير الأحوال وتقلب الأوضاع ماشهدت.

وفي أول هذه الفترة التي عاشها الجبرتى قام الإمام محمد بن عبد الوهاب بدعوته المباركة فناصره الإمام محمد بن سعود فكانت الدولة السعودية الأولى.

وشهد الجبرتى دخول الفرنسيين مصر واحتلالهم أرضها بالحملة الفرنسية التي قادها نابليون بونابرت، ثم شهد اخراجها من القاهرة وطردها من مصر على يد العثمانين، أو من استعانوا بهم على ذلك من الانجليز أو قبائل جهينة وبلى، كما يروي عبد الكريم الخطيب في تاريخ قبيلتى جهينة وبلى، وشهد الجبرتى أفعال العثمانين والمماليك التي أرهقت

مصر بعد خروج الفرنسين، كما شهد قيام دولة محمد علي على أرض مصر ومن ذلك أيضاً معاصرته للحروب التي شنها العثمانيون وجيوش محمد علي على الدولة السعودية بعد أن أوهموا عامة المسليمن بضلال ماتدعو إليه الدولة السعودية التي تبنت ونصرت دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب. ولقد خاض المؤرخون والكتاب في أخبار تلك الحروب وقل قول الصدق فيما كتب هؤلاء وبخاصة من كانوا خارج جزيرة العرب.

ولعل الشيخ عبد الرحمن الجبرتى كان أقرب أولئك إلى الصدق يشهد له بذلك ما ورد في كتابه عجائب الآثار المعروف بتاريخ الجبرتى وذلك رغم كونه بين ظهراني أولئك الذين جهزوا الحملات العسكرية للقضاء على الدولة السعودية، وهذا موقف منصف وليس بالعجب على عالم مثل الجبرتي.

ومؤرخو الأدب يعدون أسلوب الجبرتى مثالا للضعف والركاكة وسيطرة الألفاظ العامية والتركية على لغته، والواقع أن الذي يقرأ مقدمة تاريخه يجدها أحسن بكثير مما وصفه به الكتاب.

أما وفرة الألفاظ العامية والتركية فيما روى من خبر وما سجل من أثر فإنه راجع — والله أعلم — إلى أنه رواها بلسان أهل زمانه ولا يعد هذا اعتذاراً وقع فيه من خطأ في اللفظ والأسلوب. وانما هو بيان حقيقة ظهرت لي والله أعلم.

وهذه أسطر من مقدمة كتابه عجائب الآثار يقول في ص ٢٤ (ولم يزل هذا الدين القويم من حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم يزيد ويتعالى ويسمو حتى تم ميقاته وقربت من النبى وفاته وأنزل الله عليه **«اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا»**.

ولما قبض صلى الله عليه وسلم قام بالأمر بعده أبو بكر الصديق رضى الله عنه، ثم عمر رضي الله عنه، ثم عثمان رضي الله عنه. ثم علي كرم الله وجهه، ولم تصف له الخلافة بمغالبة معاوية رضوان الله عليهم أجمعين في الأمر وبموت علي رضي الله عنه تمت مدة الخلافة التي نص عليها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله :

(الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكا عضوضا)

أما أسلوب الكتاب نفسه فسنجد نماذج ذلك فيما سنورد منه في أحاديثنا القادمة إن شاء الله.

ولما كان الشيء بالشي يذكر فإني أود أن أنبه هنا إلى قول قلته في غير هذا المقام، سويت فيه بين أسلوب الشيخ الجبرتى ولغته. وبين أسلوب الشيخ حسين بن غنام في كتابه (روضة الأفكار والإفهام) ثم تبين لي أن هناك فرقاً بين أسلوبي الرجلين ولغتهما فبينما يجتمعان في تكلف المحسنات البديعة وبخاصة السجع فهما يختلفان في اللغة والأسلوب.

فابن غنام مثلا يكثر عنده استعمال لغة (أكلوني البراغيث) ويقل عنده استعمال الألفاظ العامية، وإذا تسربت إلى لغته فإنها تكون من عامية أهل زمانه من أهل موطنه.

أما الجبرتي فإن الألفاظ العامية المصرية وألفاظ اللغة التركية تقتحم لغته بلا تحرج ولا استئذان.

موقف الجبرتي من الدولة السعودية والدعوة السلفية:

ولابد لنا أن نتحدث عن موقف «الجبرتي» من الدولة السعودية الأولى، ومن دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب فلقد نضحت أحاديث الجبرتي وروحه بذلك الفهم الواعى المدرك لدعوة الإمام، ولأبعاد مذهب السلف الصالح، يتضح ذلك جليا في الكثير من عباراته فمن ذلك قوله «ولم يزوروا المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم» ص ٦٠ ومواضيع أخرى، ومنه قوله في ص ٩٣ «ولغط الناس من خبر الوهابي واختلفوا فيه فمنهم من يجعله خارجيا وكافرا، وهم المكيون ومن تابعهم وصدق أقوالهم. ومنهم من يقول بخلاف ذلك لخلو غرضه» ثم عزز هذا بإبراز خطاب الإمام سعود الذي وجهه إلى أمير حجاج المغرب، وقد شغل أربع صفحات وثلث صفحة، ومنه قوله عن استيلاء جيش الإمام سعود على المدينة ص١٠٤ «ولم يحدثوا بها حدثا غير منع المنكرات وشرب التنباك في الأسواق وهدم القباب. ماعدا قبة الرسول صلى الله عليه وسلم».

أما حديثه عن ميثاق الصلح الذي تعاهد عليه الإمام سعود والشريف غالب في جوف الكعبة ص١٠٦ فإننا نوجزه فيما يلي:

ذكر الجبرتي أنه لما ضيقت الدولة السعودية على الشريف أذعن للصلح فتم ذلك في جوف الكعبة على أن تمنع المنكرات وشرب التنباك والأراجيل والتأكد على إخراج

الزكاة وأداء الصلاة في الجماعة وعدم لبس المحرمات شرعاً وإبطال المكوس، والمظلم ومصادرة الأموال والمنازل، وإخلاص التوحيد لله وهدم القباب ونزع الصور والتماثيل، ومنع الذبح والنذر لغير الله، ومنع المواسم والأعياد. وعدم اختلاط الرجال بالنساء في التجمعات وكل مافيه إشراك غير الله معه. وكان ذلك بعد مناقشة ومحاورة مع العلماء فأمنت السبيل وكثرت الواردات وانخفضت الأسعار

ثم ذكر ص١١٤ مكاتبة وردت من الإمام سعود تقع في كراسة ومعها مكاتبة من الشريف غالب.

أما مايدل على أن الجبرتى كان يحرص على اتباع مذهب السلف الصالح الذي دعا إليه الإمام محمد بن عبد الوهاب، ونصره الإمام محمد بن سعود ثم أبناؤه من بعده، يتضح في حديثه عن انقطاع الحاج من مصر والشام فلقد أشاع الناس في عصره أن السعوديين قد منعوا الحج إلى بيت الله الحرام فنفى ذلك الجبرتى وأثبت أن انقطاع الحاج من مصر والشام إنما كان سببه منع السعوديين للمحمل وما يتبعه من خرافات وبدع كما ذكرها الجبرتي صراحة مستدلا على ذلك بأن حجاج المغرب وغيرهم قد حجوا وعادوا دون أن يصاب أحد منهم بأذى ودون أن يجدوا مضايقة في حجهم.

ثم نسب الإشاعات الكاذبة إلى أولئك النفعين الذين يكسبون أرزاقهم في ظلال المحمل وما يتبعه من خرافات وبدع منكرة، ويتضح المنهج السليم عند الجبرتي أيضاً في حديثه عن الأموال التي كانت في الحجرة النبوية الشريفة، وكيف أن الناس غالوا فيها حتى عدوها ملكا للنبى صلى الله عليه وسلم لايجوز مسه، وحديثه هذا تحسن قراءته وهو من ص ١١٥، ١١٨.

وكان القلق قد بلغ أشده لدى الدولة العثمانية فندبت محمد علي لحرب السعوديين فصادف ذلك هوى في نفسه فجد في الاستعداد بجمع العدة والعتاد والأجناد، وبلغ من أمر استعداده لحرب السعوديين أن صار يصادر مراكب المصريين من خيول وجمال وبغال وحمير.

وقد أمضى في فترة الاستعداد ستة أشهر ونصف من عام ١٢٢٦هـ كما ذكر الجبرتى

الذي وصف موقف الشريف بأنه موقف نفاق ومداهنة للطرفين محمد علي والسعوديين ص١٢٦، ١٢٧

ثم أشار إلى أول معركة خاضها جيش محمد علي وهي معركة ينبع وذكر أنهم قتلوا أهلها وسلبوا الأموال والنساء و باعوهن رقيقاً.

وفيما رواه عن أخبار المعارك في ينبع وما حولها أشار إلى الهزيمة النكراء التي أصيب بها جيش محمد علي بقيادة طوسون، وذكر أن العرب لو تعقبوهم لما بقى منهم رجل و يعني بالعرب جيش السعودية ومن قوله في ذلك ص١٣٢ ولما تحققوا أن العرب لم تتبعهم ولم تأت في أثرهم قاموا على ذلك يومين حتى استوفوا أغراضهم وشبعت بطونهم وارتاحت أبدانهم ثم التقوا بإخوانهم فكانوا هم أثبت القوم وأعقلهم ولو كان على غير قصد منهم.

ومن دلائل كره الجبرتي لتلك الحرب وما جرته من إرهاق للمصرين دعاؤه على أحد زعماء الجباة حين أشار إلى نصيب الشرقية من مفروضات أقوات الجيش ذلك بقوله ص١٣٤ (فكان المفروض على إقليم الشرقية خاصة إثنى عشر ألف اردب بعناية علي كاشف قابله الله بما يستحق، وكان ذلك أثناء استعداد محمد علي للحملة الثانية.

ومنه أيضاً حديثه عن هزيمة جيش محمد علي رواية عن بعض الصلحاء وفيه مالا يحس ذكره فعلى من يريد قراءته أن يرجع إليه في تاريخ الجبرتي ص٣٤١، ٣٤٢ جـ٣ أو من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي ص ١٣٤، ١٣٥ ومن قوله في ذلك (وقد سخط عليهم الباشا ومنع أن لايأتيه منهم أو لايراه وكأنما كانوا قادرين على النصرة والغلبة وفرطوا في ذلك و يلومهم على الانهزام والرجوع وطفقوا يتهم بعضهم البعض في الانهزام فتقول الخيالة سبب هزيمتنا القرابة وتقول القرابة بالعكس ولقد قال لي بعض أكابرهم من الذين يدعون الصلاح والتورع أين لنا النصر وأكثر عساكرنا على غير الملة وفيهم من لايتدين بدين، ولا ينتحل مذهبا وصحبتنا صناديق المسكرات ولا يسمع في عرضنا آذان ولا تقام به فريضة لا يخطر في بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين والقوم إذا دخل الوقت أذن المؤذن و ينتظمون صفوفاً خلف إمام واحد بخشوع وخضوع وإذا حان وقت الصلاة والحرب قائمة أذن المؤذن وصلوا صلاة الخوف فتتقدم طائفة للحرب وتتأخر الأخرى للصلاة وعسكرنا يتعجبون من ذلك لأنهم لم يسمعوا به فضلا عن رؤيته و ينادون في معسكرهم) ومن

المؤكد أن الجبرتي لم يذكر هذا الخبر في كتاب ألفه وهو بين ظهراني الجيش المنهزم إلا لأنه يرى ضلال عملهم والله أعلم.

وبهذا يتضح أن موقف الجبرتي من الدولة السعودية قد تغير حين عرف الأمور من الثقات على حقيقتها.

وذكرنا أنه كان يمقت موقف محمد علي والدولة التركية من الدولة السعودية وربما ساعد على ذلك التصرفات الممقوتة من محمد علي ورجال دولته حتى في موقفهم من المصريين أنفسهم ومن دلائل ذلك وصفه ما أصاب المصريين من إرهاق أيام استعداد محمد علي لإعادة الكرة من جديد ثم أيام الافراح بانتصار جيوشه واستيلائها على المدينة المنورة وبعض بلاد الحجاز. ومنه ثناؤه على موقف السعوديين من حجاج بيت الله الحرام وذلك فيما رواه عن حجاج المغرب الذين وصلوا إلى مصر من طريق الشام.

وكان يرى أن الحرب لم تكن بين المصريين والسعوديين وإنما كانت بتدبير من الأتراك وإلزامهم محمد علي بتجهيز الجيوش يدل على ذلك أمور منها أنه يسمى جيش محمد علي بالأتراك وذلك بمثل قوله ص ١٣٨ (وردت هجانة مبشرون باستيلاء الأتراك على عقبة الصفراء) ومنه أيضاً قوله ص ١٤٢ (وكان ابن سعود الوهابي حضر في الموسم وحج ثم ارتحل إلى الطائف وبعد رحيله فعل الشريف غالب فعله وسيلقى جزاءه).

ومن أساليب التضليل والكذب في وصف السعوديين مارواه الجبرتى ص١٤٥ حيث قال (الأمر للخطباء في المساجد يوم الجمعة على المنابر بأن يقولوا عند الدعاء للسلطان فيقولوا للسلطان ابن السلطان (بتكرير لفظ السلطان ثلاث مرات) محمود خان ابن السلطان عبد الحميد خان ابن السلطان أحمد خان الغازى خادم الحرمين الشريفين. لأنه استحق أن ينعت بهذه النعوت لكون عساكره افتتحت بلاد الحرمين وغزت الخوارج وأخرجهم منها لأن المفتى أفتاهم بأنهم كفار لتكفيرهم المسلمين ويجعلونهم مشركين ولخروجهم على السلطان وقتلهم الأنفس وأن من قاتلهم مغازياً ومجاهداً إذا قتل) وهذا يدل على أن الدولة العثمانية ومحمد علي قد رموا بكل ثقلهم الحرب التي شنوها على السعوديين يستوي في ذلك القدرات العسكرية والمالية، ونشر الدعاية الكاذبه بين المسلمين ودفع العلماء إلى تبنى تلك الدعايه بما يصدرونه من فتاوى.

وكان الجبرتي ينظر إلى أعمالهم على أنها من مظاهر الخور يقول (ولما انقضى المجلس ضرب مدافع كثيرة من القلعة و بولاق والجيزة وعمل شنكا، واستمر ضربهم المدافع عند كل آذان عشرة أيام وذلك ونحوه من الخور).

وانطلاقاً من نظرته تلك كان حديثه عن موقف محمد علي من الشريف غالب ص١٥٢ ــ ١٥٧ بعد أن عاهد غالبا في جوف الكعبة على ألا يخون أحدهما الآخر فكانت خيانة محمد علي حيث اعتقل الشريف غالب وأولاده وبعث بهم إلى مصر وكان الشيخ الجبرتى رحمه الله كثيراً ما عبر عن امتعاضه من أعمال الجند الذين كانوا يجتمعون ويبعث بهم إلى محمد علي في مكة حيث كانوا يفطرون في رمضان و يطوفون في أسواق مصر، وهم سكارى بالخمرة والحشيش ويملأون أوقاتهم في نهار رمضان وليله بالفسق والفجور وانظر في ذلك ص١٦٦، ١٨٤.

والجبرتي رحمه الله كان ينظر إلى حملات محمد علي على أنها ظالمة بدليل قوله وهو يتحدث عن عودة طوسون إلى مصر من ذلك قوله (حتى أن طوسون باشا وحسن باشا كتبا في امضائهما على المراسلات بعد اسمهما لفظة الغازي، والله أعلم بخلقه)

ثم جاء في حديثه عن عبدالله وعبد العزيز ص١٧٥ مبعوثى الإمام عبدالله بن سعود إلى محمد علي ومنه مايدل على ميله إلى الدعوة وارتياحه لرجالها وانظر ص١٩٧ حيث وصف الإمام عبدالله ومن قتل معه في استانبول بالشهداء

وتنم بعض أحاديثه على أنه كان واجدا على محمد علي وابنه إبراهيم ومن في حاشيتهما من ذلك حديثه عن إبراهيم باشا بعد عودته من الجزيرة العربية ص ٢٠٠

وكان إبراهيم باشا قد أساء استقبال علماء مصر حين حضروا للسلام عليه فلم يقم لهم ولم يرد عليهم السلام ولم يحادث أحداً منهم بل انصرف عنهم إلى من وصفه الجبرتى بقوله (شخصاً سخرية عنده).

تنبيه هام :

١ ــ إن من يقرأ تاريخ الجبرتي **(تاريخ عجائب الآثار)** يحس في أقواله عن الدولة

السعودية شيئاً من التناقض لاختلاف اللاحق فيها عن السابق. وذلك ناتج عن أن الجبرتى كان في أول الأمر ينقل عن الرواة الذين كيفوا الأخبار حسب أهوائهم.

فلما اطلع الجبرتي على أقوال بعض الثقات ولقى بعض السعوديين ومنهم مبعوثا الإمام سعود إلى محمد علي تغيرت نظرته إلى السعوديين وصار القارىء يحس ميله إليهم وارتياحه لأعمالهم ووصفه لمن لقى منهم بجميل الأوصاف. تحس ذلك في حديثه عن المبعوثين حتى ما اشترياه من مصر من كتب الحديث والتفسير وزيارتها جامع الأزهر ثم في حديثه عن طامي والإمام عبدالله بن سعود وغيرهم من الرجال الذين نقلوا إلى مصر وهذا ما جعل أديب غالب يشك في أن الكتاب طبع على هيئة التي صنعه عليها مؤلفه والله أعلم.

٢ ــ أنه كان كثير الضجر من أعمال محمد علي لا بالنسبة لحربه مع السعوديين وحسب بل من أعماله في مصر وظلمه أهلها وقتله الأبرياء من غير ماذنب اقترفوه.

٣ ــ ولعل هذا هو سبب قتل ابنه مخنوقاً، وهو خارج من بيت محمد علي ثم قتله هو أيضاً مخنوقاً في طريق شبرا رحمه الله.

ثم أنه كان لايتخوف في إظهار السخط على أعمال محمد علي وما جرته على المصريين من تضييق زد على ذلك أنه كان يرى أن مافعله جيش محمد علي بزعماء الدولة السعودية حرام لايجوز فعله، ولذا كان يصيح فيهم قائلاً كيف تقتلون أناساً يقولون لا إله إلا الله.

٤ ــ إن الصفحات المشار إليها في هذا البحث هي صفحات (من أخبار الحجاز في تاريخ الجبرتى) لوجود خرم في النسخة التي في مكتبتي من كتاب الجبرتي.

البحث التاسع

المضرس بن ربعي

مقدمة :

الحديث عن الشعر والشعراء ــ أيها القارىء الكريم ــ حديث عن الفن والجمال والسحر والخيال، حديث عن الفن الرفيع، والتصوير البديع لما هو كامن في خفايا النفوس البشرية من أحاسيس ومشاعر مختلفة. امتدت إليها ألسنة سبقت وفاقت ريشة الرسام في جمال تصويرها وفتنة سحرها. ألسنة تقتد ألفاظها من الصخور تارة، وتغترفها من الغدير المشمول تارة اخرى، فتضعها في ثياب العواصف والأعاصير العاتية، أو تستعير لها قميص النسيم الهادىء العليل، وتختطف معانيها من الوجوه المتقلبة تصور الحياة المختلفة المملوءة بالموجات والأحداث.

فأخرجت تلك المشاعر والأحاسيس مرة في صور غاضبة مكفهرة في الهجاء والوعيد، وأخرى مترفعة تتهادى اليك متبخرة تحوطها هالة من الكبرياء والخيلاء، وتلك صورة الفخر والمديح ثم تظهر لك على خشبة ذلك المسرح صورة كلها أناقة وظرف ورشاقة وخفة، صورة تورِدها لواعج الشوق وتلوح على شفتيها ابتسامة اللقاء، وتظللها إشراقة الأمل، وتلك هى : صورة الغزل والآمال في المستقبل، وقد تبدى لك صورة باكية حزينة تذيب القلوب بنار الألم فتسيل أناتها دموع العين وتعقد حسراتها العبرات في الصدور وتلك هى صورة الرثاء والحب المعقد المقيد بالظروف والملابسات أو تظهر لك الصورة في ثياب الناصح أو الزاهد القانع وذلك هو شعر الحكمة والزهد.

وقد تقوم الصورة مقام الرسام فتصور لك شيئا من جوانب الحياة حتى ترى فيها من الأشياء ما غاب عنك. وذلك هو شعر الوصف. صور أجمل من الجمال، وأى جمال بعد التلذذ بالجمال إن لم يكن هو ولئن كانت نجد هى مهد تلك الصور وملاعبها وموطن نموها وتكاملها فلقد فجعت فيها زمنا طويلاً.

كانت اللغة العربية : مهددة بالضياع والاضمحلال قبل أن تكون لغة القرآن، لأن عوامل الهدم والفناء تحوطها من كل جانب فاحتضنتها ــ نجد ــ وحمتها من الضياع الذي

كان مصيرا لسائر أخواتها من اللغات المعاصرة لها ولم تقتصر ــ نجد ــ على حفظ اللغة فقط، بل عملت على تطويرها وتكاملها حتى بلغت أقصى حد من النضج، الذي يمكن أن تصل إليه أي لغة، ثم بعد ذلك أسلمتها لهم كاملة غير منقوصة قابلة للتطوير فرفعوا أعلامها في كل مكان، وأجروا أنهارها على كل لسان، وكلما احتاجوا إلى لفظ من الألفاظ ليدلوا به على أي شيء من الأشياء التى ما كانوا يعرفوها قبل ذلك رجعوا إلى خزائنها فأمدتهم بما يريدون وفي غمرات الأفراح بالنصر والفتوحات وانبساط البساط العربي على أكثر المعمورة نسى العرب صاحبه الفضل الأكبر عليهم، وجازوها كما جوزى سنمار.

لقد نسى العلماء والرواة ــ نجدا ــ وانساق وراءهم الأمراء والخلفاء ــ ونعنى بالعلماء هنا علماء اللغة والأدب ــ أما علماء الدين فلم يكلفوا أنفسهم شيئاً من ذلك، فلا مسئولية عليهم.

إنك حينما تتبع الأعمال والإصلاحات التي قام بها الخلفاء والأمراء لا ترى من ذلك إلا ما كان على طريق الحاج. كحفر عنيزة في العصر الأموى وتعميرها في العصر العباسي، ومن ذلك النباج المعروفة الآن بالأسياح وأشباهها إذا فهم لم يعملوا ذلك من أجل تعمير نجد، وإنما عملوه من أجل أنفسهم لأنهم يمرون بتلك الأماكن.

أما الرواة والعلماء فقد ضربوا صفحا عن نجد شعرها وشعرائها ولم يأخذوا من ذلك إلا ما يحتاجون إليه من تثبيت قاعدة أو شاهد على قصة وما إلى ذلك.

وقد تقول : أيها القارىء الكريم إن استدلالهم ببعض الأبيات واستشهادهم بها دليل على عدم إهمالهم لما في نجد من الشعر.

ومن هنا اخذت دليلي لأنهم لو جهلوا ذلك لكان لهم في جهلهم العذر، ولكنهم علموا أن هناك شعراً فلم يطلبوه مع انهم يشدون الرحال للفظ اللغوى الواحد، والدليل على انهم لم يطلبوه انه لم يصل الينا شيء من ذلك كما وصل إلينا غيره إننى ألقي مسئولية ضياع الشعر في نجد فيما بعد العصور الإسلامية الأولى التي بدا منها اهمال ــ نجد ــ على الرواة والعلماء أولا، وعلى الخلفاء والأمراء ثانيا، ولو لم يكن الوفاء غريزة في طباع العرب لما لمناهم في ذلك.

أيضاً لو كانت نجد قد فرطت في لسانها وأهملت لغتها حتى طغت عليها العجمة لما كان هناك محل للاستغراب ولكنها بقيت محافظة عليها زمنا لاندرى عن تحديده بالضبط ولكنه طويل إلا أنها خلفت لأبناء الضاد أثمن تراث أدبى لايزال هو المعين الصافي والمنهل العذب لرواد الأدب وعشاق الجمال ذلك الأدب الذي جعل من معاطن الإبل ومسارحها. ومرابع الصيد ومراتعها جنة أنزل نفلها وخزاماها وشيحها وقيصومها منزلة لم تصل إليها الورود والرياحين.

وما ذلك إلا لأنها نفثات من صدور امتلأت بالحب الصادق الذي امتزجت به الروح واختلطت به الدماء في العروق.

اخا العريب أما تنفك بارقة
تسمو بطرفي إلى ريان أو حضن

اصبوا إلى أرض نجد وهى نازحة
والقلب مشتمل مني على الحزن

إلى قوله :

واسأل الركب عنها والدموع دم
بناظر لم يخط جفنا على وسن

ان يجمع الله شملى يا هذيم بهم
فلست ماعشت بالزارى على الزمن

ورحم الله حافظاً حيث يقول :

ولا تنس نجداً إنها منبت الهوى
ومرعى المها من سارحات ورتع

ونتحدث الآن عن شاعر من هؤلاء الشعراء الذين دفنت شعرهم يد الإهمال وهو :

١ ـــ المضرس بن ربعي الأسدى :

لو لم يكتب لهذا الشاعر أن يدخل سوق المربد و يقابل الفرزدق فيه لدفن اسمه مع شعره ولما بقى هناك مضرس يذكر في كتب الأدب والشعر.

حياته :

هو شاعر نجدي ولد في آخر عهد بني أمية على حسب ما فهمناه من نسبه ومن الروايات التي روتها كتب الأدب لقصته مع الفرزدق فقد قال صاحب العمدة ابن رشيق القيرواني : ومر الفرزدق بمضرس بن ربعي، وهو غلام حديث السن ينشد الناس شعره فحسده على ماسمعه منه الخ..

أما تحديد مولده ووفاته فلم نعثر على شيء من ذلك. وأما قول البغدادي في الخزانة أنه جاهلي، وقول صاحب المنجد، أنه عاش قبل الهجرة بنحو ثمانين سنة فهذا خطأ لا تفاق كثير من كتب الأدب على ماحصل بينه و بين الفرزدق، والفرزدق شاعر قوى مشهور توفي سنة ـــ ١١٠ ـــ من الهجرة.

نسبه :

هو المضرس بن ربعي بن لقيط بن خالد بن نضلة بن الأشتر بن حجوان بن فقعس بن طريف بن عمرو بن قعود بن الحارث بن دودان بن أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وخالد هذا الجد الثاني للمضرس هو ثاني نديمين أسديين للمنذر بن ماء السماء ـــ جد النعمان بن المنذر ـــ والذين كان قتل المنذر لهما سببا في جعله يومين في السنة يوم بؤس يقتل فيه أول قادم و يطلي بدمه قبريهما، و يوم نعيم يعطي أول من قدم فيه مائة من الإبل قال: الجاحظ في كتاب البخلاء وفي خالد بن نضلة يقول : الأسود بن يعفر :

وقبلك مات الخالدان كلاهما

وفقعس الجد السابع له هو جد الفقعسيين، وهم فخذ من بنى أسد اتخذت من جبل

القنان معتصماً لها قيل إنهم كانوا قطاع طريق فإذا أراد أحد أن يؤدبهم أو ينتقم منهم اعتصموا بهذا الجبل المنيع وفيه يقول نهشل بن حري :

ضمن القنان لفقعس سوأتها
إن القنان بفقعس لمعمر

والقنان من الجبال المشهورة عند العرب في بلاد القصيم في الجزء الشمالي منها، الواقع في بلاد بني أسد وقد ورد اسمه على لسان كثير من الشعراء، من ذلك قول زهير بعد ماسرد عدة أمكنة في بيتين قبله:

فـؤاد البدى فالطوى فثادق
فواد القنان جزعه فأكافله

قال الشيخ ابن بليهد رحمه الله (وهو جبل أسود يعرف الآن باسم ــ القنيات ــ ويقال : إنه يعرف ــ بالقنينة) أما مكان إقامته فلا نعرف سوى أنه من فقعس التي تقيم بالقنان والتي أشرنا إليها آنفا وفي قصته مع الفرزدق دليل على أنه يقيم في نجد وأنه قدم إلى البصرة لما بلغه أن الفرزدق هجا قبيلته بنى أسد وهذه هى قصته مع الفرزدق.

بلغ المضرس بن ربعي أن الفرزدق قد هجا قبيلته بنى أسد فقدم البصرة، وهو ما زال في حداثة سنه وجلس بالمربد وأخذ ينشد قصيدته التي مطلعها :

تحمل من وادى ريزة حاضره
وأنوى بريعان الخيام أعاصره

(وقد روى المطلع بعدة روايات سنشير إليها فيما بعد) فمر به الفرزدق وسمعه وهو ينشد الناس شعره فحسده على ما سمعه منه قال : ممن انت؟ فقال : أنا المضرس الأسدي، فقال لعلك ضريس، فقال : أنا مضرس، قال الفرزدق : إنك بى لشبيه فهل وردت أمك البصرة؟ فقال المضرس : لابل وردها أبي.

أراد الفرزدق بقوله : إن أم المضرس إذا كانت وردت البصرة فقد وقع عليها فهو ابنه، وأراد المضرس بقوله : إن أباه وقع على أم الفرزدق ثم قال الفرزدق : ما فعل المعمر؟ قال المضرس : هو بلصاف حيث تبيض الحمر، قال الفرزدق : هل انت مجيز لى بيتا، قال :

هاته :

قال الفرزدق :

ومـــا بـــرئـــت إلا عـــلـــى عـــتـــب بهـــا
عـــراقـــيبهـــا مـــذ عـــقـــرت يـــوم صـــوأر

قال المضرس :

مـــنـــاعـــيـــش للـــمـــولـــى تـــظـــل عـــيـــونهـــا
إلـــى الـــســـيـــف تـــســـتـــبـــكـــى اذا لم تـــعـــقـــمـــر

فنزع الفرزدق جبته ورمى بها على المضرس فقال والله(لا أهجو أسديا قط).. أراد الفرزدق قوله ــ ما فعل المعمر ــ قول نهشل بن حرى :

ضـــمـــن الـــقـــنـــان لـــفـــقـــعـــس سوآتها..
إن الـــقـــنـــان بـــفـــقـــعـــس لمـــعـــمـــر

وقد تقدم البيت :

وأراد مضرس بقوله :«هو بلصاف حيث تبيض الحمر» قول أبى المهوش الأسدى :

ولأن تـــســـرك مـــن تـــمـــيم خـــصـــلـــة
فـــلـــما يـــســـوؤك مـــن تـــمـــيم أكثر

قـــد كـــنـــت أحـــســـبهـــم أســـود خـــفـــيـــة
فـــإذا لـــصـــاف تـــبـــيـــض فـــيـــه الحـــمـــر

وله أخ اسمه البراء ذكره الآمدى في كتاب، المؤتلف والمختلف، وذكر له خمسة أبيات منها قوله :

أبـــعـــد بـــنـــى أمـــي الـــذيـــن تـــتـــابـــعـــوا
أرجـــى الحـــيـــاة أم مـــن المـــوت أجـــزع

ثمانية كانوا ذؤابة قومهم
بهم كنت أعطي من أشاء وأمنع

ولم أعثر على أحد من هؤلاء الثمانية الذين ذكرهم سوى صاحبنا ــ المضرس ــ

تعقيب :

يفهم من هذه القصة أن شاعرنا المضرس جاء إلى البصرة وهو مازال في سن الشباب ومع ذلك فقد قالت في حقه بعض كتب الأدب : أنه شاعر محسن متمكن وأنه كثير الشعر. إلا إنك حينما تفتش عن شعر الرجل لا تكاد تعثر له على قصيدة أو نصف قصيدة اللهم إلا أبياتاً مبعثرة هنا وهناك.

عقد ثمين قطعت نظامه أيدى الإهمال فتتأثرت حباته يميناً وشمالا ثم توارت في طبقات الرمال حيث كانت عظام ناطحه الذي يقول :

وليس يزين الرحل نطع ونمرق
ولكن يزين الرحل من هو راكبه

كأن الفتى لم يحيى يوما إذا جرى
على قبره هابى التراب وحاصبه

وها نحن الآن نحاول جمع تلك الحبات المتناثرة والتأليف بينما وجدناه منها وأنى لنا وضعها في نظام كنظامها الأول.

ولو كان شعر الرجل قليل القيمة أو ضعيف السبك مهلال النسج، أو كانت الصورة الأدبية في هذا الشعر ضئيلة، لو كان الأمر كذلك لما استغربنا أن يضيع شعر الرجل ولكن الذي يزيد الأمر غرابة أن امهات كتب الأدب نعتت شعره ينعوت بالجودة والجمال وقال عنه بعض الأدباء «إنه شاعر بدوي تظهر فيه العربية الخالصة في المعاني والصور وفي الديباجة المحكمة».

وأنت حينما تقرأ قصته مع الفرزدق التي أشرنا اليها سابقا والتي تواترت على روايتها أو رواية بعض منها كثير من أمهات كتب الأدب العربي تظهر لك قوة هذا الشاعر ومنزلته

بين الشعراء وأكبر دليل على ذلك رمى الفرزدق جبته عليه وقسمه على أن لايهجو أسديا قط. وذلك بعد أن أجاز البيت الذي مر بك في القصة.

والفرزدق فحل من فحول الشعراء لم يذعن لغيره من الفحول كجرير وإذعانه للمضرس شاهد على ما لهذا الرجل من باع طويل وقدم ثابته فيه.

واما اعتداده بنفسه واعتماده على شاعريته فإن مجيئه إلى البصرة بعد أن سمع بهجاء الفرزدق لقومه بنى أسد وإنشاده الشعر في المربد وملازمته فحل الشعراء الفرزدق لأكبر دليل وأوضح برهان على ذلك.

وقد تقول أيها القارىء الكريم أن الرواة لايتركون شعر الفحول يضيع ولو كان المضرس منهم لحفظوا شعره ولكن حينما تتذكر ما قلناه في المقدمة من إهمال الرواة لشعر النجديين[1] في أواخر العصر الأموي وما بعده مما نتج عنه إهمال العلماء والخلفاء لهذا الشعر، حينما تتذكر هذا تعرف السبب في ضياع شعر المضرس وغيره من الفحول الذين لو وصل إلينا شعرهم لزاد في ثروتنا الأدبية.

واى شعر كشعر النجدين الذين نبتت اللغة في أرضهم وتدرجت في مدارج النمو والكمال حتى بلغت القمة في تهذيبها وتصفيتها ومهما يكن من أمر فان ما وجدناه من شعر الرجل يكاد يكون صورة كاملة لما عليه العرب من العادات والأخلاق النبيلة والصفات المحمودة.

وفي تتبعى لأخبار وأشعار ذلك الشاعر[2] استعرضت كثيرا من الكتب التي وصلت

(١) على أنني لا أستبعد أن يكون كثير من ذلك قد ذهب ضحية للحملات التي شنها أعداء العرب أمثال هولاكو على التراث العربى وحينئذ يبرأ العلماء والرواة من تلك المسئولية في ماقبل ذلك التاريخ أى حملة هولاكو وأمثالها.

(٢) كل كتاب وجدت فيه ولو بيتاً واحد لم أجد فيما قبله سنجده في آخر البحث. وقد وجدت في أحد الكتب إحالة على الاصمعيات في إحدى القصائد فلم أجد في النسخة المطبوعة شيئاً أما المخطوطة فقد أخبرنى أساتذتى أنه استعرض النسخة الخطية في دار الكتب المصرية فلم يجد فيها ذلك وكنت قد طلبت منه البحث عن تلك القصيدة.

فعسى أن أوفق إلى الوصول إليها وإلى مالم تصل إليه يدي بعد فأنى أعترف بجهلى بكثير من التراث العربي لبعده عن يدى أو لانطوائه في زوايا مكتبات الغاصبين الذين سرقوا تراثنا العربى والإسلامي.

إليها يدى والتي هي مظنة لذلك. وأكثرها من أهم مصادر الأدب العربى فلم أجد سوى النزر اليسير ومع ذلك فمن غير الممكن أن اقدم لك أيها القارىء الكريم كل ماعثرت عليه من أشعار غير أننى أعدك بأن أقدمها لك في مناسبة أخرى إن شاء الله.

وقد جرى المضرس على سنة الشعراء من قبله في افتتاحهم يذكر أطلال الأحبه والوقوف بها وقفة فيها حيرة كوقفة شحيح المتنبى في هذا البيت.

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها
وقوف شحيح ضاع في التراب خاتمه

وفيها تأمل وتذكر للايام السالفة التي جمعتهم في تلك الأماكن ووصف ماجرى على هذه الاماكن بعد ارتحالهم عنها وتعاقب الرياح والسحب على آثارهم وطمسها لها ووصف الظعائن التي سارت بهم عن تلك الأماكن ومن ذلك قوله :

قفا تعرفا بين الدحائل[1] والبتر[2]
منازل كالخيلان أو كتب السطر

عفتها السمى المدجنات وزعزعت
بهن رياح الصيف شهراً إلى شهر

فلما علا ذات الأروم[3] ظعائن
حسان الحمول من عريش ومن خدر

وقوله من قصيدته التي ألقاها في المربد :

---

(١) الدحائل جمع لجمع دحل وهى صدوع تمسك ماء السيل. وهو اسم جنس ولا توجد إلا في الصمان ومايليها وقال لى أحد رجال الأسفار الدحائل مورد يقع في الشمال الغربي عن قبة.

(٢) البتر أجبل مطلات على زبالة. قاله صاحب القاموس.

(٣) الاروم: قال ياقوت لبنى سليم وقال الشيخ ابن بليهد ماملخصه:
وهى هضبة شهباء تعرف بهذا الاسم وأخبار العرب وأشعارهم تشرك معها الهضبة شابه وهما قريتان من بعض خارجتان من جبال ابلي السود المتاخمة للجهة الشمالية من جبل كشب وهو جبل أسود يقع شمالا عن الدفينة ويمتد حتى يحاذى أول حضن.

تحمل من وادى غريزة (١) حاضره
وألوى بريعان الخيام أعاصره
ولم يبق بالوادي لاسماء منزل
وحوراء إلا مزمن العهد داثره
ولم ينقص الوسمى حتى تنكرت
معالمه واعتم بالنبت حاجره
بلاد خلت من أهلها وترجعت
بها الخنس آرام الشقيق[٢] وباقره

بما قوله :

تحمل من ذات الجراميز[٣] أهلها
وقلص عن نهى القرينة[٤] حاضره

تربعن روض الحزن[٥] حتى تعاورت
سهام السنا قربانه وظواهره

---

(١) وغرزة قال في القاموس : وغرزة موضع بين مكة والطائف وكزبير ماء بضرية أو ببلاد بنى بكر بن كلاب وروى هذا المطلع بعدة روايات منها :
(تحمل من وادى اشيقر حاضره) وهى قرية عامرة قرية من شقراء مركز الوشم وهى قديما لبنى عكل.

(٢) الشقيق، قال ياقوت : بالتصغير من مياه بنى بكر بن كلاب يفتح أوله ماء لبنى أسيد بن عمرو بن تميم، وقال البكري موضع في ديار بنى سليم. وفي اللغة ما انخفض بين او ما ارتكم من الرمل.

(٣) الجراميز : جمع جرموز، وهو بالضم حوض صغير او مرتفع الاعضاد والبيت الصغير والذكر من أولاد الذئب والركية، وموضع باليمامة قاله صاحب القاموس.

(٤) القرينة، قال البكرى : موضع قبل حزوى. وقال الشيخ ابن بليهد : روضة قديمة تعرف بهذا الاسم حذف منها المتأخرون الهاء وزادوا ــ ام ــ فصارت ــ أم قرين ــ وتقع في غربى الصمان، واما القرينة المعروفة الآن فاسمها قديما ــ قران ــ وروى البيت بوضع ــ ذات التنانير ــ موضع ذات الجراميز وسيأتى الكلام على ــ ذات التنانير ــ ووضع ــ الدفينة ــ موضع ــ القرينة ــ وهى أى ــ الدفينة ــ ماء بين المويه وعفيف يردها الحجاج. وتقع في الشرق عن جبل كشب وفيها حجر يستأجر المسافرون للراحة فيها وقت القيلولة في الصيف وفي الليل وقت الشتاء.

(٥) الحزن، قال الأصمعى :ــ الحزن ــ في جزيرة العرب ثلاثة واشهرها حزن بنى يربوع قال الشيخ ابن بلهيد هو شرقى الاكثبة المتاخمة لشرقى جبل طى وقد أبدلت نونه لاما وقال في مكان آخر أنه باق بهذا الاسم في القطعة الشمالية من الصمان.

فلما تعالت بالمعاليق حلة
لها سابق لايخفض الصوت سائره

تلاقين في ذات التنانير[1] سربة
على ظهر عادى كثير سوافره

تبينت اعناق المطى وصحبتي
يقولون موقوف السعير وعامره

فلما لحقناهم قرأنا عليهم
تحية موسى ربه إذ يحاوره

وقلن على الفردوس[2] أول مشرب
احل بجيران ابيحت دعاثره[3]

ومنها :

فالقت عصا التسيار عنها وخيمت
بأرجاء عذب الماء بيض[4] حفائره

أزال القذا عن مائه وافد الصبا
يروح عليه تأسا ويباكره

بلماعة قد باكر الصيف ماءها
وفاضت عليه شمسه وجرائره

---

(١) التنانير. جمع تنورة وهى هنا عقبة، قال في حاشية الآلى شرح الأمالى لأبى علي القالى ــ وهى عقبة بازاء زبالة بينها وبين الشقوق.

(٢) الفردوس : روضة قرب اليمامة يسكنها بنو يربوع سابقا. قال الشيخ ابن بليهد قد اندرس ذكرها ولم يبق منها شيء لا في جهة اليمامة ولا في غيرها.

(٣) دعائره : مخفف دعاثير وهو جمع دعثور وهو الحوض المتثلم. قال ابن فارس : الدعثور الحوض الذي لم يتنوق في صنعته أو لم يوسع.

(٤) في رواية زرق حفائره.

هذا ما اخترناه لك مما عثرنا عليه من قصيدته الطويلة التي ألقاها في المربد والتي بسببها كتب له الخلود في عالم الأدب والشعر ذلك أن الخلود الذي عبر عن حبه له بهذا البيت :

فـإنـى أحـب الخـلـد لـو أسـتـطـيـعـه
وكـالخـلـد عـنـدى أن أمـوت ولم أذم

وقد طرق المضرس كثيراً من أغراض الشعر المعروفة في عصره كالحكمة والفخر والوصف والهجاء وما إلى ذلك من تلك الأغراض، وانني لمؤلف لك من شعره باقة تمثل ما طرقه من الأغراض مما عثرنا عليه فمثلا قال في الحكمة :

فـلا تهـلـكـن الـنـفـس لـومـا وحـسـرة
عـلـى الـشـيء أسـداه لـغـيـرك قـادره

ولا تـيـأسـن مـن صـالـح أن تـنـالـه
وإن كـان بـؤسـاً بين أيـد تـبـادره

ومـا فـات فـاتـركـه إذا عـز واصـطبر
عـلـى الـدهـر إن دارت عـلـيـك دوائره

فـإنـك لا تـعـطـى امـرأ حـق غـيـره
ولا تـعـرف الـشـق الـذي ألـغـيـت مـاطـره

■ ■ ■

وقوله :

فـإيـاك والأمـر الـذي إن تـوسـعـت
مـوارده ضـاقـت عـلـيـك المـصـادر

فـما حـسـن أن يـعـذر المـرء نـفـسـه
ولـيـس لـه مـن سـائـر الـنـاس عـاذر

ومن قوله في الوصف :

ويوم من الشعرى[1] كأن ظباءه
كواعب مقصور عليها ستورها

تدلت عليه الشمس حتى كأنها
من الحر يرمي بالسكينة نورها

نصبت له وجهي وكلفت حميه
أفانين مرجوع بطيء فتورها

وليل يقول الناس في ظلماته
سواء بصيرات العيون وعورها

كان لنا منه بيوتا حصينة
مسوح أعاليها وساج كسورها

تجاوزته في ليلة مدلهمة
ينادى هداها من فتى يستحيرها

ويقال أن بيته الرابع هو أوصف بيت قالته العرب .

وقوله في الفخر :

إنا لنصفح عن مجاهل قومنا
ونقيم سالفة العدو الأصيد

ومتى نرى يوما فساد عشيرة
نصلح وإن نر صالحا لا نفسد

ونعين فاعلنا على ما نابه
حتى نيسره لفعل السيد

(١) الشعرى هى النجم المعروف قال تعالى :(وانه هو رب الشعرى) ويسمى المرزم .

ونجيب داعية الصباح بثائب
عجل الركوب لدعوة المستنجد

وقوله يطرى كرمه :

فلا تسألينى واسألى ما خليفتي
فنفل شوكتها ونطفىء حميها

حتى تبوح وحمينا لم يبرد
إذا رد غافي القدر من يستعيرها

وقوله في الفخر أيضاً :

وإنى لأدعو الضيف بالضوء بعدما
كسا الأرض نضاح الجليد وجامده

لإكرامه إن الكرامة حقه
ومثلان عندى قربه وتباعده

أبيت أعشيّه السديف لأننى
بما نال حتى يترك الحى حامده

وإنى لمنجاز لما قيل أننى
أرى سبة أن يخلف الوعد وأعده

ثم أسمعه وهو يندد بقطع الرحم و يتمدح بأنه ليس من عادته :

ولا أدفع ابن العم يمشى على حفى
وإن بلغتنى من أذاه الجنادع

ولكن أواسيه وأنسى ذنوبه
لترجعه يوماً إلي الرواجع

وحسبك من ذل وسوء صنيعة
مناواة ذي القربى وإن قيل قاطع

ومن قوله في الهجاء :

ومستعجل بالحرب والسلم حظه
فلما استثيرت كل عنها محاجره

وحارب فيها بامرىء حين شمرت
من القوم معجاز لئيم مكاسره

فأعطى الذي يعطى الدليل ولم يكن
له سعي صدق قدمته أكابره

كأن على ذي الظبي عينا بصيرة
بمنطقه أو منظرا هو ناظره

يحاذر حتى يحسب الناس واحداً
من الخوف لاتخفى عليهم سرائره

وقوله في التوعد :

يا أيها الرجل المهدى قوارضه
اشخص طريقك لا تشخص بك البصر

لازلت حربا ولا سالمتنا ابدا
فما لديك لنا نفع ولا ضرر

وقوله في الغزل :

ولم أنس من ريا غداة تعرضت
لنا دون أبواب الطراق من الأدم

تعرض حوراء المدامع ترتعى
تلاعا وغلانا سوائل من رقم

قصيدة المضرس التي ألقاها في المربد

وهذه القصيدة للمضرس بن ربعي جمعتها من مصادر مختلفة أطول ماعثرت عليه منها مجتمعا ستة أبيات فاجتهدت في نظامها وتأليف ماتناثر من أبياتها فجاءت على هذا النحو.

١ ــ تحمل من وادى غريزة حاضره ... وألوى بريعان الخيام أعاصره

٢ ــ ولم يبق بالوادي لأسماء منزل ... وحوراء الأمس من العهد داثره

٣ ــ ولم ينقض الوسمى حتى تنكرت ... معالمه واعتم بالنبت حاجره

٤ ــ بلاد خلت من أهلها وترجعت ... بها الخنس آرام الشقيق وباقره

٥ ــ كأن وقوماً طرحت في ملاعب ... مراضيفه غزلانه وجآذره

٦ ــ تحمل من ذات الجراميز أهلها ... وقلص عن نهي القرينة حاضره

٧ ــ تربعن روض الحزن حتى تعاورت ... سهام السنا قربانه وضواهره

٨ ــ فلما تعالت بالمعاليق حله ... لها سابق لايخفض الصوت سائره

٩ ــ تلاقين في ذات التنانير سربة ... على ظهر عادي كثير سوافره

١٠ ــ تبينت أعناق المطى وصحبتي ... يقولون موقوف السعير وعامره

١١ ــ فلما لحقناهم قرأنا عليهم ... تحية موسى ربه إذ يجاوره

١٢ ــ وقلن على الفردوس أول مشرب ... اجل جيران كانت أبيحت دعاثره

١٣ ــ فأما نبات اللهو منا ومنهم ... مع الربرب البرى الحسان محاجره

١٤ ــ فأما الأصيل الحلم منا فزاجر ... خفافا حلالا أو مشيراً فذاعره

١٥ ــ فلما قال بعض من كان منهم اذ القول مخبوء لنا وهو آخره

١٦ ــ صرفنا ولم نملك دموعاً كأنها بواد جمان بين أيد تناثره

١٧ ــ فألقت حصى التسيار عنها وخيمت بأرجاء عذب الماء بيضا حفائره

١٨ ــ وراحلة قدمت أقتاد رحلها لترد من لايحقر الجهد آطره

١٩ ــ كأنى أحادى ذي دلال يصورى بقربي وقوف بالحفاظ أواصره

٢٠ ــ لقد عجمتني الفاحمات بردها صليب العصا عنى على من مياسره

٢١ ــ وإني لسوار الهوى في شبيبتى إلى المجد سباق به من أخاطره

٢٢ ــ ومستعجل بالحرب والسلم حظه فلما شمّرت فحل عنها محاجره

٢٣ ــ وحارب فيها بامريء حين شمّرت من القوم معجاز لئيم مكاسره

٢٤ ــ فأعطى الذي يعطي الدليل ولم يكن له سعي صدق قدمته أكابره

٢٥ ــ كأن لذي الطبى عينا بصيرة بمنطقه او منظراً هو ناضره

٢٦ ــ يحاذر حتى يحسب الناس واجداً من الخوف لاتخفى عليهم سرائره

٢٧ ــ فلا تهلكن النفس لوماً وحسرة على الشيء آسداه لغيرك قادره

٢٨ ــ ولاتيأس من صالح أن تناله وإن كان بؤساً بين أيد تبادره

٢٩ ــ ما فات فاتركه إذاعز واصطبر على الدهر إن دارت عليك دوائره

٣٠ ــ فإنك لاتعطي امرأ حق غيره ولا تعرف الشق الذي ألفيت ماطره

القصيدة الثانية

١ ــ لمن الديار غشيتها بالإثمد … بصفاء لينة كالحمام الركد
٢ ــ أمست مساكن كل بيضاء رامة … عجلى تروعها وإن لم تطرد
٣ ــ صفراء عارية الأخادع رأسها … مثل المدق وأنفها كالمسرد
٤ ــ وسخال ساجية العيون خواذل … بجماد لينه كالنصارى السجد
٥ ــ إنا لنصفح عن مجاهل قومنا … ونقيم سالفة العدو الأحيد
٦ ــ ومتى نرى يوماً فساد عشيرة … نصلح وإن نرى صالحاً لا نفسد
٧ ــ وان نمو صعداً فليس منهم … منا خبالاً ولانفوس الحسد
٨ ــ ونعين فاعلنا على مانابه … متى نيسره لفعل السعد
٩ ــ ونجيب داعية الصباح بتائب … عجل الركوب لدعوة المستنجد
١٠ ــ فنغل شوكتها ونقتاد حميها … حتى يتوج وحمينا لم يبرد
١١ ــ وتحل في دار الحفاظ بيوتنا … رفع الجمائل في العرين الأسود

القصيدة الثالثة

١ ــ لادفع ابن العم يمشي على شفاً … وإن بلغتنى من أذاه الجنادع
٢ ــ ولكن أواسيه وأنسى ذنوبه … لترجعه يوماً إلىّ الرواجع
٣ ــ وحسبك من ذل وسوء صنعه … مناواة ذى القربى وان قيل قاطع
٤ ــ وأن امرأ في الناس يعطى ظلامه … ويمنع نصف الحق منه تواضع
٥ ــ أبا الموت يخشى أثكل الله أمه … أم العيش يرجو نفعه وهو ضائع

القصيدة الرابعة

١ ــ وليس يزين الرحل قطع ونمرق ولكن يزين الرحل من هو راكبه

٢ ــ كأن الفتى لم يحيى يوماً إذا جرى على قبره هابي التراب وحاصبه

القصيدة الخامسة

١ ــ ويوم من الشعرى كأن ضباءه كواعب مقصور عليها ستورها

٢ ــ تدلت عليه الشمس حتى كأنها من الحرير من بالسكينة نورها

٣ ــ نصت له وجهى وكلفت حميه أفانين مرجوح بطيء فتورها

٤ ــ فلا تسألينى واسألى ماخليقتى إذا رد عافى القدر من يستعيرها

٥ ــ وليل يقول القوم من ظلمائه سواء بعيرات العيون وعورها

٦ ــ كأن لنامنه بيوتاً حصينة موح أعاليها وساج كسورها

٧ ــ تجاوزته في ليلة مدلهمة ينادى صداها فتى يستخيرها

٨ ــ وعوراء قد قيلت فلم استمع لها ولم أك مشراقاً بها من يحيرها

٩ ــ إذا قيلت العوراء وليت سمعها سواء ولم اساك بها مادبيرها

١٠ ــ تناسيتها والحكم منى سحبية وانبأت نفسي أنها لاتضيرها

البحث العاشر
جحد اللص

جحدر اللص

أيها القارىء الكريم هانحن نعاود معك الحديث عن أحد أولئك الشعراء الفحول الذين تجنى عليهم الزمن فدفن شعرهم مع عظامهم في هذه الصحراء المترامية الأطراف وشاعرنا في هذه الحلقة هو جحدر اللص من فحول شعراء اليمامة الفرسان المشهود لهم بذلك في كل ميدان صالوا فيه وجالوا.

ولست أدرى لم أغفله وكثيرا من أمثاله زميلنا الأستاذ عمران في كتابه (شعراء اليمامة) فإنه لم يات إلابالمشهورين في كتب الأدب وتاريخه المتداوله اللهم إلا واحد أو اثنان.

على أنى لا ألوم الأستاذ على إغفاله أمثال هؤلاء لأن الكتابة عن واحد منهم ربما تأخذ من الوقت والجهد مثل ما يأخذ كتاب كامل من غيرهم من مشاهير الشعراء.(1)

على أن الباحث قد يستنفذ جهده و يضيع كثيراً من وقته ثم لايعود من ذلك إلا بنتف لا تسمن ولا تغنى من جوع.

لندع الحديث عن البحث وصعوبته أو سهولته، وحربه إن شئت ولنبدأ الحديث عن شاعرنا مستعينين بالله طالبين منه التوفيق والتسديد.

هو جحدر، ضبيعة بن قيس بن ثعلبة من جشم بن بكر أحد صعاليك الشعراء اللصوص أو شعراء الصعاليك.

وشعراء الصعاليك لهم في الشعر مكانة جليلة وآثارهم فريدة ليست بالقليلة، كيف لا ومنهم من شهد له في الشعر بالأمانة ومن له في ميدانه السبق والزعامة كالشنفري وعروة

---

(1) شعراء اليمامة.

ابن الورد وامثالها ممن أخصبت بهم رياض الشعر وأمرعت واتشحت منه بوشاح مزركش بالحب والكفاح في تلك الحياة التي قسا فيها عليهم أهلها حتى الجأوهم إلى سلوك ذلك السبيل.

الحياة التي ضاقت بهم أخلاق أهلها فخلعوهم أو استبعدوهم أو استضعفوهم واستهانوا بهم وأذلوهم لفقرهم مما اضطرهم إلى أن يشاركوا الذئاب الضاربة مرابعها ومراتعها وطباعها الشرسة القاسية فراحوا جماعات وافرادا يعملون من أجل العيش متخذين من السلب والنهب موردا معتمدين في ذلك على سيوفهم ورماحهم التي يمزقون بحدادها من يعترض سبيلهم متخذين من الفلوات مباءة ومن الليل والجبال جنة وحصوناً. فلبسوا للناس ثياب الذئاب وانسحبوا إليهم انسحاب الحباب، على أن تلك القلوب التي اكتنفتها القسوة من كل جانب وترامت بها الاخطار والأهوال وأصبحت ترى في ذلك السبيل ماهو جدير بأن يتمدح به وتنظم فيه الاشعار مثل قول جحدر:

وإن امرءا يغدو وحجرا وراءه
وجوا ولا يغزوهما لضعيف[1]

ومنها :

إذا حلة أبليتها ابتعت حلة
بسانية طوع القياد عليف

كانت تتوق إلى الحياة الآمنة المستقرة لو يسرت لهم، ولكن كما قال شاعرنا جحدر حملهم على ذلك (كلب الزمان وجرأة الجنان وغفلة السلطان)، ولنضرب مثلا بمالك بن الريب حينما دعاه سعيد بن عفان إلى أن يكون جنديا من جنود الإسلام فهب إليه مسرعاً وأبلى في ذلك بلاءا يحمد عليه وكان كثير من أولئك يحملون في صدورهم قلوبا كبيرة عامرة بأسمى معانى النبل والشرف كالكرم والإيثار والحب والوفاء والصدق والاخلاص وفي حياة عروة بن الورد أكبر دليل وأوضح برهان كيف لا وهو القائل:

---

(١) في القاموس والتاج كسكر كجعفر كورة من كور بغداد قصبتها واسط ينسب اليها الدجاج والبط يقال كان خراجها المتحصل منها اثنى عشر ألف مثقال أي من الذهب.

وإنـــي امـــرؤ عـــافـــي إنـــائـــي شـــركـــة
وأنـــت امـــرؤ عـــافـــي إنـــائـــك واحـــد

وله :

وقـــالـــوا مـــا تـــشـــاء فـــقـــلـــت ألهـــو
إلـــى الإصـــبـــاح آثـــر ذي أثير

بآنـــســـة الحـــديـــث رضـــاب فيهـــا
بـــعـــيـــد الـــنـــوم كـــالـــعـــنـــب الـــعـــصير

ولنترك الحديث عن أولئك لمناسبة أخرى ولنعد إلى شاعرنا جحدر.

من يعرف بجحدر من الشعراء ؟

من يعرف بجحدر من الشعراء ثلاثة أحدهم ربيعة بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة من بكر بن وائل.

والثاني جحدر بن معاوية العكلي.

والثالث شاعرنا ضبيعة بن قيس بن ثعلبة من بنى جشم بن بكر[1] وسنؤجل الكلام عليه بعد الأولين لقلة ما وصلنا إليه من أخبارهما.

جحدر ربيعة الوائلى :

هو شاعر جاهلي من شجعان العرب وفرسانهم وأحد أبطال يوم (تحلاق اللمم) وسمى جحدراً لقصره وكان جميل الخلق حسن اللمة غزلا وبعض الكتب تقول إنه كان دميم الخلقة.

---

(١) لم أعثر لهؤلاء الثلاثة على تاريخ مولد أو وفاة بل كان ما علمته أن الوائلى جاهلى وأن الجشمى إسلامى أموى. أما العكلى فلا أدرى ولكن ربما كانت نسبة بعض أبيات الجشمي إليه قرينة على معاصرته له.

ولما كان يوم تحلاق اللمم وأراد قوم جحدر أن يشركوا نساءهم في الحرب فيعطوا كل واحدة منهن هراوة واداوة فيها ماء و يأمرونهن بتتبع الصرعى من القوم فاذا وجدن أحدا من أعدائهم قضين عليه بالهراوة واذا وجدن صريعا من قومهن سقينه من الاداوة وكان هذا رأى (الحارث بن غباء) وأرادوا أن يسموا أنفسهم بعلامة تعرفهم بها نساؤهم فوجدوا أن حلق الرؤوس خير ميزة فحلقوها جميعاً إلا جحدر فقد عز عليه حلق لمته فقال (لاتحلقوا رأسي فإني رجل قصير لا تشينوني، ولكن افتديه منكم بأول فارس يطلع عليكم من القوم) فطلع ابن عنق عليه فقتله فقال رجل من قوم جحدر في ذلك :

ومنا الذي فدى من القوم رأسه
بمستلئم من جمعهم غير أعزلا

وكان جحدر يرتجز و يقول :

قد يتمت بنتي وأمت كنتي
وشعثت بعد الدهان لمتي
ردوا على الخيل أن ألمتي
إن لم أناجزها فجزوا لمتي
قد علمت والدة ما ضمتي
ما لففت في خرق وشمتي
إذا الكماة بالكماة التقتي التفتي
أمخدع في الحرب أم أتمتي

ولما دارت رحا الحرب بين الفريقين وعقد مثار النقع فوق رؤوس الأبطال سماء تهاوى فيها السيوف تهاوى الشهب الساقطة وأخذ كل فريق يقتل و يأسر من الفريق الآخر أصيب جحدر بجروح بالغة خر منها صريعا ولما رأته نسوة قومه لم يعرفنه لانه لم يحلق رأسه فظنه من العدو فقضين عليه، في ذلك اليوم وقبل أن يثخن جحدر بالجراح تعاون

رجلان من بني تغلب على قتله فقتلهما جميعاً ساق هذا الخبر ابن سلام الجمحي في طبقات الشعراء اثناء كلامه عن أخبار قتادة السدوسى قال (و يروى عن بعض أصحابنا قال رأيت راكباً قدم الشام فأناخ على باب قتادة فسأله من قتل عمرا وعامرا التغلبيين يوم قصة (تحلاق اللمم) قال جحدر فأعادوا عليه كيف قتلهما جميعا قال اعتوراه فطعن هذا بالسنان وهذا بالزج فعادى بينهما ثم رحل مكانه.

هذا هو كل ما وصلنا إليه من أخبار جحدر ـ ربيعة بن ضبيعة وأما قول ابن عبد ربه أنه جحدر بن ربيعة فلعله وهم لأن الظاهر والله أعلم أن جحدرا لقب وأن اسمه كما ذكرنا عن شرحى الإمام المرزوقى والتبريزى لديوان الحماسة لأبى تمام.

جحدر العكلى :

هو جحدر بن معاوية العكلى، وعكل من مساكنها قديماً بلد (أوشيقر) المعروفه، وهو معدود من لصوص العرب ولم أعثر له على شيء سوى ما ذكره المبرد في الكامل قال (قال آخر قال : أبو الحسن هو جحدر العكلى وكان لصاً).

وقدما هاجني فازددت شوقاً
بكاء حمامتين تجاوبان

تجاوبتا بلحن أعجمي
على عودين من غرب وبان

فكان البان أن بانت سليمى
وفي الغرب اغتراب غير دان

على أن هذه الأبيات الثلاثة قد رواها أبو علي القالى في كتاب الأمالى ضمن قصيدة لجحدر ضبيعة بن قيس (صاحبنا) مع تغيير في الشطر الأول من البيت الأول.

وتذكر بعض الكتب جحدراً العكلى تعليقاً على ذكر صاحبنا فتقول : وجحدر هذا غير جحدر بن معاوية العكلى.

ولم يكن صاحبنا بأوفر حظاً من صاحبه لولا قصة سجن الحجاج له التي تكاد تكون

هي كل ماذكر له من خبر وسيأتي مع مختار مما عثرنا عليه من شعره، وظني أنني لو عثرت على كتاب السكري الذي دون فيه أشعار اللصوص وأخبارهم لوجدت فيه شيئا من أخبار وأشعار اللصين (صاحبنا) وأخيه العكلي ولكن لم أره ولا أدري ما إذا كان موجوداً أم لا؟.

تقدم لنا أنه ضبيعة بن قيس من بني جشم بن بكر وكان من أهل حجر اليمامة مقر والي بني أمية وكان الوالي زمن جحدر هو إبراهيم بن عربي من قبل الخليفة (عبد الملك) وفي إبراهيم هذا يقول مالك المذموم من قصيدة:

ناق سيرى قد جد خفا بنا السـ
ير وكوني جوالة في الزمام

فتى تلقني يد الملك الاسـ
ـود تستقيني بأن لا تضامي

وقد بقيت حجر منذ حجر عليها (عبيد بن ثعلبه بن يربوع) وعددها يومئذ ثلاثون بستاناً وثلاثون قصرا بقيت معروفة بهذا الاسم إلى زمن قريب جداً، ذكر ذلك كثير من أهل العلم.

قال : الشيخ ابن بليهد : وقد ذابت حجر في الرياض كما يذوب الملح في الماء.

وحدثني بعض من أثق به من أهل العلم والعامة قال إن حجرا كان يطلق على بئر في مكان عمائر بن سليمان والطبيشي حاليا.

والظاهر والله أعلم أن حجرا القديمة كانت على الجانبين الغربي والشرقي من البطحاء (شارع الملك سعود) ثم أخذت تنقص من أطرافها حتى انتهت وطوى ذلك الاسم وكان بحجر قديما سجن اسمه دوار سجن فيه جحدر فقال يصفه :

كانت منازلنا التي كنا بها
شتى وألف بيننا دوار

سجن يلاقي أهله من خوفه
أولا ويمنع منهم الزوار

يغشون مقطرة كأن عمودها
عنق يعرق لحمها الجزار

ومن قوله فيه أيضاً :

يارب دوار انقذ أهله عجلا
وانقض مرائره من بعد إبرام

ولما خرج منه استأنف طريقه في السلب والنهب وكانت له في ذلك حيل وطرقه غريبة منها مارواه الجاحظ في كتاب الحيوان قال : كان جحدر اذا نزلت رفقه قريبا منه أخذ شنة فجعل فيها قردانا ثم نثرها بقرب الإبل فاذا وجدت الإبل مسها نهضت وشد الشنة في ذنب بعض الإبل فاذا سمعت صوت الشنة وعملت فيها القردان نفرت ثم كان يثب في ذروة ماند منها و يقول ارحم الغارة الضعفاء يعنى القردان.

قال أبو برزة (ولم تكن همته تجاوز بعيراً).

وكون همته لا تتجاوز البعير الواحد فلأنه ذئب والذئب لايتاجر ولايدخر وإنما يغير متى جاع. وقد هجا جحدرا حصين بقوله :

وأوصاني أبي فحفظت عنه
بفك الغل عن عنق الأسير

وأوصى جحدار فوقي بنيه
بإرسال القراد على البعير

ولما انتشر أمره وعظم خطره كتب الحجاج لإبراهيم بن عربى بحبسه وإرساله إليه وقد روت هذه القصة بعض كتب الأدب وسنذكر لك رواية المحاسن والأضداد المنسوب للجاحظ لأن فيها تسلسلا وتفصيلا أكثر من غيرها وربما تصرفنا فيها بحذف يسير في ما لاداعي لذكره سوى الإطناب.

(كان باليمامة رجل من بني حنيفة يقال له جحدر وكان لسنا فاتكا شجاعاً شاعراً وكان قد أبر على أهل حجر وناحيتها فبلغ الحجاج بن يوسف فكتب إلى عامل اليمامة يوبخه بتلاعب جحدر به و يأمره بالتجرد في طلبه حتى يظفر به فبعث العامل إلى فتية من بني يربوع بن حنظلة فجعل لهم جعلاً عظيماً إن هم قتلوا جحدرا أو أتوا به اسيرا ووعدهم أن يوفدهم إلى الحجاج و يسني فرائضهم فخرج الفتية في طلبه حتى اذا كانوا قريبا منه بعثوا إليه رجلا منهم يريه أنهم يريدون الانقطاع إليه والتحرم به فوثق بهم واطمأن اليهم فبينما هم على ذلك اذ شدوه وثاقا وقدموا به إلى العامل، فبعث به معهم إلى الحجاج وكتب يثني على الفتية.

فلما قدموا على الحجاج قال أنت جحدر قال نعم قال ما حملك على ما بلغني عنك جرأة الجنان وجفوة السلطان وكلب الزمان قال ما الذي بلغ من أمرك فيجترىء جنانك و يصلك سلطانك ولا يكلب زمانك قال لو بلاني الأمير لوجدني من خير الأعوان وممن أوفى على أهل الزمان قال الحجاج إنا قاذفوك في قبة فيها أسد فإن قتلك كفانا مؤنتك وإن قتلته خليناك ووصلناك قال قد أعطيت أصلحك الله الأمنية وأعظمت المنة وقربت المحنة فأمر به فاستوثق منه بالحديد والقى في السجن وكتب إلى عامله بكسكر[1] يأمره أن يصيد له أسداً ضارياً فلم يلبث العامل أن بعث إليه بأسود ضاريات قد أبرت على أهل تلك الناحية ومنعت عامة مراعيهم ومسارح دوابهم فجعل منها واحدا في تابوت يجر على عجلة فلما قدموا به على الحجاج أمره فألقى في حيز وأجيع ثلاثا ثم بعث إلى جحدر فأخرج وأعطى سيفا ودلى عليه فمشى إلى الأسد وأنشأ يقول :

ليث وليث في مكان ضنك
كلاهما ذو أنف ومحك

حتى إذا كان منه على قدر رمح تمطى الأسد وزأر وحمل عليه فتلقاه جحدر بالسيف فضرب هامته ففلقها وسقط الأسد كأنه خيمة قوضتها الريح فانثنى جحدر وقد تلطخ بدمه لشدة حملة الأسد عليه، فكبر الناس فقال الحجاج إن أحببت أن الحقك ببلادك وأحسن صحبتك وجائزتك فعلت وإن أحببت أن تقيم عندنا أقمت فأسنينا فريضتك قال: اختار صحبة الأمير ففرض له ولجماعة أهل بيته.

---

(١) في القاموس والتاج كسكر كجعفر كورة من كور بغداد قصبتها وأسط ينسب إليها الدجاج والبط يقال كان خراجها المتحصل منها أثنى عشر ألف مثقال أى من الذهب.

وبعد أن اجتاز جحدر هذا الامتحان القاسي من الحجاج قال قصيدة يصف فيها ذلك الموقف الرهيب غير المألوف عند العرب، وإنما تسرب إليهم من الرومان الذين كانوا يوقعون هذا العقاب على الآبقين من العبيد، وعلى العصاة المتمردين، فمن هلك فهو جزاؤه ومن نجا غفر له.

وسنقدم لك بعضا من تلك القصيدة التي وصف فيها الأسد وكيف قتله ووصف فيها الناس من حوله وقال إنهم قد انقسموا إلى قسمين منهم شامت ومنهم من غص بعبرته خوفا عليه قال :

يا جمل إنك لو رأيت بسالتي
في يوم هيج مردف وعجاج

وتقدمي لليث أرسف نحوه
حتى أكابده على الإحراج

جهم كأن جبينه لما بدا
طبق الرحى متفجر الأثباج

ومنها :

شثن براثنه كأن نيوبه
زرق المعاول أو شذات زجاج

وكأنما خيطت عليه عباءة
برقاء أو خلق من الديباج

قرنان محتضران قد ربتهما
أم المنية غير ذات نتاج

ومنها :

فمشيت أرسف في الحديد مكبلاً
بالموت نفسي عند ذاك أناج

والناس منهم شامت وعصابة
عبراتهم لي بالحلوق شواج

فلقت هامته فخر كأنه
أطم تقوض مائل الأبراج

إلى آخر القصيدة.

وقد روى له أبو علي القالي في أماليه قصيدة قالها وهو في سجن الحجاج، وهي التي منها الأبيات الثلاثة التي نسبت لجحدر بن معاوية العكلي وقد تقدمت الإشارة إليها في صدر الحديث نذكر لك بعضا منها.

قال :

تؤبنني فبت لها كنيعا
هموم ما تفارقني حواني

هي العواد لأعواد قومي
أطلق عيادتي في ذا المكاني

إذا ما قلت قد أجلين عني
ثنى ريعانهن علي ثاني

وكان مقر منزلهن قلبي
فقد أنفنه والهم آني

ومنها :

فيا أخوي من جشم بن بكر
أقلا اللوم إن لم تنفعاني

إذا جاورتما شعفات حجر
وأودية اليمامة فانعياني

وقــولا حـــجــدر أمـــســـى رهـــيـــنـــا
يحـــاذر وقـــع مـــصـــقـــول يمـــانـــي

وهي حسب رواية القالي واحد وعشرين بيتا ختمت بهذا البيت الذي يقول فيه جحدر أنه لايهاب الموت لأن معناه انتهاء حياته. وإنما لأن معناه بقاء الحقوق التي عليه لسنانه وعشيرته ومهنده بلا قاض :

ولم أك قـــد قـــضـــيـــت حـــقـــوق قـــومـــي
ولا حـــق الـــمـــهـــنـــد والـــســـنـــان

وروى منها :

أخـــذت بمـــا جـــنـــى لـــص طـــريـــد
ومـــا جـــرت يـــداي ولا لـــســـانـــي

ويبدو أن هذه القصيدة طويلة أكثر مما رواها القالي فقد روى منها ياقوت في معجم البلدان ستة عشر بيتا منها أربعة لم ترد في رواية القالي وهي :

فـــأســـبـــلـــت الـــدمـــوع بـــلا احـــتـــشـــام
ولم أك بـــالـــلـــئـــيم ولا الجـــبـــان

ألم تـــرنـــي غـــذيـــت أخـــا حـــروب
اذا لم أجـــن كـــنـــت مجـــن جـــان

ومنها :

ســـتـــبـــكـــي كـــل غـــانـــيـــة عـــلـــيـــه
وكـــل مخـــضـــب رخـــص الـــبـــنـــان

وكـــل وقـــتـــى لـــه أدب وحـــلـــم
مـــعـــدى كـــريم غـــيـــروان

وكثير من الأبيات الباقية في رواية ياقوت مختلفة في روايتها عن رواية الأمالي والقول في هذا يطول.

البحث الحادي عشر

الأستاذ الدكتور/ محمد محمد حسين وصلته بالتراث

الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين وصلته بالتراث

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين و بعد.

فإن مما يراه البعض سهلاً ميسوراً الحديث عن الشخصيات وآثارها وهذا صحيح في المشهور ين العادين وغير صحيح في مقامين.

أولها : أن تكون الشخصية ذات قدر في علمها، ولكنها مغمورة لم تتحدث عنها الأقلام ولم تتعاور ذكرها الألسنة.

وثانيها : أن تكون الشخصية من نباهة الشأن وعلو القدر والمنزلة بحيث يجرى ذكرها على كل لسان.

و يشاهد أثرها في كل مكان فيعلوا قدرها وتصبح علماً علي زمانها ومكانها وميدان فكرها ولكنها مع ذلك كله تعلو وترتفع عن مراقى الشهرة ومساقط الأضواء لتبقى حرة في تحركها الفكرى وعملها التربوى من غير أن تشغلها عن ذلك شئون الدنيا وأربابها اللاهثون وراء مظاهرها كما تلهث اللاهثات. بل يظل ذلك النموذج الصالح من الشخصيات متربعاً على قمم معالم الإصلاح، وذرا معاقل الفكر والإرشاد يعلو بعزته، و يسمو بأنفته و يغنى بعفته، ولذا يظل قمة في الحياة والممات، لايحل في حياته أرضاً إلا كان فيها مقصداً لذوى العرفان ولا مجتمعاً إلا كان فيه صدر أهل البيان يجله العدو إجلال الصديق، ويحتفي به العلماء احتفاء التلامذة بالأساتيذ لعلمه أولا، ثم لنوع سلوكه في الحياة.

ذلكم أيها الأخوة هو أستاذنا الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين ــ رحمه الله ــ رحمة واسعة وجزاه عن الأمة الإسلامية والعربية خير مايجزى به الصالحون المصلحون...

وحين أقدمت على الحديث عن هذه القمة التي ائتم بها أبناء العصر احترت بين

مدارج الصعود إليها، وكاد الحديث عن أيام صحبته يغلب، غير أني وجدتني أشرك معه نفسي فيه فادخرت هذا لمناسبة أخرى وأقبلت على علاقته بالتراث أحوم في أجوائه وأتفيأ أفنان أدواحه لأقبس من هذا نوراً ومن ذلك سطوراً لأردها ذكرى وثناء على حد قول المثل المبذول [نضيف جحا من لحم ثوره].

تتجلى صلة أستاذنا الدكتور محمد محمد حسين بالتراث في ناحيتين من فكره، وإن كانت تحس في جميعه.

فأما الناحية الأولى : فإنها تظهر في حرصه على الحفاظ على موروثات الأسلاف في اللغة والآداب والعادات والتقاليد، ومحاربة كل ما قد يفضى إلى فساد في أى جانب من جوانب ما يعتز به من الموروثات من قريب أو من بعيد والناظر في كتبه الخمسة ١ ــ الاتجاهات الوطنية ٢ ــ أزمة العصر ٣ ــ حصوننا مهددة من داخلها ٤ ــ الثقافة الغربية ٥ ــ الروحية الحديثة.

تتجلى له روح الرجل في أصدق صورها، وبخاصة عندما يتحدث عن العامية ودعاتها وعن الثقافة الغربية وما ألقت به من أدرانها في طريق الأمة العربية والإسلامية وهى تنشد عودة مجدها ومنزلتها في العالم.

أما أهم أثاره في ميدان التراث فخمسة

١ ــ تحقيق ديوان الأعشى ميمون بن قيس ٢ ــ الهجاء والهجاءون في الجاهلية ٣ ــ الهجاء والهجاءون في صدر الإسلام ودولة بنى أمية ٤ ــ المتنبى والقرامطة ٥ ــ أساليب الصناعة.

والناظر إلى موضوعات كتبه بلا استثناء يجد أنها جميعاً من الموضوعات التي تهيب ميدانها كثيرون أو أنها موضوعات ذات حساسية في الميادين الفكرية، فهل تستطيع تحسس علة هذا الاتجاه والأسباب الدافعة إليه. نستطيع تلخيص ذلك في رواية ثلاثة أبيات من الشعر أحدها قول بعضهم.

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه فكن طالباً في الناس أعلى المراتب

والآخر قول أبى الطيب :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

فكأنه تمثل النصيحة في البيت الأول فتحقق في أعماله معنى البيتين الآخرين لقد كان مؤمناً صادقاً، وتقياً نقياً ومتعفقاً مترفعاً، إذا تعارض حقه المالى مع الاحتفاظ بالكرامة قدم الاحتفاظ بالكرامة على المال.

ولم أعرف أن الرجل انتصف لنفسه من المسيئين إليه، وما جد في طلب أو جاه وتلك قواصم ظهور العلماء، يشتد حين تكون الخصومة فكرية، فإذا وصلت الأمور إلى إطار الشخصيات انطوى كأنما حدث في أمر مخجل.

وإذا كانت دراساته التي اتخذت من العصر الحديث موضعاً قد اتسمت بأنها دراسات فكرية عامة، فإن دراساته في القديم كلها ذات صبغة أدبية راقية ابتداء بـ«الهجاء والهجاءون» وانتهاء بالمتنبى والقرامطة وسنحاول في هذا الحديث المقتضب المرور على بعض أفكاره ومجهوداته في التراث.

في حديثه عن الاغراض الشعرية في كتابه الهجاء والهجاءون في الجاهلية» بدأ الحديث عن الذين بوبوا أغراض الشعر ابتداء من أبى تمام ومروراً بالبحترى وقدامه وابن رشيق وأبي هلال العسكرى وغيرهم.

وكان يقف مع كل واحد منهم فيبين ما إذا كان تقسيمه صواباً أو خطأ وما منزعه الذي صدر فنجده ينفى عن أبى تمام والبحترى النظرة العلمية في تقسيمها الشعر و يثبت ذلك قدامة مبينا محاسن كل واحد ومساوئه مستشهداً على كل مايقول.

وإذا كان قد وصف مسلك قدامة بأنه مسلك علمى فإنه لم يرض عنه من نواح أخرى أخطأ فيها وكان الذي دفعه إلى الخطأ أنه رجل أعجمي حكم مقاييس الفلسفة والعلوم في الشعر فتبعة في ذلك أو بعضه رجال من علماء العرب كأبى هلال العسكرى في ديوان المعانى.

يقول الأستاذ الدكتور ـــ رحمه الله «كان من سوء حظ النقد أن قدامة أول من ألف فيه كتاباً فتأثر به كثير من النقاد الذين جاءوا بعده وحتى أولئك الذين كانوا ينفرون من المنطق والفلسفة وإقحامها في الدراسات الأدبية لم يستطيعوا أن يتخلصوا من أثر قدامة

و يتحرروا من قيوده فهذا أبو هلال العسكرى وهو شاعر يعتمد في كتبه في البلاغة والنقد علـى الـذوق قـد تأثر بكتاب قدامة في نقد الشعر برغم مايبدو من أنه نافر من أسلوبه في دراسـة الـشعـر هـو يتجافى في ديوان المعانى عن تقسيم قدامه و يبتعد عن التحديد المنطقى العـنيـف فـي التعريف والتقسيم و يضع بين يدى القارىء كثرة من النصوص شعراً ونثراً يـروض بهـا ذوقـه و يصقل ملكاته ولكنه مع ذلك واقع تحت تأثير قدامة نحس هذا في كثير مـن مـواضيـع كـتـابـه فـهـو يـفرد في ديوان المعانى باباً لخصال الإنسان المحمودة من الجود والشجاعة والعلم والحلم والحزم والعقل وما يجرى مع ذلك».

وهـو لم يـعـب قـدامـة لـكـونه أعجمياً لأن النزعة العرقية ليست في روح الدكتور محمد محمد حسين ــ رحمه الله ــ وإنما هو رجل أعطاه الله بصراً في العلم فهو يزن الناس بميزانه لـكـن قـد يـكـون الأصـل عـاملاً مساعداً ولذلك يشير إليه، ودليلنا على سلامة فكر الدكتور وحسن نواياه في هذا قوله عن ابن رشيق

[وابـن رشـيـق إن كـان أعـجمياً كقدامة فهو أصفى ذوقاً وأقوم طبعاً فهو صاحب شعر مـليح واختيار تتجلى فيه سلامة الذوق وفي كتابه التفاتات جميلة وملاحظات فنية حسنة، وإنما جنى عليه اعتماده على قدامة في كثير من المواضيع، وفتنته بمنطق أرسطو الذي كان بدع العلماء والمتغالين في ذلك الحين]

وحين يـعـمـد إلـى مخـالـفـة ما تعارف عليه الباحثون من ضوابط يأتى بالضابط المقترح الـذي ارتـضـاه شـامـلاً مرتبطاً بتفسيره مثال ذلك تعريفه للهجاء حيث يقول [الهجاء أدب غـنـائـى يـصـور عـاطـفـة الـغـضـب أو الاحتقار والاستهزاء وسواء في ذلك أن يكون موضوع العاطفة هو الفرد أو الجماعة أو الأخلاق والمذاهب فالهجاء لايصطنعه كما يقول برولوتيير إلا وسـيـلـة لـلـتـعـبير عن طـريـقـتـه فـي الحـسـن والتفكير، معارضاً طرق الآخرين في حسهم وتـفـكـيـرهـم، تـلـك الطرق التي تثير بالممعارضة ذاتها غضبه، أو سخطه واستثناءه أو خوفه واحتقاره أو استهزاءه]

وحين يـتـنـاول المعنى فإنه ينظر إليه من جميع زواياه فيبحث أصله ويحلل دلالته وتطوره و يـتـحـسس مواطن القوة والضعف فيه حتى يصل إلى تصور كامل يقدمه فيا يكتب للقراء مثـال ذلك حديثه عن كلمة هجاء في كتابه «الهجاء والهجاءون في العصر الجاهلى» من ص ٥ إلى ص ٣١.

فلقد بدأ الحديث عن كونه غرضاً من أغراض الشعر ثم انتهى إلى تقسيم الهجاء إلى ثلاثة.

شخصي وأخلاقي وسياسي ثم حلل الكلمة هجاء محاولاً الربط بين أصلها اللغوى ودلالتها الأدبية.

ولمح شبهاً بعيداً بين الشعر التهذيبى والهجاء فلم يترك ذلك حتى عالجة معالجة كشفت ما بين الموضوعين من وجوه القرب أو البعد.

ولم يكن ذلك شأنه في الأدب القديم وحسب بل هى سمة من سمات أسلوب بحثه سواء أكان الموضوع قديماً أم حديثاً.

ومع كونه ـــ رحمه الله ـــ من الصالحين الذين ظهر صلاحهم في أعمالهم وأقوالهم حتى عرف بوقفاته الرائعة في وجه دعاة الفساد فإنه لايتحرج في مخالفة ما تعارف عليه الباحثون المسلمون من عدهم المخضرمين من شعر الإسلام إسلامين مثل حسان بن ثابت وكعب بن زهير رضى الله عنهما.

لقد بين الدكتور محمد محمد حسين بحسه الأدبى وإدراكه اللغوى وقدرته الفكرية العامة أن الفاظ الشعراء المخضرمين وأساليبهم لم تبعد كثيراً عما عرفت به أشعار الجاهلين، وأنها إذا اختلفت عنها ففى الموضوع وفي الموقف من بعض الفكر والمقاصد كالتبذل في الغزل ووصف الخمر ونحو ذلك، ولذا عد المخضرمين في طبقة الجاهلين من حيث الألفاظ والأساليب ومن حيث أنهم نشأوا في بيئة الجاهلين.

لقد أحس ـــ رحمه الله ـــ مابين المخضرمين من شعراء عصر النبوة وبين الجاهلين من فرق في ميدان العقيدة والسلوك الفعلى والقولى وأن هذه الأمور تنعكس على طرق التعبير لدى الشعراء فجعل السبب الأساس في إلحاق المخضرمين بالجاهلين المنشأ والبيئة فقال [وقد أدخلت في هذا الجزء عصر النبوة الشعراء المخضرمين فجعلتهم جاهليين باعتبار نشأتهم وبيئتهم] ولسائل أن يسأل ما شأن هذا الرجل الصالح والهجاء والهجاءين وله نقدم الجواب في قوله ـــ رحمه الله ـــ

[ففن الهجاء من أكثر فنون الشعر ارتباطاً بواقع الحياة ومن أقدرها على أن يضيف إلى

التـاريخ ويكمل بعض مافيه من الفجوات من خلال نقده للأفراد وللمجتمعات وتصويره لجوانب الضعف فيها].

وهو صاحب فكر منطلق وعقلية رحبة يسعى وراء الحقيقة يتلمسها في الظواهر الأدبية التي تضع الحدود الفكرية بما يرى فيها من أساليب الصناعة وطرق التفكير، ولذا وجدناه لايقيد بحثه بالتقسيمات التاريخية، ولا يلزمه بالسير وراء الحدود الزمنية التي فرضها كتاب تاريخ الأدب على مؤلفاتهم.

ومن هنا وجدناه في كتابه «الهجاء والهجاءون في صدر الإسلام» يجعل هذا الزمن مبتدئاً بوفاة النبى صلى الله وسلم، ومنتهيا ـ بنهاية القرن الأول للهجرة لأنه سبق أن مد العصر الجاهلى ـ أديبا ـ ليشمل المخضرمين وكأنه بذلك يريد أن يشرع في تطبيق ما دعا إليه من تخليص الأدب من قيود الحدود التاريخية، وإخضاعه للتغييرات الأدبية الناتجة عن التغيير الحضارى والفكرى

وهذا اتجاه يخدم الخدمة الأمثل صحيح أنه يتطلب جهداً متصلاً من الباحثين ولكنه أجدى على الأدب والفكر لأن فيه من الدقة ما يجعل الحكم أقرب إلى الصدق، ثم إنه يفضى إلى وضع علامات في طريق المسيرة الأدبية تحدد التغيرات التي تطرأ على حياته على نحو أكثر وضوحاً مما نجده في التقسيم التاريخي.

وإذا كان أستاذنا الدكتور ـ رحمه الله ـ قد أشبع بالروح العربية والإسلامية إلى حد جعل بعضهم يحمل كثيراً من أقواله على التعصب للعرب فإن حديثه عن الموالى في العصر الأموى يثبت أن الرجل يحكم الإسلام أولاً وقبل كل شيء وأنه يثبت الفضل لأهله وينسب السوء لذويه دون تمييز بين عنصر وعنصر إلا بالقدر الذي يفرضه عليه المنهج العلمى الدقيق الذي يوجب وضع كل شيء في نصابه واقرأ إن شئت حديثه عن الهجاء والهجاءين من الموالى من ص٢٤٦ إلى ص٢٦١ [الهجاء والهجاءون في صدر الإسلام] ولعل كل ما سلف ذكره كان نتيجة العقلية المنظمة التي منحها الله هذا الرجل ولذا تجده دقيقاً فيما يضعه من ضوابط وأسماء وما أذكر أنى قرأت له عنوناً لم ينطبق على مدلوله انطباقاً تاما إلا في بحث أخرجه في ١٠١ صفحة وعنوانه [أساليب الصناعة في شعر الخمر والناقة بين الأعشى والجاهلين] فإذا قرأته وجدت في آخره أحاديث عن تشبيه

الطرق في الأرض، وعن التخلص من النسيب إلى المدح واخر مافيه حديث عن القوالب الشعرية وكونها مظهراً من مظاهر اكتمال اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم بعد أن تم لها هذا الاكتمال.

ولعل الذي منعه من وضع عنوان شامل الخوف من طول العنوان، والحرص على دقة الدلالة.

زد على ذلك أن أصل هذا البحث فصلان من أطروحة الماجستير التي قدمها لكلية الآداب بجامعة الأسكندرية، قال إن سبب انتزاعهما ونشرهما ما وقع عليهما من سرقة بعض الباحثين منهما وعدم إشارتهم إليهما.

كانت صلته ــ رحمه الله ــ بالتراث مبنية على ما يمليه حسة الأدبى ثم نظرته العلمية الدقيقة الفاحصة ولذا كان ينتقى موضوعات بحثه مما يتوافر فيه الحس الأدبى وفي بحثه العائد الفكرى.

وإذا كان حديثه في كتابيه «الهجاء والهجاءون في الجاهلية» و «الهجاء والهجاءون في الإسلام» قد اتسم بالجدة في الموضوع والمنهج فإن عمله في ديوان الأعشى يعد جديداً في منهجه، وأسلوب تناوله، وهو عمل كان ــ رحمه الله تعالى ــ يأنس بذكره لكن لم يمنعه هذا من الاعتراف بالفضل لذويه ونسبته إليهم [وإنما يعرف الفضل ذووه].

لقد وصف عمل المستشرق رودولف جاير في جمع وتحقيق ديوان الأعشى وصفاً جيداً ذكر فيه ما لجاير من حسنات وسيئات وفي وصفه المنصف قال

[والواقع أن مجهود الناشر في الديوان يعتبر مثالاً للدقة، وللأمانة العملية، وللجلد على العمل الطويل اتصل في خدمة هذا الكتاب أربعين عاماً. وقد اعتمدت على هذا المجهود القيم في طبعتى هذه فبدأت عملى من حيث انتهى جاير ولذلك كان من حق هذا المستشرق علىّ أن أعتبر عملى في الديوان إتماماً لمجهوده المضنى وثمرة لعمله المتصل الدءوب].

وقد يقول قائل إن جميع المحققين يصنعون مثل ذلك، وهذا صحيح لكن لا على النحو الذي نحاه أستاذنا ــ رحمه الله ــ من صراحة في القول وصدق في العبارة ودقة في الوصف وأمانة في الأخذ والنقل.

ولقد انتهى ــ رحمه الله إلى أن الملحق الذي ألحقه جاير بالديوان يشتمل على خطأ في النسبة ولذا استبعده في عمله وأقبل على نص الديوان الذي حققه جاير مقابلاً إياه بالمخطوطات التي عثر عليها كان آخرها نسخة حسنه لم يعثر عليها إلا بعد الطبعة الأولى فاستعان بها في الطبعة الثانية التي سدت تلك المخطوطة كثيراً من فجوات سابقتها كما ذكر ذلك غفر الله له.

ولعل أهم مظاهر الجده ومصادر الجمال والجلال في عمل الأستاذ أنه كان يقدم بين يدى كل قصيدة ما يسميه ترجمة نثرية لها توخى فيها إفادة القارىء وإرشاده إلى مواطن المنفعة، ومنابع الجمال.

وكان يبحث عن أيسر الطرق وأنفعها ولذلك سلك أكثر من طريقة في تلك الترجمات النثرية وإن شئت فسم ذلك تحليلا لأن هذا القول ينطبق عليه ويصدق فيه، ولم يؤثر واحدة من تلك الطرق ولم يفضلها على أخواتها بل قدمها نماذج يحتذى منها الدارسون ما يشاؤن.

وقد أوضح هدفه من ذلك بقوله : [تقريب الشعر إلى القارىء بتقديم نثر كامل للقصائد يقابل النص الشعرى، ويربطه ببيئته وبالقيم الأدبية والاجتماعية التي يصورها فقد بدا لى أن الصعوبة في ممارسة النصوص القديمة لاتقف عند غرابة الألفاظ والتراكيب. ولكن جزءاً كبيراً منها يرجع إلى طريقة تصور هؤلاء الشعراء القدماء للأشياء فمن الواضح أنها تختلف عن طريقة تصورنا لها لاختلاف البيئة زماناً ومكاناً ولتغير القيم الأخلاقية والاجتماعية تبعاً لذلك ولهذا كان شرح المفردات والأساليب وحده لايكفى لفهم الشعر وتذوقه. هذا إلى أن بعض الدارسين قد لا يعنيهم الشعر نفسه من ناحيته البلاغية والفنية إذا كان قصدهم إلى الدراسات التاريخية أو الاجتماعية. وأمثال هؤلاء يستطيعون الاستغناء عن النص الشعرى بالترجمة النثرية].

ومن مظاهر تواضعه واعترافه بفضل الآخرين والثناء عليهم به ذكره أسماء عدد من الذين أعانوه في إخراج الطبعة الأولى وذكر ما أسهم به كل واحد منهم وذلك في آخر المقدمة التي أتبعها بترجمة عربية لمقدمة المستشرق جاير ولقوة صلته بالتراث وارتباطه به تجد وصفه لجزيرة العرب وصفاً دقيقاً يدل على قدرة في التصور، ومعرفة بمواضع العرب ــ غير

أنه مع ذلك قد يقع في شيء من الخطأ من ذلك قوله في وصف البئر [فإذا عظم شأنها طووها أى بنو جوانبها بالكلس أو القرمد ـــ وهو الآجر أو اللبن المحروق].

والذي أعرفه أن العرب يطوون آبارهم ـــ أى يبنون جنباتها ـــ بالحجارة وهو من مظاهر فن البناء عندهم وقد تبقى البئر قروناً طويلة وهى قائمة على حالها وهي مربعة الشكل إلا ما كان بين البيوت فقد تكون مستديرة.

ومن ذلك أعنى مظهر صلته بتراث العرب وفهمه مقاصدهم تعليله استحسان العرب النحول في الرجل والبدانة والسمن في المرأة حيث علل للأول بكونه سبباً في سرعة حركة الرجل في الكر والفر وعلل للثانى بكونه دليل حدب الرجل على المرأة توفيره أسباب النعيم لها وذلك في ص ٢٤ .

ومنه الموازنة الدقيقة بين الجاهلى والعباسى في مقام الحديث عن اللذة حيث أوضح مدى ملك الجاهلى أمر لذته، في أن العباسى يستسلم لها مغلوباً على أمره وانظر ذلك ص ٢٤، ٢٥ .

وإذا كان قد أحسن صنعاً في نثر النظم وتقديمه في صورة سهلة ميسورة تقرب المعنى مع محافظة على الصورة الشعرية ما أمكن الأمر فإن شرح الألفاظ عنده قد يعتريه شيء من القصور حينا مثل قوله [الصبا والشمال ريحان] القصيدة رقم واحد ص ٥٣ وكان عليه أن يحدد مهب الصبا لكونها غير معروفة عند كثير من أبناء هذا العصر وهى تهب بين الشمال والشرق.

والواقع أن عمله ـــ رحمه الله ـــ في هذا الديوان يعد عملاً علمياً متكاملاً في منهجه وأسلوب معالجته، ثم في الفهارس التسعة التي ختم بها الديوان.

في رثاء الأستاذ الدكتور: محمد محمد حسين

ولما كنت قد كتبت البحث السابق في الذكرى الأولى لوفاة أستاذنا الأستاذ الدكتور/ محمد محمد حسين فإنه من المناسب هنا أن أورد أبياتاً نظمتها في رثائه، وهي وإن كانت دون مافي النفس من تقدير لذلك الأستاذ الجليل، وما فيها أيضاً من ألم أنشأه فقده، إلا أن فيها شيئاً من أداء الواجب، وشيئاً من التنفيس ثم إن أملى أن تكون سبباً في دعاء القارئين له بالرحمة والغفران، رحمه الله وعفا عنا وعنه وعن المسلمين أجمعين.

«دمعة»

صمت الصرير وجفت الأقلام ... وطوت صحائف عمرك الأيام

هدأ الزئير فلا معارك نقعها ... وهج العقول يمده الإلهام

وأبيح غاب كنت فيه مسودا ... رقص ابن آوى إذ هوى الضرغام

بالأمس كنت لدى العراك مجليا ... منحتك مالم تمنح الأقلام

فضيت في سنن التطور مدلجاً ... تجلو الظلام جشت به الأوهام

فطوتك كف البلاء تكفلت ... وحوتك أم عطفها الإرغام

ومضيت لاتلوي على ملأ سوى ... رمد العيون ودمعها السجام

وتكفلت بحديثك الأملاك في ... مثوى لعل به لك الإكرام

أنا إن بكيتك ساعة فلطالما ... ذرفت عليك دموعها الأعلام

يامؤنس الأموات ما حال الأولى ... أحياتهم قد لفها الإظلام؟

أم أنها نور يرف ضياؤه ... ويسوده الإكرام والإنعام

هل فيه ماتدريه من أحوالنا ... بعوالم يزجى بها الإجرام؟

هى وسوسات.. واليقين بأنها ... دار تكفّل أمرها العلام

سبحان من منح التقى سعادة ... رفت عليه بروضها الأعلام

ولعدله قذف العصاة بجاحم ... نار يحث سعيرها الإضرام

تعظ المنية، والبرية غيّها ... يلقى بها مايفعل الصمصام

ياراحلاً سكبت على حدبائه ... مهج الرفاق يذيبها الإعظام

لم تمض وحدك فالطريق معبد ... طرقته مذ خلقت له الأقدام

ولربما حياك منهم صالح ... بتحية حيا بها الإسلام

ياراحلاً عبر الحياة ولم يكن ... إلا كما توحى به الأحلام

ندعو لك الله الكريم وإنه ... هو الجواد تلبّه الآنام

البحث الثاني عشر
الرِّحْلَة إلى الأندلس
أو
سِينِيَّة شوقي

الرحلة إلى الأندلس
أو
سينية شوقي

لا تذكر عيون الشعر إلا سبقت إلى الذهن روائع شوقي، وما أكثرها ومن تلك الروائع السينيّة التي نحن بصدد الحديث عنها.

لقد عالج الأدباء والناقدون سينية شوقى هذه بالدرس والتحليل والموازنة والتأو يل، فذهبوا فيها كل مذهب، وجربوا فيها من القول كل مطلب(١)، وانثنت أقلامهم وهي أصدى منها حين ورودها، اذ لم يبل البحث لها أواما ولم تشف ضروب القول لها غراما.

ومن العبث أن نسمى ما نقدمه هنا دراسة فذلك يحتاج إلى ميدان أرحب ولذا فلن نعرج على دراسات الآخرين لهذه القصيدة ولن نعمد إلى الاستشهاد بآراء الناقدين والدارسين معللين النفس بالعودة ــ ان شاء الله ــ اليها بحديث ينصفها و ينصف أقلامنا من أفكارنا و يتيح الاستفادة من آراء الآخرين.

وسنعتمد هنا على نص القصيدة وحده أو تلك المقدمة التي كتبها الشاعر نفسه لقصيدته.

لم يرتح الاستعمار الإنجليزي لخديوي مصر عباس فأبعدوه عن الحكم سنة ١٣٣٤هـ لما كان شوقي شاعر عباس يتفق معه في كل رأى أوفي كل آرائه، فإن الاستعمار الإنجليزي قد نفى شوقياً إلى أسبانيا.

وحين وضعت الحرب أوزارها رحل إلى الأندلس فأقام بها فترة من الزمن فلم

(١) انظر على سبيل المثال الموازنة بين الشعراء للدكتور زكى مبارك

يصطحب معه فيتكور هيجو اوشكسبير أو تولستوى بل اصطحب البحتري ليعيش مع رجال لغته وتراثه وقد يعد هذا من دلائل المحافظة والأ صالة في فكر شوقي.

يقول شوقي[1] (لما وضعت الحرب الشؤمى أوزارها، وفضحها الله بين خلقه وهتك أزارها ورم لهم ربوع السلم وجدد مزارها، أصبحت وإذا العوادي مقصرة والدواعى غير مقصره واذا الشوق إلى الأندلس أغلب، والنفس بحق زيارته أطلب، فقصدته من برشلونة وبينها مسيرة يومين بالقطار المجد، والبخار المشتد أو بالسفن الكبرى الخارجة إلى المحيط والطاوية القديم نحو الجديد من هذا البسيط فبلغت النفس بمرآة الأرب واكتحلت العين في ثراه بآثار العرب وانها لشتى المواقع متفرقة المطالع، في ذلك الفلك الجامع، يسرى زائرها من حرم إلى حرم كمن يمسى بالكرنك ويصبح بالهرم فلا تقارب غير العتق والكرم :

(طليطله) تطل على جسرها البالى، (واشبيلية) تشبل على قصرها الخالى، (وقرطبة) معتمدة ناحية بالبيعة الغراء (غرناطة) بعيدة مزار الحمراء وكان البحتري رحمه الله رفيقي في هذا الترحال، وسميري في الرحال، والأحوال تصلح على الرجال، كل رجل لحال).

ولم يكتف شوقى بالإشارة إلى استصحاب البحترى في رحلته بل اثنى عليه وعلى شعره، وعده أبلغ من وصف الآثار والديار وصاغ الحكم والمواعظ وسجل المآثر والمفاخر، ومن هنا فضلت سينية (إيوان كسرى) في ميدان التخليد وما ذاك الأن قائلها (فإنه أبلغ من حلى الأثر، وحيا الحجر، ونشر الخبر وحضر العبر) ومن قام في مأتم على الدول الكبر، والملوك البهاليل الغرعطف على (الجعفري) حين تحمل عنه الملا، وعطل من الحلى، ووكل بعد (المتوكل) للبلى، فرفع قواعده في السير، وبنى ركنه في الخبر، وجمع معالمه في الفكر حتى عاد كقصور الخلد امتلأت منها البصيرة وان خلال البصر وتكفل بعد ذلك (لكسرى) بايوانه. حتى زال عن الأرض إلى ديوانه وسينيته المشهورة في وصفه، ليست دونه وهو تحت (كسرى) في رصه ورصفه، وهى تريك حسن قيام الشعر على الآثار وكيف تتجدد الديار في بيوته بعد الاندثار قال صاحب الفتح القسى في الفتح القدسى بعد كلام: «فانظروا إلى ايوان كسرى وسينية البحترى في وصفه تجدوا الإيوان قد خرت شعفاته

---

(١) الشوقيات جـ ٢ ص ٤٣.

وعفرت شرفاته وتجدوا سينية (البحترى) قد بقى بها (كسرى) في ديوانه، أضعاف ماتبقى شخصه في إيوانه)

ولأن شوقيا يعرف مكان قوله من قول الآخرين ولأنه كان يتخذ المعارضة وسيلة إهاجة للشاعر والإحساسات ولايتعدى أثر القصيدة المعارضة اكثر من هذا إلا في النادر القليل[2] لهذا كله لم يـر غضاضة في ان يذكر اقتدائه بالبحترى وتأسيه به (فكنت كلما وقفت بحجر أو طغت بأثر تمثلت بأبياتها واسترحت من مواثل العبر إلى آياتها وأنشدت فيما بيني وبين نفسي :

وعظ البحتري إيوان كسرى وشفتنى القصور من عبد شمس

ثم جعلت أروض القول على هذا الروى وأعالجه على هذا الوزن حتى نظمت هذه القافية المهلهلة واغمت هذه الكلمة الريضه[3]

ويمكننا أن نأخذ من ترديد شوقي لأحد أبيات قصيدته قبل نظمها دليلا على أنه قد ينظم بيتا يكون في وسط القصيدة قبل أن ينظم المطلع، وأنه كان يعالج شعره بالتهذيب والتنقيح والتقديم والتأخير، وهذا ليس بعيب في الشعر والشاعر بل عده المتقدمون دليل اتقان صنعة الشعر.

ثم إن في هذا البيت

وعظ البحتري إيوان كسرى وشفتني القصور من عبد شمس

ماهو من قبل المفاخر فالشاعران سلما غير أن الأول جعل إيوان المجوس معتبره على حين وعظت الآخر آثار المسلمين.

لقد نظم شوقي هذه القصيدة في ظرف عصيب، كان الشاعر فيها يستظل الغربة

---

(١) الشوقيات جـ ٢ ص ٤٣.
(٢) من ذلك (نهج البرده) ومضناك جفاه مرقده.
(٣) الشوقيات جـ ٢ ص ٤٤.

وظروف الحرب العالمية الأولى وكان الاستعمار الإنجليزي قد بسط نفوذه على مصر فضيق على أبنائها ونفى المخلصين ومنهم أحمد شوقى فأبصر بلاده وقد باتت نهبا في ايدى الغرباء فغلت مراجل غضبه ولكنه الرجل الحكيم مهما غضب فإنه ينزه لسانه عن السباب لأنه قادر على أن يصوغ من بليغ القول المحتشم مايفعل فعل السيف ولكنه يمزجه بالبكاء والأنين والتشوق إلى وطنه فلنصحبه في قصيدته هذه.

يبدأ الشاعر قصيدته بإسناد الخطاب إلى ضمير المثنى وهو أسلوب مألوف في الشعر العربى، انه يخبر صاحبيه بأمر هو نتيجة خبره فأطال عهد الأنس وما نسى شوقي صباه وأيام أمسه ولكنه التلذذ بمرور شريط الذكريات.

ثم ينتقل من هذه المقدمة التي لم تتجاوز ثلاثة أبيات إلى الدخول في غرضه من طريق العطف بالواو، ثم الاستفهام المتضمن معنى الإنكار لأمرين .

أولها سلوان مصر، والثاني تمكن الزمان من خلخلة تذكر فؤاده لمصر يؤكد هذا بدعوى أن قلبه لم يكن كالقلوب، فكلما مرت الليالى عليه رققته ودليل ذلك خفقاته عند سماعه أصوات البواخر تعلن عن إبحار المسافرين، فيرف خلفها وكأنه يريد أن يتعلق بها، ولذا فهو يعتب على البحر الذي قبض عنه يد كرمه وقام حاجزا بينه وبين موطنه الذي، حرم منه وأبيح للغرباء :

أحرام على بلابله الدوح حلال للطير من كل جنس

وما كان الغريب اولى من رب الدار الا حين تنعكس المفاهيم، لهذا الانعكاس صارت أنفاسه مرجلا، لذا فالسفينة تسير في بحر دموعه فلا حدود حرج إن هو حدد لها مكان رسوها بين الرمل والعكس في شطآن الاسكندرية.

ويبلغ حب وطنه والشوق إليه مبلغه فتفضى به المبالغة إلى مالا يحمد، وإن كان رحمه الله قد احترز باستعماله (نازعتنى)

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي

وقد غلط من عد هذا البيت تفضيلا لموطنه عن الخلد لأنه في الواقع لايحتمل سوى الدلالة على الاشتياق إليه في أى حال مهما سمت به مرتبة السعادة فيه

ثم يرسم لوحة شعرية لمصر ترى فيها الجزيرة والنيل والجسور والمساجد والمعابد والمسلات والنخيل والأهرامات وأبا الهول وكل ماتحوى طبيعة مصر ويروى تاريخها ، لوحة شعرية لا يستطيع رسمها إلا شوقي شاعر الجمال لكنه يفرغ منها وقد بلغ الإرهاق بقلبه مبلغا فيناجيه :

يافؤادي لكل أمر قرار   فيه يبدو وينجلي بعد لبس
عقلت بحق الأمور عقولا   كالت الحوت طول سبح وغس
غرقت حيث لايصلح بطاف   أو غريق ولا يصاخ لحس

صورة لتقلب الايام وتبدل الأزمان يظل ينتقل فيها من عبرة إلى عبرة يفضى بلباقة ومهارة إلى الحديث عن دول الإسلام وحضارة العرب حيث يرى بأم عينيه أطلال تلك الحضارة تخاطبه بلسان أقوام نصروا الله فنصرهم وحكمهم في الأرض التي استخلفهم فيها، لكن خارت عزائم الخلف ومزقتهم الأهواء فأتاحوا الفرصة لعدوهم الذي لم يرع فيهم إلاّ ذمة ولم يبق منهم إلا هذه الاطلال التي منحت الشاعر الموعظة كما منحها الإيوان البحترى ويشتد به الشوق إلى الوطن من جديد فيعود للحديث عن حاله وكيف أنه يرحل بفكره إلى وطنه فيصور طبيعة ويصوغ تاريخه وهو في جزيرة الأندلس ينقله حزنه من وعر إلى سهل في بلاد عمرها الخلفاء والملوك ثم قضوا وتركوا الجنة الخضراء وتلك المدن التى كانت منائر العلم والعرفان ومصدر القوة والسلطان وها هو يعيش معهم في ذلك الزمان بعد أن اتخذ من التاريخ مركبا بلغ به زمنهم وألمسه آثارهم عبرا وعظات :

ركب الدهر خاطري في ثراها   فأتى ذلك الحمى بعد حدس
فتجلت لي القصور ومن فيها   من العز في منازل قعس

وحين صورهم له حسه لم يقف به عند تصور الديار وساكنيها بل أبصر بعين خياله مجالس العلم في بيوته وقد ملكت منها العقول كل نفس.

ولم يكن خيال شاعر الإسلام بالغافل عن بيوت الله بل صورها في عيد الأسبوع (الجمعة) وقد أقبل الناس والناصر يؤمهم.

وعلى الجمعة الجلالة و(الناصر) نور الخميس تحت الدرفس

لكن غمرة الخيال لا تلبث ان تنقشع فيصحوا الشاعر و يداه صفر من كل جلال وجمال اذ يبصر الديار اطلالا خلت من الانيس ولكنها لا تزال تحدث بالعظمة والجلال رغم ألف عام حبت على رقيقها يدنيها من الروح انها حديث عظمة الإسلام.

وحين صحا الشاعر على الواقع الأليم راح يعزى نفسه بوصف ما قاوم هجمات الزمن

إبداعه

من آثار الأسلاف ولم يكن سلاحه وفنه الرفيع وحسب، وإنما كان يصور انعكاس ذلك التصور على مرآة شعوره وإحساسه، تتموج أمام بصيرته وترف، وتموج النمير ترف النسيم.

وآي القرآن المتجددة في جلالها وعظمتها تكاد تنشق الشاعر ريا وردها:

مرمر تسبح النواظر فيه ... و يطول المدى عليها فترسى
وسوار كأنها في استواء ... ألفات الوزير في عرض طرس
فترة الدهر قد كست سطريها ... ما اكتسى الهدب من فتور ونعس
ويحها كم تزينت لعليم ... واحد الدهر واستعدت لخمس
وكأن الرفيق في مسرح العيـ ... ـن ملأ مدنرات الدمقس
وكأن الآيات في جانبيه ... يتنزلن من معارج قدسي
منبر تحت (منذر) من جلال ... لم يزل يكتسبه أو تحت (قس)
ومكان الكتاب يغريك ربا ... ورده غائبا فتدنو للمس
صنعه (الداخل) المبارك في ... الغرب وآل له ميامين شمس

و يفرغ الشاعر من مغالبة حسه وشعوره فيعود إلى الواقع باكيا

بلسان واصف، يعصر الألم قلبه فينفسه لسانه أنات عزيز يبصر دلائل عز الاباء أثرا بعد عين :

مشت الحادثات في غرف (الحمـ ... راء) مشى النعي في دار عرس

ويقلب طرفه بين الغابرين والحاضرين فلا يرى غير وافدين يستنطقون التاريخ أو يعتبرون وهم ينقلون الطرف في معالم كانت أنس الوجود شغل الشاعر نفسه بها لحظات ثم قفزت إلى مخيلته صورة الجزيرة منهوكة بعد عرك الزمان وتفريط المالكين من أبناء الفاتحين فتثور غضبهم في نفس الشاعر يفرغها لوماً وتوبيخاً تشيعه الأنات والزفرات :

آخر العهد بالجزيرة كانت ... بعد عرك من الزمان وخرس

فتراها تقول : راية جيش ... باد بالأمس بين أسر وحس

ومفاتيحها مقاليد ملك ... باعها الوارث المضيع ببخس

خرج القوم في كتائب صم ... عن حفاظ كموكب الدفن خرس

ركبوا بالبحار نعشا وكانت ... تحت آبائهم هي العرس أمس

رب بان لهادم وجموع ... لمشت ومحسن لمخس

إمرة الناس همة لاتأتى ... لجبان ولا تنسى لجبس

ويلتفت إلى بلاد الأندلس ليقضى حقها عليه وقد آوته حين حكم عليه الباغون بالنفي والتشريد، فيصف طبيعتها وأهلها وحنوها على ساكنيها قضاء لحقها بالثناء وحفظاً للجميل :

ياديارا نزلت كالخلد ظلا ... وجنى دانيا وسلسال أنس

محسنات الفصول لا ناجر فيها ... يقيظ ولا جمادى بقرس

لاتحس العيون فوق رباها ... غير حور حو المراشف لعس

كسيت أقرص بظلك ريشا ... وربا في رباك واشتد غرسى

هم بنو مصر لا الجميل لديهم ... بمضاع ولا الصنيع بمنسى

من لسان على ثنائك وقف   وجبان على ولائك حبس
حسبهم هذه الطلول عظات   من جديد على الدهور ودرس
وإذا فاتك التفات إلى الماضى   فقد غاب عنك وجه التأسي

هذا عرض سريع مجمل لهذه الرائعة لم تنقله بالوازنات والمقارنات ولم نبسطه بالدرس والتحليل يقينا منا بأن نص القصيدة أقوى عملا وأبعد أثرا في نفس القارىء مما يكتب الكاتبون، وهذا هو نص القصيدة.

سينية شوقى أو الرحلة إلى الأندلس

اختلافُ النَّهار والليل يُنسى   اذكرا لي الصِّبا وأيامَ أنسى
وصِفا لى مُلاوةً (١) من شباب   صُورِّت من تصوّرات ومَسّ
عصفت كالصَّبا (٢) اللعوبِ ومرّت   سِنةً (٣) حلوة ولذة خلس (٤)
وسلا مصر هل سلا قلب عنها   أوأسا (٥) جرُحَهَ الزمان المؤسى
كلما مرّت الليالى عليه   رقّ والعهدُ في الليالى تُقسّى (٦)
مُستطار (٧) إذا البواخر رنت (٨)   أول الليل أو عوت بعد جرس (٩)

---

(١) الملاوة : البرهة من الدهر.
(٢) الصبا : ريح مهبها من مطلع الثريا إلى بنات نعش.
(٣) السنة : النعاس.
(٤) خلس الشيء : أخذه في نهزة ومخاتلة.
(٥) أسا الجرح : داواه.
(٦) قساه تقسية : أي صيره قاسياً.
(٧) مستطار، استطير الشيء : طير وانتشر.
(٨) رن : أي صاح ورفع صوته بالبكاء.
(٩) الجرس : الصوت.

راهب[1] في الضلوع للسفن فطن[2] | كلما ثرن شاعهن بنقس[3]
يا ابنة اليم[4] ما أبوك بخيلٌ | ماله مولعاً بمنع وحبس
أحرامٌ على بلابله الدو | حُ حلالٌ للطير من كل[5] جنس
كل دار أحق بالأهل إلا | في خبيث من المذاهب رجس[6]
نفسي[7] مرجل وقلبي شراع | بهما في الدموع سيري وأرسي
واجعلي وجهك (الفنار) ومجرا | ك يدَ(الشغر) بين(رمل) و(مكس)
وطني لو شغلت بالخلد عنه | نازعتني إليه في الخلد نفسي
وهفا[8] بالفؤاد في سلسبيل | ظمأ للسواد[9] من (عين شمس)
شهد الله لم يغب عن جفوني | شخصه ساعة ولم يخل حسي
يُصبح الفكر و(المسلة) ناد | يه و(بالسرحة الزكية) يمُسي
وكأني أرى الجزيرة أيكا[10] | نغمت طيره بأرخم جرس[11]

---

(١) الراهب هو من تبتل لله واعتزل عن الناس إلى الدير طلباً للعبادة، ويشبه به القلب.
(٢) فطن للشيء : أي حذق به.
(٣) النفس : ضرب النواقيس.
(٤) اليم : البحر.
(٥) الدوح جمع دوحة هي الشجرة العظيمة.
(٦) الرجس : المأثم.
(٧) المرجل القدر من الحجارة والنحاس.
(٨) هفا أي أسرع.
(٩) السواد : ماحول البلدة من القرى.
(١٠) الأيك : الشجر الكثير الملتف وقيل الغيضة تنبت السدر والاراك ونحوهما من ناعم الشجر.
(١١) الجرس : الصوت أو خفيه.

هي(بلقيس) في الخمائل صرح[1] من عباب[2] وصاحب غير نكس[3]
حسبها أن تكون للنيل عرساً قبلها لم يُجن يوما بعرس
لبست بالأصيل حلة وشى بين صنعاء[4] في الثياب وقس[5]
قدها النيل فاستحت فتوارت منه بالجسر بين عري ولبس
وأرى النيل (كالعقيق)[6] بواديه وإن كان كوثر المتحسّي[7]
أبنُ ماء السماء ذو الموكب الفخم الذي يحسرُ العيون ويخسى[8]
لا ترى في ركابه غير مثن بجميل وشاكر فضل غرس
وأرى(الجيزة) الحزينة ثكلى لم تفق بعد من مناحة(رمسى)[9]
أكثرت ضجة السواقى عليه وسؤال اليراع[10] عنه بهمس
وقيام النخيل ضفرن شعراً وتجردن غير طوق وسلس[11]
وكأن الأهرام ميزانُ فرعون بيوم على الجبابر نحس
أو قناطيره تأنق فيها ألفُ جاب[12] وألف صاحب مكس[13]

(١) الصرح القصر وكل بناء عال.
(٢) العباب : الخوصة، والعباب معظم السبل، والعباب : ارتفاعه وكثرته.
(٣) النكس : الرجل الضعيف الدبىء الذي لاخير فيه.
(٤) صنعاء : قصبة بلاد اليمن، وقرية بباب دمشق.
(٥) ثوب قسى وتكسر قافه منسوب إلى قس وهو موضع بين العريش والفرماء من أرض مصر.
(٦) العقيق : كل سيل شقه ماء السيل، و يعنى بالعقيق هنا عقيق المدينة وهو معروف.
(٧) المتحبى أي الشارب.
(٨) يخسي من خسا البصر كل وأعيا.
(٩) رمسى : أي رمسيس.
(١٠) اليراع : القصب.
(١١) سلست النخلة سلساً :ذهب كربها.
(١٢) جاب : الجابى الذي يجمع الخراج.
(١٣) المكس : دراهم كانت تؤخذ من بائعى السلع في الاسواق في الجاهلية.

رُوعة في الضحى ملاعب جن   حين يغشى الدجى حماها ويغسى[1]
و(رهين الرمال) أفطس إلا   أنه صُنع جنة غير فطس(٢)
تتجلّى حقيقة الناس فيه   سبع الخلق في أسارير إنسي
لعب الدهر في ثراه صبياً   والليالي كواعباً غير عنس(٣)
ركبت صُيّد[٤] المقادير عينيه   لنقد ومخلبيه لفرس(٥)
فأصابت به الممالك(كسرى)   (وهرقلا)(والعبقرى الفرنسى)
يافؤادي لكل أمر قرار   فيه يبدو وينجلي بعد لبس
عقلت[٦] لجة الأمور عقولاً   كانت الحوت طول سبح وغس (٧)
غرقت حيث لا يُصاح بطافٍ   أو غريق ولا يُصاخ لحِسِّ
فلك يكسف الشموس نهاراً   ويسوم البدور ليلة وكس(٨)
ومواقيت للأمور إذا ما   بلغتها الامورُ صارت لعكس
دولٌ كالرجال مرتهناتٌ   بقيام من الجدود وتعس
وليال من كل ذات سوار   لطمت كل ربّ (رومٍ)(وفروس)

---

(١) يغسى : يظلم.
(٢) فطس الرجل : تطأمنت قضبة أنفه وانتشرت في وجهه فهو أفطس جمع فطس.
(٣) عنس جمع عانس وهى الجارية التي طال مكثها في أهلها بعد ادراكها ولم تتزوج.
(٤) صيد : واحدها صائد.
(٥) الفرس : الافتراس.
(٦) عقلت : قيدت.
(٧) غس في البلاد غساً : دخل فيها ومضى قدماً.
(٨) ليلة الوكس : أي ليلة دخول القمر في نجم منحوس.

سددت بالهلال قوساً وسلّت ... خنجراً ينفذان من كل ترس
حكمت في القرون(خوفو) و(دارا) ... وعفت[1] (وائلا) وألوت (بعبس)
أين(مروان) في المشارق عرش ... أموى وفي المغارب كرسى[2]
سقمت شمسهم فرد عليها ... نورها كل ثاقب الرأى نطس[3]
ثم غابت وكل شمس سوى هاتيك ... تبلى وتنطوى تحت رمس[4]
وعظ(البحترى) إيوان(كسرى) ... وشفتنى[5] القصور من (عبد شمس)
رُبّ ليل سريت والبرق طرفى ... وبساط طويت والريح عنسى[6]
أنظم الشرق في (الجزيرة) بالغر ... ب وأطوى البلاد حزناً[7] لدهس[8]
في ديار من الخلائف[9] درس ... ومنار[10] من الطوائف طمس
ورب كالجنان في كنف الزيتو ... ن خضر وفي ذر الكرم طلس[11]
لم يرعنى سوى ثرى قرطبى ... لمست فيه عبرة الدهر خمسى
ياوقى الله ما أصبح منه ... وسقى صفوة الحيا ما أُمسّى

---

(١) عفت : درست.
(٢) كرسي : أي عرش.
(٣) نطس : أي عالم.
(٤) الرمس : القبر.
(٥) تفتنى : أي وعظتنى هى أيضاً وعظا شافياً.
(٦) العنس : الناقة.
(٧) الحزن : ماغلظ من الارض.
(٨) الدهس : المكان السهل ليس برمل.
(٩) الخلاف : جمع خليفة.
(١٠) المنار : العلم يجعل للطريق.
(١١) طلس : واحدها أطلس وهو مالونه أسود تخالطه غبرة..

قـريـة لاتعـدّ فـي الأرض كـانـت تـمـسـك الأرض أن تـمـيـد وتـرسـى
غـشـيـت سـاحـل المحـيـط وغـطـت لجـة الـروم مـن شـراع وقـلـس(١)
ركـب الـدهـر خـاطـرى فـي ثـراهـا فـأتـى ذلـك الحمى بعد حـدس(٢)
فـتـجـلـت لـي الـقـصـور ومـن فيــ ـهـا مـن الـعـز في منـازل قعـس(٣)
مـاضـفـت(٤) قـط في الملوك على نـذ ل المـعـالـي ولا تـردت بـنـجـس
وكـانـي بـلـغـت للـعـلـم بـيـتـاً فـيـه مـال الـعـقـول مـن كـل درس
قـدسـا فـي الـبـلاد شـرقـاً وغـربـاً حـجـة الـقـومُ مـن فـقـيـه وقـس
وعـلـى الجـمـعـة الجـلالـة و(الـنـا صر) نـورُ الخـمـيس تحت الـدرفس(٦)
يـنـزل الـتـاج عـن مـفـارق (دون) ويحـلـى بـه جـبين (الـبـرنـس)
سـنـة مـن كـرى وطـيـف أمـان وصحـا الـقـلـب من ضـلال وهجس(٧)
وإذا الـدار مـابهـا مـن أنـيـس وإذا الـقـوم مـالهـم مـن محـس(٨)
ورقـيـق مـن الـبـيـوت عـتـيـق جـاوز الألـف غير مـذمـوم حـرس(٩)
أثـر مـن (محـمـد) وتـراث صـار(للـروح) ذى الـولاء الأمـس(١٠)

---

(١) القلس : حبل للسفينة.
(٢) الحدس : السير على غير هداية.
(٣) القعس : العز الثابت.
(٤) ضفت : من ضفا : سبغ واتسع.
(٥) الخميس : الجيش.
(٦) الدرفس : العلم الكبير.
(٧) الهجس : كل ماوقع في خلد الإنسان.
(٨) محس : أي حاس بهم.
(٩) الحرس : الدهر.
(١٠) الأمس : الأقرب.

بـــــلـــــغ الـــــنـــــجـــــم ذروة وتـــــنـــــاهـــــى
بين(ثهـــلان)[1] فـــي الأســـاس و(قـــدس)[2]

مــرمــر تــســبــح الــنــواظــر فــيــه ... ويــطــول المــدى عــلــيــهــا فــتــرُسى
وســوار[3] كــأنهــا فــي اســتــواء ... ألــفــات الــوزيــر[4] في عــرض طــرس
فــتــرة الــدهــر قــد كــست سطــرهــا[5] ... مــا اكــتــسى الهــدب من فــتــور ونــعــس
ويحــهــاكــم تــزيــنــت لــعــلــيم ... واحــد الــدهــر واســتــعــدت لخمس[6]
وكــأن الــرفــيــف[7] في مسرح الــعــيــ ... ـن مــلاء مــدنــرات الــدمــقــس[8]
وكــأن الآيــات فــي جــانــبــيــه ... يــتــنــزلــن مــن مــعــارج[9] قــدس
مــنــبر تحــت (مــنــذر)[10] مــن جــلال ... لم يــزل يــكــنــســيــة أو تحــت (قــس)
ومــكــان الــكــتــاب يــغــريــك ريــا ... ورده[11] غــائــبــاً فــتــدنــو لــلــمــس
صــنــعــة(الــداخــل)[12] المبــارك في الــغــر ... ب وآل لــه مــيــامين شــمــس[13]

* * *

(١) ثهلان : جبل بالعالية.
(٢) قدس : جبل عظيم بنجد.
(٣) السوار : واحدتها سارية وهى الاسطوانة (العمود).
(٤) الوزير : يعنى به ابن مقلة المشهور بجودة الخط.
(٥) سطرها : صفوفها.
(٦) ويحهاكم تزينت العليم : أي لمدرس عالم، واستعدت لإقامة الصلوات الخمس.
(٧) الرفيف: السقف.
(٨) المقس : الحرير.
(٩) المعارج : واحدها معرج وهو السلم والمصعد.
(١٠) منذر : هو قاضي الأندلس منذر المعروف بالعدل والزهد.
(١١) ريا ورده : أي رائحة ورده.
(١٢) الداخل : هو عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام مؤسس الدولة الأموية بالأندلس.
(١٣) الشمس : الأباة.

مـن (الحمـــراء) جـلـلـت بـغـبـار الـ ... دهـــر كـــالجـــرح بين بـــرء ونـــكـــس
كـسـنـا الـبـرق لـو محـا الضوء لحظا ... لمحتهـا الـعـيـون مـن طـول قـبـس
حـصـن(غـرنـاطـة) ودار بـنـى(الأحـ ... ـمـر) مـن غـافـل ويـقـظـان نـدس (١)
جـلـل الـثـلـج دونهـا رأس (شـيـرى) ... فـبـدا مـنـه فـي عـصـائـب بـرس(٢)
سـرمـد شـيـبـه ولم أر شـيـبـاً ... قـبـلـه يـرجـى الـبـقـاء ويـنـسـى
مـشـت الحـادثـات فـي غـرف (الحمـ ... ـراء) مـشـى الـنـعـى فـي دار عـرس
هـتـكـت عـزة الحـجـاب وفـضـت ... سـدة الـبـاب مـن سـمـير وأنـس
عـرصـات تخـلـت الخـيـل عنهـا ... واسـتـراحـت مـن احـتـراس وعـس(٣)
ومـغـان عـلـى الـلـيـالـى وضـاء ... لم تجـد لـلـعـشـى تـكـرار مـس
لا تـرى غير وافـديـن عـلـى الـتـا ... ريـخ سـاعين فـي خـشـوع ونـكـس
نـقـلـوا الـطـرف فـي نـضـارة آس ... مـن نـقـوش وفـي عـصـارة ورس(٤)
وقـبـاب مـن لا زورد وتبر ... كـالـربـى الـشـم بين ظـل وشـمـس
وخـطـوط تـكـفـلـت لـلـمـعـانـى ... ولألـفـاظـهـا بـأزيـن لـبـس
وتـرى مجـلـس الـسـبـاع خـلاء ... مـقـفـر الـقـاع مـن ظـبـاء وخـنـس
لا (الـثـريـا) ولا جـوارى لـلـثـريـا ... يـتـنـزلـن فـيـه أقـمـار إنـس
مـرمـر قـامـت الأسـود عـلـيـه ... كـلـّة الـظـفـر لـيـّنـات المجـسّ

(١) الندس : القيم.
(٢) عصائب برس : أي بيض كالقطن.
(٣) العس : احتراس الليل.
(٤) الورس : نبات أحمر اللون.

تنثر الماء في الحياض جماناً ... يتنزى على ترائب ملس

آخر العهد بالجزيرة كانت ... بعد عرك من الزمان وضرس[1]

فتراها تقول : راية جيش ... باد بالامس بين أسر وحسّ[2]

ومفاتيحها مقاليد ملك ... باعها الوارث المضيع ببخس

خرج القوم في كتائب صم ... عن حفاظ[3] كموكب الدفن خرس

ركبوا بالبحار نعشاً وكانت ... تحت آبائهم هى العرش أمس

رب بان لهادم وجموع ... لمشتّ ومحسن لمخسّ

إمرة الناس همة لا تأتى ... لجبان ولا تسنى لجبس[4]

وإذا ما أصاب بنيان قوم ... وهى خلق فإنه وهى أس

يا دياراً نزلت كالخلد ظلا ... وجنى دانياً وسلسال أنس

محسنات الفصول لا ناجر[5] في ... ها بقيظ ولا جمادى بقرس[6]

لاتحس العيون فوق رباها ... غير حورحو[7] المراشف[8] لعس[9]

كسيت أفرخى بظلك ريشاً ... وربا في رباك واشتد غرسى

---

(١) الضرس : من ضرس الزمان القوم اشتد عليهم.
(٢) الحس : القتل.
(٣) الحفاظ : الذب عن المحارم.
(٤) الجبس : الجبان.
(٥) شهر رجب أو صفر أو كل شهر من شهور الصيف.
(٦) بقرس : ببارد.
(٧) حو المراشف أي سمر الشفاه وهو مستملح من النساء.
(٨) المراشف : الشفاه.
(٩) اللعس : سواد مستحسن في الشفة.

هم بنو مصر لا الجميل لديهم   بمضاع ولا الصنيع بمنسى
من لسان على ثنائك وقف   وجنان على ولائك حبس
حسبهم هذه الطلول عظات   من جديد على الدهور ودرس
وإذا فاتك التفات إلى الما   ضي فقد غاب عنك وجه التأسي

الفهرس

الموضوع	الصفحة

البحث الرابع :

البحث الخامس :

البحث السادس :

البحث السابع :

البحث الثامن :

البحث التاسع :

AL-FARAZDAK PRESS مطـــابع الفـــرزدق التجـــارية

تلفون ٤٨٢٤٨٦٥ / ٤٨٢٤٩٨٣

ص.ب ١٦٩٨ الرياض ١١٤٤١